Arab_Books

الطاهر بنجلّون

زواج المتعة

رواية

المركز الثقافي العربي

الطاهر بنجلّون

زواج المتعة

الكتاب

زواج المتعة

تأليف

الطاهر بنجلّون

ترجمة

محمد المزديوي

الطبعة

الأولى، 2017

الإيداع القانوني:

2017MO0311

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9981-72-036-7

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

نُشر هذا الكتاب بدعم من

وزارة الثقافة

المملكة المغربية

وزارة الثقافة

ⵜⴰⵎⴰⵡⴰⵙⵜ ⵏ ⵜⵓⵙⵙⵏⴰ

العنوان الأصلي للرواية:

Tahar Ben Jelloun

Le mariage de plaisir

© Éditions Gallimard, Paris,

2016

All rights reserved

Tele: @Arab_Books

الطاهر بنجلّون

زواج المتعة

رواية

ترجمة: محمد المزديوي

المركز الثقافي العربي

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

من أجل أمين

Tele: @Arab_Books

قالت لها أختها الصغيرة: «باللّه عليك يا أختي حدِّثينا حديثاً نقطع به سهر ليلتنا».

فقالت شهرزاد: «حبّاً وكرامةً إنْ أَذِن الملك المهذَّب».

فلمّا سمع ذلك الكلام وكان به قلقٌ ففرح بسماع الحديث.

قالت: «بلغني أيّها الملك السعيد أنه كان...».

الليلة الأولى من **ألف ليلة وليلة**.

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

الفصل الأول

كان في مدينة فاس، ذات مرة، حكواتي لا يشبه أحداً. كان اسمه جحا، وبشرته سمراء، وجسده ضامراً ونحيفاً، نظرته ثاقبة ودقيقة. كان يصل من الجنوب بعد الأمطار الغزيرة، مع بداية الربيع عادة، يستقرّ في إحدى الساحات، في مدخل المدينة العتيقة، مرة في البطحاء، ومرة في باب بوجلود، يضع معدّاته على الأرض وينتظر أن يتحلق الناس حوله. كانت ثقافته وافرة، العربية كما البربرية، ذاكرته مدهشة، رأيه سديداً، مواقفه صلبة، كان للرجل أوفياء كما كان له أعداء، ينتظرون مجيئه طيلة السنة ولا يُفَوّتون أياً من حكاياته. كانوا يمرّرون الكلمة، «لقد عاد!»، يغلقون دكاكينهم ويسرعون بالذهاب للاستماع إليه. لم يكن يحكي حكايات فقط. كان أيضاً يذكر الوقائع التاريخية كي يحثّهم على التفكير. لم يكن يتطرّق إلى المشاكل مباشرة مفضلاً الالتفاف. كان -كما يُقال- بارعاً في تلك التقنية التي تتمثّل في إلقاء نظرة على الحاضر مع الحفاظ على قدم في الماضي، الذي كان أقل مجداً ممّا يقال. لم يكن يخفي غضبه الشديد من الطريقة التي سمح بها المغرب لفرنسا بأن تستولي عليه خلال الحماية.

Tele: @Arab_Books

كان يتهكم: «هذه هي الطريقة التي سلّمنا بها أنفسنا إلى للّا فرنسا، بلد الأنوار والأفكار، الذي أصبح مزهواً بجشعه البشع. لم تكْفِه الجزائر، ولا حتى تونس، وكان يجب أن يبلع بلدنا! مسكين المغرب! مسكينة للّا فرنسا!» وفجأة، وسط خطابه، كان يتوقف، يشرب جرعة ماء، يمسك مكنسته ويكنس الساحة. عند انصرافه، كان الحكواتي يغفل دوماً حمل قدحه المليء بالقطع، مفضلاً تركه للمساكين الذين كانوا أشدّ حاجة منه إليها. كانت الشرطة قد بعثت عدّة مرات مَن يستمع إليه. لكنها لم تجد مأخذاً عليه أبداً: كان يحكي حكايات ولم يكن يضرّ بالأمن العام. خلال سرده، كان الحكواتي يؤدّي جميع الأدوار في آن، يتنكر أحياناً، يأخذ وضعيات مثيرة، وخاصة كان يعرف كيف يشدّ انتباه جمهوره. كان كوميدياً بالإضافة إلى كونه شاعراً، وكي يحيّر المستمعين إليه، كان يفضل دوماً أن يبدأ بهذه الكلمات:

«أنتم الذين تصغون إلى حكاياتي، استمعوا إلى نصيحة من كَبُر في الكثبان وعاش دوماً على قمم المشاعر: كونوا أشراراً! لا تترددوا: كونوا أشراراً! إن تهتُ، أعيدوني إلى الصواب، يجب أن يظلّ شرّكم صاحياً دوماً. لا تخفّفوا حذركم أبداً، تعاطفوا مع الشرّ، هذا الشرّ الذي يجب أن يكون في داخلنا مثل نبتة سامّة، طحلب نتن وقاتل يغذي صفارتنا ويصنع منها سمّاً ننشره في مزاريب الحياة. كونوا أشراراً! لا حاجة لي بتسامحكم. عمري وتصدّعاتي وهفواتي الكثيرة وذاكرتي التي تحضر وتغيب قد تخونني في أية لحظة، وتجعل حكاياتي

Tele: @Arab_Books

تتداخل، تختلط وتُتَوّهُكم. كونوا أشراراً! ستعيشون طويلاً! قساة وسيئين. لا متسامحين ومن دون روح! كونوا أشراراً، ستكسبون الوقت!».

كان الحكواتي حكيماً. كان يعرف أن لا جدوى من أن يحثّ الناس على أن يكونوا طيبين، وأنّ الطيبة لا تحتاج إلى دعامات كي تتقدّم. ذات مساء، خلال مروره بفاس، بينما التأم حوله حشد من الناس، قرّر جحا أن يغير قائمته وبدأ في سرد حكاية لم نسمعها منه أبداً من قبل:

«مرة ليست عادة، هذا المساء سأقص عليكم حكاية حب، حب جارف ومستحيل عاشته شخصياته حتى آخر رمق. لكن كما سترون، خلف حكاية الحب الأعجوبة تلك، يوجد الكثير من الكراهية والاحتقار، الكثير من الشرّ والقسوة. شيء عادي، هكذا الإنسان. أردتُ أن تكونوا على علم بذلك حتى لا تصيبكم الدهشة.

«كان ذات مرة، في مدينة فاس، طفل صغير اسمه أمير، ولد في عائلة تجار يُقال إنهم ينحدرون من سلالة الرسول.

«كان يوم الأمطار الأولى، وكان أخوه قد بلغ سنة من عمره عندما انتشر في المدينة خبر عودة المتسوّل. الناس الذين التقوا به يحكون أنّ صوته الجاد والقوي كان مخيفاً؛ وأن جفنيه كانا دوماً يرتعشان قليلاً بعصبية؛ وأنّ حركة من يده كانت كافية لتجعل أيّ أحد يحاول اعتراض طريقه يتراجع. كانوا يتفقون

Tele: @Arab_Books

جميعاً على أنّ الرائحة التي كانت تنبعث منه غير محتَمَلَة، كانت تسبقه وتستمرّ بعد مغادرته وقتاً طويلاً. لا أحد كان يجرؤ على أن يقترب منه أو أن يمنحه صدقة. وجهه، مع ذلك، كان يقول شيئاً آخر. وبالأخصّ عيناه، الواضحتان والواسعتان، كانتا تشعّان بضوء غريب.

«ماذا كان يريد المتسوّل، من أين جاء، ماذا كان اسمه؟ لا أحد يستطيع أن يتكهّن بذلك. لكن الأطفال أطلقوا عليه في الحال تسمية الغول أو الغدار أو الحنش. الراشدون، هم، كانوا يسمونه ولد الحرام، نذير الشؤم.

«بعد بضعة أيام من مروره، انتشر وباء التيفوس بفاس. قضى شقيق أمير الصغير في عدة ساعات. لكن من حسن حظّ أمير أنه أفلت من المرض وكذلك أبواه.

«بعد أيام من القلق، تخطت فاس المصيبة. انتقل الوباء إلى الجبال والقرى حيث شاع الموت. بين عشية وضحاها حصلت فاس على لقب «المدينة المقدّسة» دون أن يكون لأيّ سلطة دينية دخلٌ في ذلك.

«لكن فاس، في السرّ، كانت تخشى عودة المتسول الذي ظلّت ذكراه عالقة في الأذهان. من حسن الحظ، يبدو أنّ صلوات المسجد الكبير قد أبعدته.

«طيلة طفولته، خلال الأمطار الأولى للفصل، كان صوت المتسوّل الجاد يعود ليرنّ في أذني أمير، وكان يعتريه خوف لا

Tele: @Arab_Books

يوصف. وهو يكبر، انتهى به الأمر إلى نسيان ذلك، لكنه اقتنع في قرارة نفسه بأنّ الموت إنْ كان قد تجاهله، فذلك كي يحقّق شيئاً كبيراً على الأرض.

«عندما وصل إلى سنّ الشباب، أصبح أمير رجلاً وسيماً، بشرته بيضاء، قامته متوسطة، جسمه ممتلئاً، شفتاه رقيقتين، فمه مرسوماً بشكل دقيق، كتفاه مرتخيتين بشكلٍ خفيف. كان يمارس مثل أقاربه مهنة التجارة في مدينة فاس العتيقة، في حي الديوان. كان رجلاً طيباً، متفائلاً ومحدوداً، لم يكن يفوّت أياً من الصلوات الخمس اليومية. تمّ تزويجه في وقت مبكر من للافاطمة، زواجاً منظماً من سليلة عائلة كبيرة في فاس، وكان أباً لأربعة أطفال. ثلاثة صبيان وفتاة.

«في ذلك الوقت، كانت فاس تدير ظهرها للعالم. كانت قد مرت أربعون سنة منذ أصبح المغرب تحت الحماية الفرنسية، وكانت الأرستقراطية الفاسية التي تمسك بزمام المدينة تحافظ على سيطرتها بهدوء وسكينة مدهشَين. ما كان يجري خارج المدينة لم يكن يعنيها. بالنسبة لها، كان العالم يتوقّف في تلك الأزقة، في تلك الدور العتيقة التي كان بعضها قصوراً، منتظِرَة عودة موسم أشجار الليمون. كان الحرفيون يمارسون حرفهم، والتجار تجارتهم، والأسياد يتحرّكون على أحصنتهم في الأزقة الضيقة ولم يكن يساورهم أدنى شك حول سمو طبقتهم. على أية حال، هم الذين كانوا قد قاموا، في القرن التاسع عشر، باختيار

Tele: @Arab_Books

الساحة الدائرية الصغيرة بين أشابين وشيمايين في تخوم المدينة من أجل تنظيم سوق شهري، يُقام عادة يوم خميس، للمتاجرة في العبيد السود الذين يتمّ جلبهم من أفريقيا.

«كان الرقّ شيئاً طبيعياً. ينتشر في جميع أنحاء العالم، ولم يكن أهل فاس مستعدّين لتغيير أي شيء في نظام الكون الجائر. كانوا يكتفون بالعيش بحسب التقاليد ويعتقدون أن واجبهم يحتّم عليهم حمايتها وضمان استمراريتها. كانت الإماء الأوائل قد وصلن إلى المغرب بفضل التجارة التي كان أهل فاس يقومون بها مع البلدان الأفريقية القريبة. رغم انتمائهم إلى القارة نفسها، كانت فكرة اعتبار أنفسهم أفارقة بعيدة جداً عنهم. كان أهل فاس بيض البشرة، إذن هم متفوّقون على السود، مهما كانت أصولهم.

«في فاس، عشية استقلال البلاد، لا شيء كان عليه أن يتغيّر. كان الفرنسيون يراقبون ذلك من بعيد. غلالة من صوف وقطن كانت تغلف المدينة. مع ذلك نسجت هناك الكثير من الحكايات والأسرار على مرّ القرون. بشكل يثير الفضول لا أحد كان هناك كي يتحدث عنها، يكشفها، يطردها خارج هذا المجتمع المكتفي بنفسه، بأصوله، بتقاليده، بثقافته التي تختلط مع قيم الإسلام. كان العديد من اليهود والمسلمين الذين طردتهم إيزابيل الكاثوليكية من الأندلس، قد استقرّوا بفاس وحققوا ثراء المدينة، وجدّدوها، وشكّلوا أصالتها. كان بإمكان المرء، كما

Tele: @Arab_Books

يبدو، أن يغير فيها دينه دون أن يحتاج إلى تغيير اسمه. لكن تلك الفترة تبدو بائدة.

«من أجل تزويد تجارته بالتوابل والمواد النادرة، كان أمير يذهب كلّ سنة إلى السنغال مغادراً فاس لشهور طويلة. هناك، كان أبوه وجدّه اللذان مارسا التجارة قبله قد اعتادا على عقد زواج خلال كلّ فترة من فترات إقامتهما. طلب أمير، الذي كان يحب أن يلتزم بالأصول، وكان سيلوم نفسه لو فعل شيئاً يخالف الشريعة، رأيَ مولاي أحمد، أستاذ الدين الكبير في جامعة القرويين حول المسألة وسأله إن كان «زواج المتعة»، كما يُطلَق عليه، إثماً، أو فعلاً يقوّض إيمانه ويجرح زوجته. كانت لأمير في الحقيقة بعض التحفّظات حول المسألة.

«قام مولاي أحمد بتطمينه. قرأ عليه الآية 24 من سورة «النساء»: ﴿. . . وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً . . .﴾ بشكل آخر، يحلّ لرجل يُقيم بعيداً عن بيته، لفترات طويلة، أن يعقد زواج «متعة»، «استمتاع»، «راحة»، يضمن للمرأة مهراً واحترام الرجل الذي تزوّجها. شرَّع الله ذلك كي يمنع الدعارة.

««صحيح، علق مولاي أحمد، أن زواج المتعة المنعقد خارج بيت الزواج من أجل فترة محددة فيه رائحةُ حرام، يحرِّض غرائز الرجل. لا يجب أن يُفهم بأيّ حال كتشجيع على تحقير الزوجة الشرعية التي تظلّ بالبيت، أو إساءة معاملة المرأة التي يعقد عليها لفترة محددة. مفهوم «المتعة» مرتبط بقصر العلاقة.

Tele: @Arab_Books

الزواج الآخر، المترسّخ في الوقت من أجل الإنجاب لا يلغي المتعة لكنه يخفّف منها».

«كان أمير يستمع باهتمام إلى الأستاذ:

«يُقال إنّ رسولنا الكريم قد عقد زواجاً من هذا الشكل. وأنّ الخليفة الثاني، عمر بن الخطاب، قام بمنعه قبل وفاته. في الواقع، هو نقطة خلاف بين الشيعة الذين يُجيزونه والسنَّة الذين يحذّرونه. لكن العديد من النقاشات تمّت بين رجال الدين السنة حول الموضوع، والشافعي، مثلاً، أجاز هذا الزواج من اللحظة التي تكون فيها نوايا الشريكين واضحة، ومدّته محدودة في الزمن. لهذا لا تزال هذه الممارسة سارية اليوم، الشيء الأساسي هو أن تبقى في حدود الاحترام واحترام المرأة.

«بعد أن اطمأنّ وقرّت نفسه، أخذ أمير يعقد زواج متعة في كلّ أسفاره إلى أفريقيا كي يبقى بعيداً عن الفاحشة.

«بعد سنة أمضاها يُتاجر ويهتم بأمور أسرته، حلّت بالنسبة إلى أمير ساعة التوجّه نحو أفريقيا. كان قد قرّر أن يسافر رفقة كريم، ابنه الصغير. وهو مستغرق في استعدادات السفر، كان أمير يجد صعوبة في النوم عندما يحلّ المساء. كان يترك أفكاره تتسكّع وتلتقي إشاعات مدينة فاس الغارقة في الظلام. كان يلتقي فيها أرواح النيام القلقة، وخيال النساء اللواتي كن يعرفن، ليلاً، كيف يحركن أجسادهن ويتسببن في اضطراب الأحلام من بدايتها ويمنحنها ألواناً رائعة ويجعلن أي رجل أُخِذ في ثنايا الليل يسافر...

Tele: @Arab_Books

«عشية سفره، مرتبكاً أكثر من أي وقت مضى برؤاه، نهض أمير ونزل إلى حديقة بيته. تنزّه لحظة في الظلام واكتشف، بين أغصان نخلة، زهرة بيضاء تتفتح، كأنها تعلن، وحيدة وفخورة، حلول الصيف الوشيك وبعده يمرّ الخريف.

«تأمّل أمير معجزة الطبيعة وشكر الله الذي جعل جمالاً بذلك الشكل يتفتح في حديقته. تأمّل مطولاً تلك الزهرة ذات البياض الناصع وفكّر في المرأة الشابة التي التقى بها في أسفاره الأخيرة والتي يتمنى أن يلتقي بها مرة أخرى في القريب، بعيداً عن هذه الحديقة، في بلد آخر، وقت آخر. وقال في نفسه: كم تشبهها هذه الزهرة. هي بيضاء، بقدر ما تلك المرأة، المتعطرة بالعنبر والصندل، سوداء».

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

الفصل الثاني

عندما غادر كريم فاس متوجّهاً نحو السنغال رفقة والده، كان قد بلغ لتوه ثلاث عشرة سنة، وكان يحمل بفخر، حول عنقه، الميدالية الرابعة التي حصل عليها في منافسات السباحة التي كان يجيدها. خلال السفر، كان والده عازماً على أن يعهد به لبضعة أيام إلى حكيم سنغالي عجوز من غوري، اشتهر بمداواته للأطفال الذين ولدوا بإعاقة.

لم يكن كريم ولداً مثل الآخرين. كان متَّقداً، ذكياً، لكنه كان يُعاني من تأخّر. في تلك الفترة، كان يتمّ إهمال أولئك الأطفال، يسمح لهم بالتجوّل لوحدهم، ثم العودة، وإذا حدث أن تاهوا، كان هناك دائماً مَن يعيدهم إلى البيت.

عند ولادة كريم، أعلنت ثريا، القابلة، أنَّ الطفل له قلب صافٍ، أبيض مثل الحرير، وأن عليهم أن يتركوه يعيش ويتطوّر بحسب إيقاعه. بكت للّا فاطمة والدته، بينما حاول أمير، والده، تقبّل كلام القابلة.

استقدم طبيباً فرنسياً كي يفحص الولد. لكن خلال الفحص، لم يفهم أمير جيداً كلام الاختصاصي. سمع كلمات معقّدة،

Tele: @Arab_Books

«كروموسوم»، «متلازمة داون»، «منغولي». أمسك الطبيب ورقة ووضع رسماً يمثّل غصناً من شجرة مع خطوط من كلّ الجهات، وذكر أن هناك خطاً زائداً، وأن الولد يحمل الخط الزائد، الشيء الذي سيبطئ تطوّره، لكن الأمر ليس خطيراً، لأنّ معدّل عمر أولئك الأطفال كان قصيراً، وبالتالي فهو لن يتأخر في الانتقال وستتخلص منه العائلة... أمام ذهول الأب وعدم تصديقه وصل الأمر بالطبيب إلى حدّ اقتراح أن يعهد بأمر كريم لجمعية في فرنسا ستتكلف به: لن يراه أمير أبداً، فقط عليه أن يدفع مقابل ذلك وستنتهي المسألة... كان الفرنسي يتحدّث عن حسن نية، كان يكرّر ما تعلّمه، ولم يكن يبدو عليه أنه واعٍ بأنه يجرح الأب بقسوة. قبل أن يخرج، مال نحو أمير وأسرَّ له: «هل تعرف، حتى الجنرال ديغول ولدت له طفلة شبيهة بطفلك، إذن... القليل من الناس يعرف ذلك، لكن يتناقل في الجيش أنّ ذلك كان بالنسبة إليه الفشل الوحيد في حياته! يوم وفاة ابنته، قال: «الآن، هي مثل الآخرين»».

شكر أمير الطبيبَ الفرنسي، دفع أجرة الفحص وعاد بالقرب من زوجته التي لم تكن تتوقف عن البكاء. كانت القابلة التي حضرت الفحص تحاول تهدئة الواحدة كما الآخر. متخيلة أنّ أمير، لوحده، قادرٌ على الاستماع إليها، حاولت تهدئته:

«هذا الطفل فرصة، إشارة من الله. هبة منحك الله إياها. يمتاز هؤلاء الأطفال بكونهم لا يعرفون الشر، هم غير قادرين على الخروج عن الطريق السوي. يجب أن نحبّهم لأنهم يملكون مشاعر لا تنضب. لا يجب أن نرميهم أو أن نخبّئهم. أعرف

Tele: @Arab_Books

منهم من وصل إلى سن الشباب وهو لا يزال على قيد الحياة، العديد منهم يتلقون الكثير من الزيارات كما لو كانوا أولياء أو ملائكة. هذا الولد نور، سيضيء حياتك، سترى».

مثل أي مؤمن صادق الإيمان، تقبَّل أمير القدر وقال لنفسه: إن كان الله قد خلق هذا الولد فلأسباب هو يعرفها، مَن أنا حتى أعترض على مشيئة الله؟ هذا الولد له رأسماله، ستكون له حياته وسأرافقه إلى آخر رمق. الله أكبر. أعرف قول رسولنا: «المؤمن مصاب».

كانت للّا فاطمة ترفض الكلام، تكتفي بالتحديق في السقف وترفض إرضاع الصغير. لأول مرة منذ زواجهما، خاطبها أمير بنبرة حادّة. يجب أن تتقبّلي الواقع. الكلمات القاسية التي نطقها هزّتها أولاً ثم جعلتها تبكي أكثر. ثم بعد لحظة صمت، مدَّت ذراعيها كي تتلقى الرضيع ولقمته ثديها.

منذ ذلك الحين، أصبح لكريم مكان مميّز في العائلة. نشأ مدلّلاً ومحبوباً. كلما جاء طبيب جديد إلى فاس، كان أمير يسأله عمّا إن كان ابنه سيتغيّر في يوم ما. لكنه فهم أن ذلك الابن لم يكن محتاجاً سوى لشيء واحد: الحب. أن يحسّ أنه محبوب كان الشيء الذي يجعله طبيعياً وسعيداً.

من أجل سنته الثانية عشر، وعده أبوه بشيء: «في المرة المقبلة التي سأذهب فيها إلى السنغال، سأصطحبك معي!».

بسعادة غامرة، ركض كريم نحو البيانو القديم وعزف لحناً يعبِّر به عن سعادته. لم يكن لأشقائه رأي في الأمر. لم تكن

Tele: @Arab_Books

قرارات الوالد تناقَش. هكذا جرت العادة. لم يكن مسموحاً برفع الصوت عند مخاطبة الأبوين، كما كان يتمّ تقبيل كفيهما وكتفيهما، وإسبال العينين عندما يتحدثان. هكذا كان.

بعد بضعة أشهر، في بداية الشتاء، طلب أمير من زوجته أن تعدّ أمتعته وأمتعة ابنهما كريم. غادرا البيت في منتصف الليل، اجتازا فاس الخالية، الشيء الذي كان يضفي على سفرهما طابعاً ساحراً، غير واقعي.

استمر السفر في القطار وفي العربة وعلى ظهر الجمال أكثر من أسبوعين. كان الطقس لطيفاً والوقوف متكرراً. بعد صلاة العشاء، كان أمير يستغلّ الوقت كي ينقل إلى ابنه كلّ ما تعلمه حول تلك القارة وسكانها. كان يقول له: «أعرف أنني لست محتاجاً إلى إخبارك بأنك طيب وذكي. في هذا البلد، يجب قبل كل شيء أن تُظهر الاحترام! إذا أردتَ أن يقدرك الآخرون ويعاملوك معاملة جيدة، احرص على ألّا تشوب تصرفاتك شائبة. اجعل من الاحترام والكرم خط سلوكك. الناس حساسون جداً وسيعيدون لك أضعافاً مضاعفة ما تقدّمه لهم. لقد تعرّضوا لكثير من الإذلال والاحتقار من طرف المستوطنين الذين جاءوا من فرنسا وبلجيكا، إلى درجة أنهم أصبحوا يحذَرون كلّ بيض البشرة. لكن لا تنسَ أننا نحن أيضاً أفارقة. لسنا سوداً، لكننا نتمي إلى هذا البلد وهذا الشعب. تذكّر أن رسولنا الكريم أعتق بلال بن رباح، العبد الأسود الذي كان يملك صوتاً جميلاً. جعله محمد أول مؤذن في الإسلام. من سوء الحظ، الرقّ لا يزال تقليداً للذين يحسون بالرِّفعة. سترى، سيتمّ استقبالنا بكثير

من الحفاوة. يجب أن نكون إذاً في مستوى ذلك الاستقبال وذلك الكرم!» وكما لو أنه أراد أن يوازن الأمور، أضاف: «لكن لا تتصور أنّ كلّ الناس بطيبتك نفسها؛ يوجد الأشرار في كل مكان، التزم الحذر عندما لا أكون معك».

كان كريم يستمع إلى والده بخشوع. كان يعتقد الكثير في رضا والده. لا مجال لأن يثور أو يعارض أقواله. كان أمير يقول كي يبرر نفسه: «القرآن يأمرنا باحترام الأب والأم . . . وكان يضيف: لا يمكن أن ينجح المرء في حياته من دون ذلك الرضا؛ هكذا، الاحترام علامة على التواضع، الوسيلة المثلى كي نتعلم ونتقدم». كان كريم يستوعب كلام والده تماماً. كان خصيفاً بشكل خاص لكنه يجد صعوبة شديدة في الإجابة أو في تطوير أفكاره. كان يحدث أن يتشنّج، وأن يحمرّ لونه لأن كلماته لا تخرج أو تصل متجِّزئة في مقاطع قصيرة. كان يكرر الصوت نفسه، يتأتئ، كما لو كان يتوسل قوة داخلية كي تساعده على الكلام. كان أمير قد قرَّر منذ البداية أن يعامله مثل طفل لا يعاني أية مشاكل مع اعتبار وجود إعاقته وضرورة أخذها بعين الاعتبار في بعض الحالات. رغم تدخلات أمير، كانت للّا فاطمة تجد صعوبة مع ذلك الطفل وتفضّل الاهتمام بالثلاثة الآخرين. لكن كريماً كان جدّ ودود معها. عندما كان يخبرها بكلماته الخرقاء كم يحبها كانت تجهش بالبكاء. بدل أن تسعد بذلك، كانت تدير رأسها، تبحث عن منديل لتمسح دموعها. ذات يوم، قال لها: «أنا أيضاً، أب. . . أب. . . كي. . .».

Tele: @Arab_Books

كان صاحب القافلة رجلاً صحراوياً قليل الكلام. لوّحت الشمس بشرته، وكان جسده ضامراً، ويتقدّم واثقاً من نفسه. كان يعلّق بندقية عتيقة حول كتفه وخنجراً حول خاصرته. كانت الحقبة التي كان فيها المسافرون عرضة لقطّاع الطرق. لكنه كان يعرف المسالك التي يجب تفاديها وكان يقود زبائنه بكلّ أمان. لم تكن للصحراء أسرار بالنسبة له. بسبب ذلك كان السفر يستمر يوماً أو يومين إضافيين. لم يكن كريم ولا والده مستعجلين وخاصة أنهما لم يكونا يرغبان في مضايقة الدليل الذي كان أيضاً طباخاً ماهراً. كان يعرف أنّ أهل فاس ناعمون، متعوّدون على أطباق خفيفة، قليلة التوابل والدهون. كان يحضّر فطائر محشوّة بقطع الخليع والبيض المسلوق والكمون. كانت الوجبة تنتهي ببعض التمر. أحياناً كان يقدم لهما حليب الناقة، لكنه لاحظ أنهما يجدان صعوبة في بلعه. كان يحضر الشاي الأخضر بالنعناع. يضع فيه الكثير من السكر، وفي كلّ مرة كان أمير وابنه يطلبان الماء المغلي من أجل تخفيف حلاوته. وكان ذلك يُضحكه.

كان الصحراوي من قدماء المحاربين. حارب الجيش الإسباني الذي استقر سنة 1934 في أقاليم الجنوب بما في ذلك سيدي إفني، بلدته. كان المغرب تحت الحماية الفرنسية، وجزء منه يحتله الإسبان بقيادة جنرال اسمه فرانكو.

ذات مساء، حدّثهم عن حلقات من تلك الحرب ضد المستعمر: «كان الإسبان بلا حياء؛ كانوا يتصرّفون مثل الهمج ويعتقدون أنّ السكان المحليين حيوانات. كانوا عساكر بلا قيمة، كانوا يحتقروننا، يحكى أنه تمّ عقابهم وإرسالهم إلى الصحراء

Tele: @Arab_Books

التي لا يعرفون عنها شيئاً. كانوا يحتسون الكحول ويتصرّفون بقلة احترام تجاه عائلاتنا. ذات يوم، أمسك أبٌ اختطفت مجموعة من الجنود ابنتَه سكّيناً كبيراً وغرزه في رقبة ضابط صف. قُتل الرجل في الحال. كانت مراسم دفنه في اليوم الموالي فرصة لنا كي نعبّر عن غضبنا. أطلق علينا الجيش النار. سقط منا ثلاثة قتلى وخمسة جرحى. بدءاً من تلك اللحظة، انتظمت المقاومة بشكل عفوي. كان عددنا قليلاً، وكنا نعمل في الخفاء؛ كنا نقوم بإفساد ما يحاول الجنود بناءه. كانت الكراهية عميقة من كلا الجانبين غير أننا كنّا في جانب الحق والعدالة. لماذا جاء هؤلاء الجنود ذوو الأسمال لاحتلال بلدنا؟ جعلنا حياتهم صعبة. في يوم ما سيغادرون نهائياً وأتمنى ألّا يضعوا أرجلهم نهائياً في بلدنا».

ذات ليلة، بينما كان يستعدّ للنوم، قفز كريم وقال:

«سبع! رأ... رأيت سبعاً...».

كان الصحراوي حاسماً:

«هنا، لا توجد سباع».

ألحّ كريم. أدار له الدليل ظهره. كان الأب قلقاً لمعرفته أنّ كريم لا يقول شيئاً صدفة أو من أجل المزاح. طلب من الدليل أن يذهب ويتحقّق. الشيء الذي فعله مُكرهاً. بعد دقائق، ظهر الدليل مرعوباً مؤكِّداً وجود سبعٍ انصرف. لوَّح ببندقيته العتيقة:

«من الآن فصاعداً سأصدّق كلّ ما يقوله كريم!».

كانت فترة النوم قصيرة، وكان نوماً مضطرباً. استأنفوا السير في وسط الليل، تعبَين وصامتَين. في إحدى اللحظات، سأل أمير

Tele: @Arab_Books

ولده إن كان يرى شيئاً خطراً أو يسمع صوتاً مُقلقاً. أجاب كريم وهو شبه نائم:

«لا، لا، لا شيء... فقط بيانو... أرى، أسمع... فتاة بي... بيانو...»

كان كريم يعزف على البيانو دون أن يكون قد تلقى دروساً. كان يعزف وليس أي شيء؛ كانت موهبة. خلال السفر في الصحراء كانت بعض النوتات تعود إلى ذهنه. كان يشتاق إلى الموسيقى.

تعجَّب الصحراوي:

«بعد السبع، البيانو!».

وضع كريم أصبعه على صدغه وقال:

«هنا في الداخل!

- تسمع موسيقى؟

- أجل، مو... سيقى جيدة...

- أنت محظوظ».

كان كريم يستمع عبر الذاكرة إلى قطعة موسيقية. كان يبدو مستغرقاً تماماً. فجأة، توقف وقال:

«البي... البيانو يجب أن يتبوّل!»

ابتعد عن القافلة وتبول، وهو يضحك.

وصلا ذات صباح باكر إلى ندار، المسماة أيضاً سانت-لويس، أوّل مدينة أسَّسها الأوروبيون في غرب أفريقيا. كانت السماء بيضاء والهواء رطباً. الشيء الذي جعل كريم يقول:

Tele: @Arab_Books

«كأننا في الحمام». شرح له أمير اختلاف الطقس بين البلدين. كان قد أصبح خبيراً في الحضارة الأفريقية. قال له: «نحن نقترب من داكار العاصمة. نحن هنا في مصبّ نهر السنغال. انظر إلى هذه النباتات والعجائب التي نَمَت بفضل الماء. هي أشجار مائية، لا تعطي ثماراً، هي فقط تمنح الظلّ للمسافر». كان صاحب القافلة سعيداً لأنه اصطحبهما إلى ذلك المكان، فأصبح فجأة ثرثاراً. كان مورداً لا ينضب عن أخبار جمال البلد، عن طيبة شعبه وخاصة عن استعدادية نسائه. شبيهاً بمرشد، كان يحكي قصة المدينة مركِّزاً على ازدهار تجارة الذهب والعاج. تدخَّل أمير كي يُذكّر أنها كانت المدينة التي يُرحَّلُ منها العبيد. أضاف الآخر أنه من ذلك المكان. انطلق طيار فرنسي بطائرة صغيرة كي يذهب بعيداً! كريم، الذي شدَّته حكاية الرجل، سأل عن مكانه في الوقت الحاضر، وعن إنجازه. وعده والده بأنه سيتقصّى الأخبار.

في ذلك الوقت، قرروا أن يحطّوا أمتعتهم ويغتسلوا. كانت توجد غير بعيد بحيرة يسبح، فيها، الأطفال بصخب. توضّأ أمير، بحث عن اتجاه القبلة وصلى شكراً لله الذي أتاح له ولابنه الوصول في صحة جيدة إلى هذا المكان السحري بمنازله ذات الطابع الاستعماري العتيق. خلال الليل، أيقظ صاحب القافلة كريم ليقول له: «ميرموز، هو الطيار، كان اسمه ميرموز، أتذكر، ذهب إلى حدود ميريكا، لاميريك...».

أمضيا يومين في ندار، وفي الصباح الباكر، واصلا السير نحو داكار. استمر السفر جزءاً كبيراً من الليل. فضَّل أمير انتظار

Tele: @Arab_Books

شروق الشمس ليدخل إلى داكار، المدينة التي تذكّره بالدار البيضاء بشوارعها المرسومة، وعماراتها الحديثة. كان صاحب القافلة منفعلاً. أعطاه أمير أجرته وقال له: «بعد شهرين، حاول أن تجدنا، لن نكون بعيدين عن موح».

كان موح هو مالك «صديق المسافرين»، فندق صغير كان أمير يفضّل أن يتوقف، فيه، قبل دخوله «الرسمي» إلى مركز داكار. اغتسلا، تناولا طعاماً وارتاحا. ثم انصرف أمير وهو يقول له: «لا تنتظرني من أجل الأكل، في غيابي، سيعتني بك موح جيداً».

خرج كريم ليقوم بجولة. لم يحتَجْ أمير إلى توصيته بتوخّي الحذر. كان يعرف أنّ ابنه يملك حسّ توجّه متطوّر وأنه سيتمكن من العودة بلا مشاكل. خلال نزهته، استولى على كريم إحساسٌ غريب، لكنه ممتع: بدا له أنه بأمان، هنا، كما لو أنّ كلّ السنغاليين كانوا أقرباءه. ومع ذلك كان يجد صعوبة في التأقلم مع تلك الحرارة العالية وتلك الشمس الحارقة. كان يشعر بالحرّ، وكان يتصبَّب عرقاً. عاد إلى النزل وارتدى عباءة فضفاضة وخفيفة. لم تكن ملابسه الأوروبية مناسبة لذلك الطقس.

منذ وقت وجيز، خلال أسفاره إلى السنغال، كان أمير قد تعوَّد على عقد زواج «متعة» مع نابو، شابة أفريقية جميلة، طولها متر وثمانون سنتيمتراً. كان يعود كلّ سنة في الفترة نفسها، يضع

Tele: @Arab_Books

متاعه عند موح، يجدِّد عقد زواجه بنابو، يستقرّ في البيت الذي شيَّده من أجلها ويعيش معها سيداً راضياً وسعيداً. من حسن الحظ أنهما لم ينجبا أطفالاً. بالنسبة إليه كانت نابو ساحرة، على درجة كبيرة من الجمال والشهوانية.

كانت المرأة الشابة قد غادرت الإعدادية الفرنسية بعد أن حصلت على شهادتها. كانت فخورة وتُعرف في عائلتها بتلك التي حصلت على «معرفة الأجانب». كانت غالباً ما تشتغل كاتبة عمومية: تحرِّر رسائل حب لنساء هجرهن جنود، كما تكتب شكاوى إلى الإدارة الاستعمارية.

بين ذراعيها، كان والد كريم يفقد عقله. كانت تقوم بحركات جنسية تغمره وتفرغه من نشاطه. في كلّ مرة كان ينهي صلواته اليومية، كان يجمع كفيه ويرفعهما إلى السماء شكراً لله الذي جعله يتعرف على هذه المرأة التي تمنحه متعة لم يعرفها أبداً من قبل ولن يجدها عند أية امرأة أخرى. لكن لم تكن هناك فقط لحظات الاستمتاع، كان أمير يترك نفسه ينساق إلى قليل من الرومانسية تعلَّمها من الشعراء العرب والفرس. كان يحدُث أن ينشد أبياتاً بلهجة طنّانة. كان ذلك يُضحكها. لم تكن تجيب بشيء، تترك نفسها فقط تنساق للحب وتفعل كلّ شيء من أجل إسعاد رجلها.

كانا سعيدين، ولم يفهم أمير لماذا العلاقات معقَّدة في فاس.

في إحدى السنوات، أراد أمير أن يصطحبها إلى الحج. لكنه اكتشف في ذلك اليوم أنها لم تكن مسلمة، ولم يكن لديانتها

Tele: @Arab_Books

صلة بالتوحيد، وأنها في العمق لم تكن تتبنى أية ديانة. عندما كانت ترغب في الصلاة، كانت تذهب وتقضي الليل تحت الشجرة العتيقة، الشجرة الكبيرة والجميلة في ضاحية المدينة. كانت شجرة عظيمة لم يجرؤ أيّ مقاول أشغال عمومية على التعرّض لها. حتى الفرنسيون الذين قادوا أشغالاً اضطروا إلى تفاديها وهم يخطّون طريقهم. كانت نابو تداعب قشرتها، تحدِّثها وتحسّ أنها بخير لأنها كانت متأكِّدة أن الأسلاف قد تركوا فيها جزءاً من أرواحهم. كانت تلك الشجرة معبودتها، ملجأها، شيئها المقدّس. كانت تطلق عليها «حاجي بابا». كان ظلّها يهدئ من روعها، وجودها وعمرها الطويل يطمئنها. كانت تحبّ البوح لها في وحدتها، في اللحظة التي تغيب فيها الشمس، مفسحة المكان لهواء مبلّل في حوض كبير من مسحوق رمادي، أزرق، فضي. كانت بحسب رأيها اللحظة المناسبة لتضع وجنتها على أحد أغصانها وتحدِّثها بلغة الولوف، لغتها الأم: «في هذه الأوقات غادر الضوء أفكاري، أجد فيها شيئاً مظلماً لا أحبّه. ربما اقترفت أخطاء أو هفوات صغيرة. أمس، مشيت من دون قصد على قطعة خبز. جمعتها، قبَّلتها ثم قدّمتها للدجاج، لكني لم أكن سعيدة بنفسي. ذلك اليوم، انتابني إحساس غريب جعلني أذرف الدموع من دون سبب. كان مصحوباً بموسيقى حادة تذكِّرني بالضجيج غير السار الذي يُحدِثه شاحذ السكاكين، وهو يمرّ في الأزقة. رأيت قافلة كبيرة تهبط من الجبل، يسبقها وشاح أصفر يرفرف في الريح بقوة. رجال من دون أذرع، آخرون من دون سيقان يجتمعون في مدخل المدينة. رأيت نفسي وأنا طفلة

أجري مثل غزالة، وقد ملأ الغبار جلدي وعينيّ. كانت حقبة كلّ شيء فيها ممكن. في أحد الأصباح رأيتُ نساء سحناتهن حزينة، على وشك البكاء. لا أحد يعرف لماذا. راقبت السماء ولم أجد فيها شيئاً مطمئناً. من قبل، كانت زرقتها تزرع في داخلي الرغبة في الرقص. منذ وقت قليل اختفت الزرقة وها أنا على ركبتي أمامك، حاجي بابا. هل أسأت فهم رسائلك، كلماتك التي تحملها الرياح؟ هل فقدت كل ثقة في روحي؟

«أسرَّت لي جدتي بشيء. قالت إنني خُلقت من مادة الأحلام نفسها، وإنّ نظرتي بعيدة بالفعل؛ قالت لي أيضاً إنّ الأحلام ليست سوى رسائل يُرسلها لنا الموت كي يعوّدنا على وجوده. رغم كلّ شيء، ما زال يحدوني الأمل في أن أجد رجلي الأبيض، الرجل الذي يزورني مرة في السنة. هو رجل طيب. امنحيه القوة كي يجعلني سعيدة... هو يعرف، يخمن أني لست امرأة وفية، كيف يمكن أن نكون كذلك وقد وُلدنا برغبة أقوى من العقل، لا يوجد سوء في ذلك، لا نتحدّث عن ذلك، هو يعرف، لكنه لا يقول شيئاً. في الحقيقة، أنا لا أعلم شيئاً.

«خلال فصل الشتاء، يدفئني قريبي وَادْ حينما أحسّ بالبرد. هو يعرف جسدي تمام المعرفة وكذلك رغباتي. يعرف كيف يمنحه الحياة والطاقة. نحن لا نتحدّث عن الأمر. يكفي أن تلتقي نظراتنا، أتقدّم ويتبعني. أعرف ما سيمنحني إياه وما سأفعله له. أعشق تلك الأوقات، بالضبط قبل أن نكون على السرير. أحلم وأحسّ بفرح في قلبي وجسدي. يحدث أحياناً أن أرتعش من المتعة.

Tele: @Arab_Books

«في الربيع، دوغول، جارنا الذي كان يمكن أن يكون والداً لي، يعزم نفسه عندي ويداعبني طيلة الليل دون أن يفعل شيئاً آخر. أتركه يفعل، أعترف أنّ ذلك يعجبني، ذلك يريحني، أكون بين يديه وفمه ويحدث أحياناً أن أغفو تحت مداعباته اللطيفة. هو خبير. في اليوم الموالي أتلقى سلالاً من الخضر والفواكه، قطعاً من القماش والبخور، أحياناً يرسل لي اللحم المقدّد. ما يكفي لشهر. بمجرد أن يحسّ أن مؤني قد انتهت، يأتي ليدقّ على نافذتي.

«يحدث أن أستسلم لإلحاح الطبيب الفرنسي الشاب الذي يقول إنه يعشقني بجنون، الشيء الذي يضحكني. عندما يعتليني، يتعرّق كلّ جسده ويحمرّ لونه. ذلك يخيفني. يقول إن ذلك بفعل الخجل والإحساس بالذنب. طلبت منه ذات يوم أن يفسِّر لي ماذا يعني الإحساس بالذنب. حكى لي أنه متزوج من امرأة بيضاء تنتظره في مدينة ديجون، وأنه عندما يأتي إلى بيتي، يحسّ كما لو أن أحداً يسدِّد لكمات إلى قلبه، يحسّ بالألم، بعد ذلك يقوم ذلك الشخص بتأنيبه، عبثاً يسدّ أذنيه، يسمعه يصرخ فيه، حينئذٍ يحني رأسه ويطلب الغفران من كميل التي بقيت في ديجون. هذا هو الإحساس بالذنب. أنا، لا أعرف تلك اللكمات وذلك الصراخ. أسعده، يمنحني العديد من الأدوية، أوزِّعها بعد ذلك على أقربائي. في ذلك اليوم، منحني عطراً من باريس. منذُ أن بدأتُ أضعه، أحسّ كأنني بائعة هوى، رائحته غريبة، أنا أفضِّل العنبر والمسك الطبيعي، أفضّل الصابون الأسود والغسول الذي يُحضره أمير من فاس.

Tele: @Arab_Books

«آه، سيدي، رَجُلي، الأمير الوحيد الذي يغمرني ويجعلني فعلاً جميلة. عندما يكون أمير هنا، أكون كليّاً له؛ لا أحد يجرؤ على الاقتراب مني. أرفع الراية المغربية على سطح البيت وأشعل بخور الجنة. يعرف الجميع أنّ رجلي قد وصل. تأتي بعض الجارات ليتمنّين لي السعادة والازدهار؛ حتى ولو كنّ يشعرن بالغيرة، لم يكن يؤذينني. أستعدّ خلال يومين كي أستقبله وأستسلم له جسداً وروحاً. أغيِّر من تصرفاتي، أودّ أن أقول إني أشعر أني امرأة أخرى، أنتمي له وأَحبُّ إحساسٍ أن أكون له، كليّاً له. ربما لم تكن هذه الوضعية لتستمر، وأن المعنويات ليست سعيدة. أنا اليوم عند قدميك، متشبّثة بجذورك، يا حاجي بابا، أنا ضعيفة وأستسلم لمشيئتك! خلال جميع زياراته، يصحبني أمير عند كتاب في المسجد يحرِّرون عقد زواج مؤقت. أظن أنه يسمى «زواج المتعة». يحرص أمير على أن يكون في وضعٍ صحيح مع دينه. ليس لي ما أقوله؛ هو يدلّعني وأنا أعتني به جيداً.

«ذات يوم، سألته: «لماذا زواجنا زواج متعة؟ الآخر، زواجك مع امرأتك في المغرب كيف هو؟» نظر إليّ وقال: «هناك التقليد، هنا الحرية!».

«والدتي تعاملني بشكل سيئ، هي تحتاج إلى المال، أعطيها عندما أتوفّر عليه، لكنها تقول لي: «إنه مال قذر». لا أعرف ماذا أفعل كي أهدّئها. لم تتحمَّل أبداً أن أفلت منها وأن يسقط الرجال بين ذراعيّ... أنا لا أضُرّ أحداً!».

في تلك السنة لم تكن نابو مطمئنة. بالإضافة إلى غيرة جاراتها العنيفة، أقنعتها بعض الأرواح أنه بسبب خياناتها لأمير، ستموت في ظروف غير متوقعة. هل ستلقي بنفسها من فوق حافة، هل ستلدغها أفعى سامة تحمل وجهاً بشرياً، أو يسحقها فيلٌ مصاب بالجنون، أو تشنق في قاع بئر، أو تختنق في كيس من الخيش أو البلاستيك، أو تسمِّمها إحدى الجارات؟ أو ستقضي ببساطة ضحية أزمة قلبية خلال نومها وهي تحلم بأميرها العربي؟ اقتنعت بأنها ستموت غرقاً. نظرت حولها، لا يوجد بحر ولا بحيرة، على الأقل من المكان الذي كانت فيه لم تكن تراهما. كانت تقول لنفسها إنّ الأرواح أخطأت، وإنه من الأفضل لها أن تتركها بسلام وتقصد شخصاً آخر.

في إحدى الليالي، عندما استشارت شجرة البوباب، لم تحسّ بشيء. كانت خرساء، عديمة التأثر، غائبة. انتزعت بيديها قطعة من الجذع وأخذت تمضغها. كانت شديدة المرارة بحيث بصقتها وأخذت تركض. رجعت مرة أخرى، ركعت وطلبت المغفرة. مال غصن ناحيتها وداعب كتفيها. لم يُطَمئنها ذلك. ارتعبَت وأحسَّت بالحمى تنتابها. هل كانت ساعتها وشيكة؟ لكنها لا تزال شابة وقوية. كان العرق يتصبّب منها بغزارة، رأت العديد من النجوم الحمراء في السماء، علامة على إصابتها باللعنة. لا شيء كان في مكانه. أحسّت فجأة بأنها وحيدة وأخرجت من جيبها مرآة صغيرة أخذت تنظر إليها. أحسَّت بالخوف. تلك التي قابلتها كانت مليئة بالتجاعيد، عجوزاً وشريرة، كانت عيناها صفراوين، ولعابها يسيل على طرف

Tele: @Arab_Books

شفتيها. أدارت رأسها نحو جارتها، وهي أمّ لثمانية أطفال، من دون زوج، من دون مورد. كانت نابو تعرف أنّ تلك المرأة يأكلها الحسد والغيرة. لا بد أنها نجحت في أن تسحرها، خاصة أنّ ديا، ساحر البلد الكبير، جاء إلى المدينة بعد أن اشتغل مع رجل ثري كان قد فقد قدرته الجنسية. كان ديا يشتهر بكونه قادراً على إذابة الحديد بمجرد النظر إليه. كان يعرف أن يرمِّم النفوس المتعبة ويبعد الشر عن الأجساد التي يهددها المرض. كما كان أيضاً يعرف كيف يدمّر النفوس ويجعل النوم مستحيلاً. يُحكى عن زعيم أصابه الحمق ورمى نفسه من فوق الحافة.

لأول مرة، شعرت نابو بالخوف، هي التي لم تختبر ذلك الإحساس من قبل. اكتشفت الذعر الذي يعبث بكلّ شيء، يصبّ الوحل في الماء الصافي، ينزع الجذور ويلون العالم بالرمادي والأسود. كان الخوف يعصرها، أحسَّت بجسدها ينتفض، يهتزّ، تُساء معاملته. فكرت: «أنا مثل ثوب عصَره القدر؛ وما يسقط منه ليس ماء، بل قطرات دم، دمي، الدم الذي يجب أن أفقده لأني أعاقب رغم أني لم أفعل شيئاً سيئاً، على الأقل شيئاً شديد السوء. النذير ملحّ. ما العمل؟ نحو مَن أتّجه؟ أنا وحيدة وأحارب في غابة سوداء ظلالاً شريرة هدفها أن تجعلني حمقاء. أقسم أن أكرِّس نفسي تماماً وحصرياً لرجلي، رجلي الوحيد والأوحد، سيدي أمير، أكثر الرجال كرماً».

بضعة أيام قبل وصول أمير، خطرت لها فكرة زيارة موحى، الحكيم الكبير في تيبس، مدينة صغيرة شرق داكار. موحى الرجل

Tele: @Arab_Books

الأكثر حمقاً وفي الوقت نفسه الأكثر إنسانية ضمن أفراد الطائفة التيجانية. كان يتراسل مع صوفية فاس الذين يقضون معظم وقتهم في الاشتغال على النصوص المقدّسة. كانت كلماته معروفة بكونها تهدّئ وتمنح الأمل والصبر. كان يقول كلّ ما يفكر فيه؛ لم يكن لديه شيء يخسره، حتى حياته كانت تهمّه بشكلٍ قليل. كان يعيش داخل شجرة بوباب قديمة ماتت منذ زمن بعيد ولم يعُد لها أي قدرة. كان قد حفر حفرة حيث يعيش وحيداً. من وقت إلى آخر، كان كلب متشرِّد يلجأ إليه. كان يقتسم معه وجبته الفقيرة ويتركه ينطلق. لم تكن نابو تصل بيدين فارغتين. منحته زجاجة عسل وزيتوناً كان أمير قد أحضرهما من فاس خلال سفره الأخير.

ذكَّرها موحى بأنّ جمالها يمكن أن يكون مصدر مشاكلها. الغيرة عنكبوت تنسج شبكة حول روحها. يجب إبطال ذلك السحر كي تعيش بسلام. أسرَّت له بأنها تتوق إلى أن يقترح عليها أمير مرافقته إلى فاس. كشَّر موحى. كان يعرف تمام المعرفة تلك المدينة وسكانها:

«هم أناس متحضرون، لكنهم يحسّون أنهم متفوقون علينا، على أية حال هم يحسون بأنّ الله قد اختارهم. هم مسلمون جيدون، رجال شجعان، لكنهم يحبون الاستعباد والسيطرة. أنت سوداء، وأنا خلاسي، ليس لنا مكان في قلوبهم، ولا في مدينتهم. لكن من يدري؟ يمكن أن نعثر على عائلات كريمة، تحترم الإنسانية. إذا ذهبتِ، يجب أن يكون معك بعض الحماية. لست ساحراً، لكني أتوفر على تمائم حيث أخطّ بيدي بعض

Tele: @Arab_Books

الآيات القرآنية. إذا كنت تؤمنين بها ستحميك، وإلّا فعليك أن تواجهي مشاكلك لوحدك. إن أردتِ، يمكن أن أبعث رسالة إلى سي مصطفى، رجل أتراسل معه، وهو إمام المسجد الكبير وجامعة المدينة العتيقة».

ذكّرته نابو بأنّها ليست مسلمة.

«حان الوقت لاعتناق هذا الدين، الذي باستطاعته أن يكون مُنقذاً كبيراً عندما يُفهم جيداً. احتاج الناس في مختلف العصور إلى تهدئة قلقهم. أظنّ أنهم اخترعوا الديانات كي يتحمّلوا الحياة وأسرارها، الموت هو اللغز الذي لم يستطِع أحد حلّه. أنا أؤمن بجميع الرُّسل. أعرف بعض النصوص التي حفظتها عن ظهر قلب، وأستطيع أن أقول لك إنّ الإسلام والكاثوليكية واليهودية هي ديانات متشابهة. وظيفتها تهدئة الإنسان وتحذيره عندما يتخطى الحدود؛ لهذا توجد الجنة والنار».

سألته عمّا يجب أن تفعله كي تصبح مسلمة. نصحها موحى بالتوجّه إلى رجلها. كان هو أنسب مَن يُمكن أن يدخلها في ديانة محمد. طلب منها موحى أن تشكر أمير، لأن عسل وزيتون فاس كانا استثنائيين. انصرفت هادئة، مصمِّمة على أن تصبح مسلمة.

في طريق العودة، توقفت أمام شجرة البوباب، نظرت إليها محدّقة كما لو كانت تطلب إذنها ومباركتها ودعمها. شعرت بالسعادة لتلك المبادرة التي اعتقدت أنها ستحرّرها من مخاوفها، ومن النظرة السيئة التي ترميها بها النساء الغيورات. قالت: «الله أكبر، لم أعُد أخاف». بعد أن دخلت إلى بيتها، انزوت تتأمل

Tele: @Arab_Books

بصمت وتطلب الغفران من الآثام الكثيرة التي ارتكبتها. قرَّرت في داخلها أن لا رجل آخر سيلمسها عدا أمير. اغتسلت ودلَّكت جسدها بقوة كما لو أنها تريد أن تزيل عنه آثار الممارسات الجنسية التي قامت بها مع رجال آخرين. كانت تدلك حتى تحس بالألم. يجب أن تتجدّد، وتصبح امرأة جديرة بأن تكون زوجة أمير، الرجل المناسب، الرجل الطيب والسخي. توجَّهت إلى جسدها كما لو كان شخصاً: من الآن يجب أن تكون عاقلاً، لا أعمال جريئة، ولا فسق، حتماً ستمنح متعة، لكن من دون حمق! بمجرد أن انتهت احتجاجاتها، أحسَّت برغبة أقوى من العادة. ضحكَت وخرجَت إلى عتبة الباب.

أحست نابو بريح لطيفة في شعرها. استدارت ورأت أمير، متّشحاً بالبياض، يمدّ لها ذراعيه. لا خوف، ولا فوضى. سارعَت نحوه، وضعت رأسها على كتفه والتصقت به. أحسَّت بعضوه ينتصب. سبقته وطلبت منه أن يوافيها بعد حمامها مباشرة. أرادت أن تمنحه نفسها من دون تحفظ ولا حظر، كما لو كانت ليلتها الأخيرة. كان جسدها يلمع تحت ضوء القمر. كانت قد تعطّرت بعطر زهرة نادرة تسميها «رغبة». عارية تحت الغطاء، كانت تنتظر رجلها. لا عواصف، ولا سحب في الأفق. هادئة ومحمومة في آنٍ واحد. كان جسدها قد بدأ يرتعش لفكرة المتعة التي ستمنحها وتتلقاها. كانت تصعد من أخمص القدمين إلى منابت الشعر. كانت رائحتها زكية، كانت متسقة مع نفسها، مطمئنة، مستعدة لتقاسم كلّ شيء. أمير الذي كان قد بلغ

Tele: @Arab_Books

الخمسين كان يشعر برغبة ذات قوة استثنائية. هو أيضاً كان يحسّ أنّ تلك الليلة لن تكون كباقي الليالي، ستكون ليلة حتمية، جميلة، ملغزة، حسية، مجنونة، ربما نهائية. أحسّ لحظة بالخوف ثم طردَ بحركة من يده تلك الفكرة ولم يعُد يرى سوى الردف الرائع الذي ينتصب أمامه، مبرزاً فرجاً أحمر ببعض الزغب الكثيف حوله كحارس فضيلة مستحيلة. فاجأه انتصابه لأنه لم يحسّ، طيلة حياته، برغبة بمثل تلك القوة، أمام جسد نابو. لم تكن تتكلم. لكن جسدها كان يتحرك طالباً بعض المداعبات التي كان أمير يسارع بتلبيتها. كانت نابو تقود الرقصة برشاقة عجيبة، مانحة متعة لا محدودة ومتلقية مثلها، إن لم يكن أكثر. استغرقا بعد ذلك ما يكفي من الوقت لممارسة الحب لفترة طويلة، مؤجّلين لحظة النشوة الحاسمة. أحسّت نابو باللذة عدة مرات، لكنها لم تُظهر ذلك كي يحتفظ رجلها بالانتصاب أطول مدّة ممكنة. في محاولة للتماسك، أخذ يفكر في زوجته البيضاء التي كانت تمنحه القليل من اللذة. استدعاء صورتها هدّأه لثوانٍ ثم انطلق بعد ذلك بقوة أكبر في النشوة التي منحته إياها ببساطة تلك المرأة الرائعة. كان يأخذها في وضعيات يخترعها. جسد نابو ذو المرونة الرائعة كان يستسلم بقوة وأناقة لنزوات أمير. كأن كائناً غير مرئي يملي عليهما ما يجب فعله ويقترح عليهما أنهما يعيشان تجربة لن يعيشاها مرة أخرى. كان الصوت يقول: «هذه ليلتكما، الفريدة، التي لا رَجْعَة فيها. ليلة مَنَحَها لكما، بسخاء، الموتُ الذي يحرص على أن تتضاعف متعتكما إلى أن تصل قمة أعلى جبل. في المكان الذي يجتمع فيه القديسون والحمقى كي

Tele: @Arab_Books

يتغنوا بالشعر الأكثر نقاء، الأكثر صفاء، الأكثر قدرة - العصيّ على الوصف، والمستحيل، بشائر السفر الأخير، ربما السفر الأكثر روعة أو الأكثر فظاعة».

ناما متعانقين مثل طفلين. كان تعباً لذيذاً، تعب ليلة لا تُنسى. في الصباح، خرجت نابو لشراء فواكه وفطائر وحضَّرت الفطور. كانت تغمّس أصبعاً في وعاء العسل وتحمله إلى فم رجلها. كانت تُطعمه باهتمام خاص، تقبِّل يده عدة مرات. لم تكُن تأكل، مدَّعية أنها تنتظر حتى تحسّ بالجوع. بعد ذلك خرجت عارية إلى الفناء واغتسلت بدلاء كبيرة من الماء تركتها تنساب على جسدها وهي تغني. كانت جارتها تراقبها دون أن تقول شيئاً، لكن كان يمكن أن نقرأ في عينيها كلّ حسد العالم. كانت نابو تستهزئ بذلك. كانت تحسّ أنها قوية. لا شيء يمكن أن يصيبها. اقتربت من رجُلِها وأسرَّت له، حلوة وغريبة: «هل تعرف، أنا لست مثل معظم النساء السنغاليات، أنا أحسّ أني حرة تماماً، في أفكاري كما في أفعالي. كان والدي مسلماً، ولد في مدينة زيغينشور في كازامانس، في المجموعة العرقية الديولا. انضم إلى الجيش الفرنسي. في تلك الفترة، كما حكى لي عمي العجوز، كانت فرنسا قد وعدت بمنح البلد استقلاله، لكنها لم تفعل ذلك. مات والدي من أجل فرنسا. من ناحية والدتي، أنا من البول، لكن المسكينة انتهت، أتلفتها تجارب الحياة وولاداتها المتكرّرة. أما بالنسبة لي، فأنا هنا، بين يديك، مستعدة لأن أتبعك إلى أقصى العالم!».

اختارت تلك اللحظة، بعد الاغتسال، كي تطلب من أمير أن يُدخلها في الإسلام. كان متعجباً، لكن سعيداً، أمسَكَ كفيها، قبَّلهما ثم أخذ يتلو سورة الفاتحة. بعد ذلك، عدَّد أركان الإسلام وهو يشرحها. جعلها تردّد بعده الشهادتين: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله».

أوضحَ أمير بعد ذلك فيما تتمثّل قيم تلك الديانة:

«يجب ألّا نعتقد بوجود عدة آلهة؛ الله أحد وقادر ورحيم. كي تكوني مسلمة حقَّة، يكفي أن تؤمني بهذا الإله الأوحد وبمحمد، رسوله؛ لا يجب أن تقتلي، ولا أن تسرقي، ولا أن تكذبي، ولا أن تخوني، وألا تؤذي أحداً، وألّا تتبعي الشيطان وأعوانه؛ يجب أن تساعدي المحتاجين، أن تقدّمي الصدقة، أن تقيمي الصلاة، وأن تقومي بالحجّ إلى مكة عندما تتوفر الإمكانات. باختصار، يجب أن تكوني طيبة ولا تتسبَّبي في شرّ. هو جهاد دائم ضد الإغراءات».

أحنت رأسها وتمتمت:

«هذا الإسلام ليس الإسلام الذي أعرفه. أعرف أنّ المرأة ليست مساوية للرجل وأنها مثلاً ترث نصف الحصة بينما الرجل يرث حصة كاملة...

- اسمعي نابو، لا يجب أن تخلطي بين الإسلام والمسلمين. الشيء الأهم، هو أن تكون تصرفاتك صحيحة وإنسانية. الرجل الذي يسيء معاملة امرأة لا يحتاج إلى مبرّر الدين كي يفعل ذلك. لكني أعرف أنّ البعض يبرّرون تصرفاتهم بالرجوع إلى الإسلام. هم مخطئون. كلّ ما أستطيع أن أقوله لك

Tele: @Arab_Books

هو أني أعدك بأنْ أحبّك وأمنحك أفضل ما لدي. أما بالنسبة إلى الإرث، اللامساواة حقيقية، هي توجد منذ الفترة التي لم تكن فيها النساء يشتغلن».

ردَّت نابو:

«وخديجة؟ ألم يكن محمد في خدمتها قبل أن يتزوجها؟».

ابتسم أمير:

«أنت جدّ مطّلعة، كما يبدو».

متأثرة، وضعت نابو سبابتها على فم رجلها وانساقا معاً في أحلام رومانسية.

سعيداً، غمرته المرأة الشابة والذكية والجميلة جداً، فكر أنه لم يختبر ذلك الإحساس مع للّا فاطمة. كان زواجهما قد تمّ حسب العادات. ورغم أنهما لم يختارا بعضهما، كان عليهما أن يتحابا، يعني أن يصنعا ما كانت العائلة تنتظره منهما: أطفالاً. لم يخرج أمير عن القاعدة، حبلت زوجته في الفصل الأول لزواجهما. هل كان هناك حبّ بينهما؟ لم يكن السؤال مطروحاً. كانت المظاهر محفوظة. كانت تجارة أمير تسير بشكل جيد وكانت للّا فاطمة تسود في البيت وتسهر على تربية الأطفال. لم يكونا يفوتان أية حفلة، ولا أية دعوة عائلية. كانت التقاليد محترمة تماماً. لا شيء كان يمكن أن يقف في وجه ذلك التنظيم الذي ترسخ عبر القرون. في مدينة فاس تلك، المنغلقة على نفسها، بوتقة الحضارة العربية-الأندلسية، لم يكن الناس يمزحون عندما يتعلق الأمر بحسّ اللياقة. كان أمير زوج للّا فاطمة.

Tele: @Arab_Books

وكانت للّا فاطمة زوجته. لم يكن ذلك الرباط يستدعي أي نقاش. الدليل، هو أنهما لم يتشاجرا أبداً. هل كان حباً، ذلك الانسجام الهادئ، ذلك التكرار حتى الموت؟ لا أحد كان ليسمح لنفسه بزعزعة نظام الأجداد ذلك. أما بالنسبة إلى الحب فقد كانوا يرونه في المسلسلات المصرية المليئة بالكليشيهات.

لأول مرة، فكر أمير أنه ربما توجد طريقة أخرى للعيش، وجد أنّ العواطف التي يحسّ بها تجاه للّا فاطمة كانت جدّ مختلفة عن تلك التي يشعر بها بين ذراعي نابو. بدا له فجأة أن حياته قد انقلبت رأساً على عقب. قرّر ألّا يوقف اندفاعه وشغفه. أمير مغرم! كان أصدقاؤه في الديوان سيسخرون منه لو حدّثهم عن ذلك الإحساس، الذي يحسّ به لأول مرة. لم يسبق له أن قال «أحبك» لأية امرأة، ولا قدم زهوراً أو عبّر عن أحاسيسه. ذلك ما كانت تقتضيه تربيته الصارمة. لا يُظهر رجل ضعفه أمام امرأة. أن يكون المرء مغرماً كان يُعتبر ضعفاً. نوعاً من الشذوذ.

كان الوقت يمرّ، وكان أمير يحسّ بقلبه خفيفاً بالقرب من نابو. لكنه بدأ يهمل أشغاله. وكان التجار هم الذين أتوا ليذكّروه بأنّ السلع لم تكن في متناول اليد وأنه يتوجّب عليه القيام بطلبها كي يأتوا بها من الكاميرون، وأحياناً من الهند. شكرهم وقال لهم: «تصرفوا كما العادة: الكمون والكزبرة والزنجبيل والكركم والفلفل ورأس الحانوت مع ذبابة الهند، والفلفل الأسود والقرفة والقرنفل والهال، وخاصة لا للكاري، أهل فاس يكرهون ذلك الصنف من التوابل، وإذا وجدتم الزعفران، ضعوه جانباً،

Tele: @Arab_Books

سأحمله معي في علبة محكمة الإغلاق. . . الكميات، تعرفونها، أنا أثق بكم!».

أشارت عليه نابو بلطف أنه من الأحوط أن يهتم بطلباته بنفسه. لم تكن تثق في أولئك الناس، وكانت تقول إنّ كثيراً من الطيبة يُفسَّر ضعفاً وإنه كان عرضة لأن يُخدَع. سرى نقاش بينهما. قالت له إنه مخطئ لعدم حذره من أولئك التجار وإنه من السذاجة أن يعتقد أنّ كلّ الأفارقة كانوا أناساً طيبين وأمناء: «إنهم مثل الجميع؛ يوجد ضمنهم أناس مستقيمون، لكن يوجد ضمنهم أيضاً أشرار؛ من مصلحتك أن تتحقق من البضاعة بعد أن يسلموها إليك».

تلقى أمير ذلك الدرس كدليل على الحب. قرَّب نابو إليه وقبلها وهو يقول: «شكراً، شكراً، نابو، على هذا الاهتمام!».

بعد عدة أيام أمضاها في الأنس، أحضر أمير ابنه وقدّمه لنابو. بدا الاثنان مُحرَجين. كان البيت الذي بناه أمير كبيراً كفاية كي يبقى كريم معهما.

لم يصدر عن كريم سوى ردّ فعل واحد. فتح ذراعيه وقال: «مرحباً بك. . . ف. . . في العائلة!».

بعد عدة أيام، عندما عرض عليها زوجها المؤقت أن يصطحبها إلى جزيرة غوري حيث كان سيلتقي أحد الموردين ويزور الحكيم الكبير، رفضَت أن تتبعه. كانت المرة الأولى التي تجرؤ فيها على عدم إطاعة زوجها. نظر إليها بحنان وفهم أنها

Tele: @Arab_Books

تحسّ بضيق. وضع يده على كتفها العاري وطلب منها أن تسرّ له بما عندها. بعد لحظة صمت، أجهشت بالبكاء: «إذا تبعتك، سيأخذني الموت؛ أنا متأكدة من ذلك إلى درجة أني لا أنام. لا يتوقف أسلافي عن حثّي باستمرار على عدم الذهاب إلى غوري، لأنّ روح جدي الأكبر سجينة في تلك الجزيرة، في بئر حيث رماه تجار العبيد. لا أستطيع تحريره سوى إن ظللتُ بالقرب من شجرتي. يجب أن أتكلم، أتكلم حتى أحسّ بأن روحه قد تحرَّرت وطارت نحو السماء. ما دمت لم أستطع تحقيق ذلك العدل، سيظلّ جدي الأكبر يعاني دائماً وأبداً».

لم يلحّ أمير وطلب منها أن تنتظره. قال في نفسه إنها لم تستوعب بعد روح الدين الإسلامي، لكنه احترم خوفها ورغبتها في تحرير روح جدها. كريم، الذي حضر الواقعة، كان معجباً بقوة إقناع نابو. اكتشف في الوقت نفسه عالماً من المعتقدات بعيداً عن عالمه. انطلق أمير نحو غوري رفقة ابنه. عند وصولهما إلى الجزيرة حيث كان والده سيقدّمه إلى الحاج مبروك، وهو حكيم عجوز معالج، أعجب كريم بوفرة النباتات. كان يجهل أغلب أسماء النباتات التي تحيط به. دلّه أمير على صفّ من نبات الجهنمية التي كانت بجمال تلك نفسها نجدها في مخرج فاس. أمّا بالنسبة إلى أشجار النخيل، فقد كانت أقلّ طولاً من نخيل مراكش لكنها أكثر كثافة. أشجار البوباب التي اكتشفها في داكار نفسها، كان لها حضور خاص على الجزيرة. جذوعها العريضة والضخمة، أغصانها تكون شعراً ناعماً فوق رأس ضخم تعطي لبعض الأشجار مظهر تماثيل نحتتها الطبيعة. قال له أمير:

Tele: @Arab_Books

«هي أشجار عمرها مئات السنين، يعتبرها الأفارقة أشجاراً سحرية، أشياء قداسة تحفظ ذاكرة القدماء. بالنسبة إلى البعض، هي شجرة الحياة، بالنسبة إلى آخرين، هي موضوع جميع الأصول، حيث يكمن مفتاح جميع الأسرار». كان مندهشاً. سأل والده لماذا لا يعتبر المغاربة أنفسهم أفارقة ولا يعتقدون بذلك السحر؟

أخبره أمير أنّ الجزيرة، التي مرت من أيدي الهولنديين إلى أيدي الفرنسيين وأيضاً الإنجليز، كانت ممرّ العبيد نحو أميركا. كان البعض يأتي من سانت-لويس من السنغال، وآخرون من غانا. ما زالت بعض آثار تلك المأساة التي يستطيع الزائر تخمينها باقية. لم يفهم كريم كيف يمكن إلحاق الضرر بأبرياء. حرص أمير على طمأنته وقال له إنه كرجل مسلم، فهو يُدين الرقّ.

«هل تعرف، كان أحد الحكماء يقول إنه يجب أن نشكر الله لأنه خلق الحصان، وإلّا لكان البيض قد اتخذوا السود مطايا. أحبّ الإنسان في جميع الأوقات إذلال الآخرين، خاصة الفقراء والملونين والناس الذين لا حول لهم ولا قوة. هكذا هو الحال. الرق شيء فظيع وهو لا يزال مستمراً في بعض البلدان، ليس بطريقة رسمية، لكن بشكل مُقنَّع. لا يشعر المغاربة بأنهم أفارقة لأنّ بشرتهم بيضاء.

- ليكون المرء أفر... أفريقياً، يجب... يجب بشرة سوداء؟

- لا، نحن جميعنا أفارقة، أنا وأنت وجميع أفراد العائلة.

Tele: @Arab_Books

- مث. . . مثل نا. . . نابو؟
- أجل، تقريباً، ولدي!».

استقبلهما الحاج مبروك بالدعاء وهو يشعل بخور الجنة في شمعدان فضي صغير. أخذ كريم بين ذراعيه، ضمّه إليه، ثم بعد صلوات صامتة أعلن:

«هذا الولد هبة من الله، نور. أنت محظوظ به. هو يملك حسّ الحياة ونعمة الحب. نادراً ما وجدتُ هكذا نقاء في جسد وروح. هذا الولد ليس معاقاً. أعرف، يصعب عليه أن يعبِّر عن نفسه، وسيجد دوماً صعوبة في التعبير بالكلام، لكنه يملك أكثر من الكلمات، له قلب كبير، طيب، وهو يرى بشكل أفضل من أيّ أحد. أجل، كريم يرى بعينيه لكن أيضاً بقلبه. لن يؤذي أحداً أبداً. لكن عليك أن تعتني به، أن تحميه، وألّا تدع أشخاصاً أشراراً يقتربون منه. على أية حال هو سيتعرّف عليهم قبلك. ثِقْ به. لن يتقدم في دراسته كثيراً، لكن أفضل من ذلك، سيكون رجل الطيبة الأجمل والأسمى. علّمه، تلقاه عند الولادة. منحه الله إياه لأنه ليس مسلحاً كي يتلقاه مثل الأطفال الآخرين. عندنا، هؤلاء الأطفال مطلوبون، لأننا نعتبرهم رُسُل الله. الآخرون هم مَن يوجد في المحك: أنتم الآباء وكلّ مَن يعيش بالقرب منهم. اعهد لي بكريم اليوم. ستكون مرتاحاً خلال لقاءاتك، وسأحبّ كثيراً أن أتحدث معه عن الحياة وكلّ أسرار الكون. عُدْ مساء. سأنتظرك».

في المساء، وجد أمير ابنه يرتدي عباءة منحَتْها إياه شادي

Tele: @Arab_Books

إحدى فتيات الحكيم. كان يبدو سعيداً وهادئاً. كان قد تناول الكثير من الطعام ولم يستطِع منع نفسه من التجشؤ، أتبعه بـ«الحمد لله» معتذراً. خلال ذلك اليوم، تعلّم الكثير، لكنه قدَّم أيضاً الكثير للرجل العجوز. كانت ابتسامته رائعة. شكر أمير الله مرّة أخرى لأنه منحه ذلك الولد، الذي كان يُطلق عليه أحياناً «ملاكي».

قبل أن يغادر، قبّل كريم الحكيم، وبكلماته المتردِّدة أعلن حبّه لشادي. محرَجَة، أحنَت عينيها وهي تضحك. ثم أخذته من يده، وفي مكان مخفي من الغرفة، ضمَّته إليها بحنان. متأثّراً بثديي الشابة الصلبين على صدره، فقَدَ السيطرة وقذف تحت عباءته. لم يعرف، بسبب خجله، كيف يتصرّف ولا كيف يخفي بقعة المني الظاهرة. تظاهر والده بأنه لم يرَ شيئاً، أحاط كتفيه بذراعه وابتعَدا بهدوء.

بعد أن أمضيا يومين في غوري، دخلا إلى داكار. في القارب الذي استقلّاه للعودة، كانت امرأة عجوز بلا أسنان تمضغ عودَ عرق سوس. من حين إلى آخر كانت تبصق على الأرض دون أن تهتم برأي الناس. كريم الذي كان يراقبها منذ فترة بإلحاح اقترب منها. قالت لوالده: «خبئ هذا الملاك، ضوؤه يعميني!».

وجدا نابو في انتظارهما. كانت شاحبة. كانت تعاني من آلام في الظهر لأنها أمضت الكثير من الوقت عند قدم شجرة البوباب. لم تغادرها قبل أن تتأكد من أنّ روح جدها الأكبر قد

Tele: @Arab_Books

تحرّرت. لكن بالمقابل كان عليها أن تغادر مدينتها، أن تذهب بعيداً، ربما أن تتبع رجلها. كان أسلافها قد أمروها بأن تختفي لأنّ آثار النخاسين كانت لا تزال ملموسة ومؤذية. لم تغادر أرواحهم التي أفسدها الشر أفريقيا بشكل نهائي. لكن نابو كانت قد تصالحت أخيراً مع نفسها، معتقدة أن الأسلاف قد سامحوا تيهها الخائن. كانت قد أفضت إلى شجرتها بندمها على العلاقات التي أقامتها مع رجال آخرين خلال غياب أمير. لأنها كانت حينئذٍ مقتنعة بأنه لن يعود أبداً. كانت قد سمعت عن رجال فاس الذين يستغلون النساء السود خلال فترات إقامتهم من أجل العمل ثم يذهبون بلا عودة ومن دون أن يبعثوا فلساً للنساء اللواتي منحنهم المتعة. كان البعض منهن قد طوّرن عنصرية ضد البيض بصفة عامة. كن يقلن: «الأبيض هو لون الجبن».

لم ترغب في أن تفرض نفسها على أمير، لكنها كانت تتوق إلى أن يطلب منها أن تتبعه إلى فاس. كانت نظرتها جدّ معبِّرة وكان أمير قد تعلم أن يقرأ فيها ما لم تكن تقوله. لأول مرة، لاحظت نابو كم كانت مشاعرها تجاهه قوية. كانت تحسّ بدقات قلبها تتسارع بمجرد أن تلمحه. لكن لا أحد منهما كان يضع كلمات على ذلك الحب. هو أيضاً لأول مرة بدأ يحسّ بشعور يطغى عليه أبعد من زواج المتعة. هذه المرة كانت الأمور قد أخذت منحى لم يتوقّعه ولم يره يصل. لم يعترف رجل من جيله ومكانته الاجتماعية، البرجوازية الفاسية، بأنه مغرم. كان قد قرأ قصص حبّ وكان يظن أنّ ذلك يحصل في الكتب فقط، وليس

Tele: @Arab_Books

في الحياة - على الأقل ليس في حياته هو. أحسّ بنفسه شبيهاً ببطل مغرم بجميلته وفاجأ نفسه يؤلف قصائد من أجل نابو. كان يرتعش وهو يكتب، يحسّ أنّ جسده أكثر خفّة، كمن أخذته موسيقى جاءت من بعيد، الشيء الذي كان يسحره ويجعله أكثر جنوناً بحب نابو.

لم يكن لنابو تقريباً أيّ اتصال مع عائلتها. كان والدها قد مات من أجل فرنسا في الحرب الأخيرة. والدتها، المنهكة، كان عليها تربية أبنائها العديدين، الذين وُلدوا من آباء مختلفين. كانت تملك صوتاً جميلاً وكانت تغني في الأعراس، لكن ذلك لم يكُن يكفي لإطعام الجميع. وحده عبدو، أخ غير شقيق من جهة والدها، كان لا يزال يعيش في داكار. كان أباً لستة أطفال وليست له وسائل ليساعد أخته التي لم يكن يراها سوى نادراً. كان ميكانيكياً يصلح الشاحنات والجرارات.

أصبحت حياة نابو حالياً تعتمد على أمير. كان لها الكثير من الكبرياء كي تطلب من رجلها أن يساعدها. كانت تعرف أنه طيب وكريم وتثق بذكائه وحدسه. كانت قد سمعت ما تتحدث به بعض النسوة في الحمام بخصوص ما تعانيه النساء اللواتي تبعنَ تجاراً من أهل فاس. كنّ يتحدثن عن الاستعباد الجنسي والإذلال والاحتقار. لم تكن تستطيع تخيّل أمير يعاملها بتلك الطريقة. كان أمير رجلاً ورعاً وعلى ما يبدو لم تكن له أفكار مسبقة. كانت تثق به، حتى ولو لم تسأله أبداً عن حياته بفاس. كانت تعرف أنه متزوج ولديه أربعة أبناء، كريم أصغرهم. كان

Tele: @Arab_Books

الأسلاف قد حذّروها من الرجال بصفة عامة، والبيض بالخصوص، من طمعهم ونفاقهم وغطرستهم. لكنها لم تحسّ أبداً أنهم كانوا يحدّثونها عن أمير. لم تكن تجد لديه تلك العيوب. لم يكن كاملاً، لكن نابو كانت تثق بحدسها. كانت مستعدة لتتبعه مغمضة العينين إلى آخر الدنيا. كانت تحبه.

كانت لديها أحياناً لحظات شك. لم تكن تستطيع تصوّر ما ستكون عليه حياتها إذا عرض عليها أمير أن تأتي لتعيش معه بفاس. كانت مقسَّمة بين ما يُقال في الحمام وهيأة أمير التي لا تشوبها شائبة. فضَّلت ألّا تتخيّل شيئاً وتركت نفسها تنساق مع اللحظة الحاضرة.

من جهته، تصور أمير، لفترة، إمكانية البقاء في داكار. كان سيجد شغلاً بسرعة لأنه كان يملك حسّ التجارة. لكنه فكَّر في الحال أنه من المستحيل أن يترك عائلته، كان ضميره سيمنعه من النوم. لم يكن يرى سوى حلٍّ واحدٍ: أن يصطحب معه نابو، حتى وإن كان ذلك سيسبّب له العديد من المشاكل والاضطرابات في حياته بفاس. كانت الزوجات البيض يعرفن أنّ أزواجهن يعقدون زيجات متعة مدّة إقامتهم بأفريقيا. كنّ يغمضن العين، ولا يطرحن أسئلة، مفضِّلات ذلك على الدعارة واحتمال الإصابة بأمراض تناسلية، لكن ذلك التسامح كانت له حدود. كان أمير سيقوّض ذلك النظام ويتجاوز الحدود.

عندما حلّ الليل، طلب أمير من كريم أن يتوضّأ ويصلي معه. بعد لحظة تأمّل، أسرَّ له:

Tele: @Arab_Books

«أنوي اصطحاب نابو معي. لا أستطيع أن أتركها هنا لوحدها. تحتاج إلى الخروج من هذا الحي وتعيش. سينفعها تغيير الجو، ولأكون صريحاً معك أيضاً، حتى وإن لم تكن مواضيع يتطرّق لها الأب مع ابنه، أنا جدّ متعلق بها».

لم يكن كريم ينظر مباشرة في عيني والده. استمع إليه ولم يقُل شيئاً. لكنه كان فخوراً لكون والده باحَ له بتلك الطريقة. دمدَمَ بالكاد: «أجل، أيها الوالد».

بعد صمتٍ طويل، تجرَّأ على طرح السؤال الذي كان يشغله وهو يتلعثم:

«ست... ت... تتزوجها؟ زو... زو... زواج؟

- ربما، ولدي... هي زوجتي نوعاً ما. أنا مسلم ولن أسمح لنفسي أبداً بأن أضرّ أحداً وأرغمه على العيش خارج نطاق التعاليم. كانت نابو كريمة معي ومن الطبيعي أن أكون كذلك معها بدوري. هي محتاجة إلى الحماية والاعتناء وإلى المعاملة الحسنة...

- وماما...؟

- نحن مسلمون وبصفتي رجلاً عادلاً ومستقيماً، أستطيع أن أتزوّج أربعة نساء. ستتفهَّم والدتك ذلك؛ تزوَّج أبوها امرأتين؛ كانتا تتشاجران طيلة الوقت، لكنه احتفظ بهما إلى حين وفاته.

- أجل، لكنهما من البيض...

- لكن ذلك لم يمنعهما من أن تتضاربا طيلة الوقت. والدتك امرأة عاقلة وطيبة، ستكون متفهِّمة. على أي حال، أنا أعتمد عليك كي تجعل العائلة تتقبَّل نابو.

- أجل، أيها الوالد! سأحاول».

أمضى كريم ليلة مضطربة، كان يفكر في المهمة التي عهد له بها والده. هل سينجح في تجنيب العائلة الفوضى والمشاجرات، هو الذي يكرَه النزاعات؟ هل سيكون قادراً على إقناع والدته بقبول الوضع الجديد؟ كانت لديه شكوك، طرح على نفسه العديد من الأسئلة. كان يتمنى لو يملك موهبة خطيب بارع ويحضِّر خطاباً لتهدئة التوترات المتوقعة. لكنه أحسّ أنّ قلقه يضاعف من إعاقته. كان يحبّ نابو كثيراً لكنه كان يعرف أنّ الأمر لن يمر بسهولة. تذكَّر خال والده، كان العمّ قد أحضر من غانا جاريتين سوداوين. كانت قد أسيئت معاملتهما، حتى الحيوانات لا تعرف الجحيم الذي عاشتاه في بيته الكبير حيث لم يكن عليهما فقط تحمّل إهانات النساء البيض، لكن أيضاً حيث تمّ تجويعهما وعدم الاعتناء بهما وسبّهما وضربهما. عملتا خادمتين من دون أجرة، مدبّرتي منزل، خاضعتين للسخرة، تخلى عنهما التاجر الفاسي الذي لم يكن يقول شيئاً، كانتا تعرفان أنهما ذات يوم ستثوران وستنتقمان من كلّ تلك العنصرية والاستغلال. تآمرتا ضدّ الزوجة البيضاء، التي كانتا تكرهانها، وقامتا بسحرها، الشيء الذي لم يجد نفعاً. وهو طفل، كان قد سمع الكثير من الأحاديث. كان شاهداً على العديد من الشجارات. كان العم ضعيفاً ولم يكن يحمي «دادا». ذات يوم، قامت الزوجة البيضاء بغرز سكين في كتف إحداهما. لم تُعالَج المسكينة جيداً، عانت كثيراً واستسلمت للموت. بدءاً من ذلك الحادث، أصبح هناك توتر

Tele: @Arab_Books

أقل، لكن العم كان محرجاً. اضطر إلى بيع الـ«دادا» الأخرى، ذات خميس، في ساحة العبيد قرب حي أشابين. بذلك المال ذهب هو وزوجته البيضاء للحج في مكة، آملاً الخلاص من خطاياه والحصول على غفران الشرّ الذي فعَله أو ترك زوجته الفاسية تفعله.

رغم توبتهما عند قبر النبي في المدينة، رغم دعواتهما واستغفارهما، لم يجدا السلم في أيّ مكان. كان شبح المرأة السوداء يحوم ليلاً حول البيت العتيق. لا شيء كان يسير على حاله. مقتنعة أنها تتعرض للعنة جاءت من أفريقيا البعيدة، فقدت الزوجة البيضاء القدرة على النوم ثم فقدَت العقل. عبثاً صلى الرجل، أحضَرَ حافظي القرآن من أجل أمسيات ترتيلية، لا شيء يُجدي. كلّ الشر الذي مارساه على التعيستين قد انقلب، كما في حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة، ضد العائلة. غادر الأطفال البيت وأفلس الأب وذهبت الأم لتعيش عند خالها، الذي كان قد جمع ثروة من خلال الطين الذي يصنع منه الغسول. هكذا تفتت نواة الأسرة، وتشتت الجميع. كان الحكماء يستعملون التعبير «التشتت»، كانوا يقولون: «أسوء الأشياء، أن يتهشّم كلّ شيء ويرمى في كل مكان؛ الأسرة مقدّسة، يجب الحرص على حمايتها، لا شيء يجب أن يكسرها، لا شيء يجب أن يُفعَل يكون من شأنه إبعاد أحد عن الآخر، الأسرة خليّة تمنح وتُديم الحياة، إنْ أصابها مكروه التشتّت، ستكون النهاية!».

كان كريم خائفاً من سيناريو مشابه ولو أنّ نابو بدَت له بطيبة حقيقية. لم يكن يستطيع تصوّر ردّ فعل والدته. وهو الحاصل

Tele: @Arab_Books

على رضاها، لم يكن يضايقها أبداً، كان يُطيعها ولا يطرح على نفسه العديد من الأسئلة. ولم تكن التقاليد تسمح بالصراعات المفتوحة، ولا المواجهات. كان كلّ واحد في مكانه ولا يسعى إلى تشريح نفسية هذا وذاك. أقسم كريم، في قرارة نفسه، بأن يدافع عن نابو ووالدته، وأن يفعَل ما بوسعه كي تظلّ العائلة موحَّدة وقوية. كان يعرف أنه في حضن عائلته يمكن أن يحقِّق تقدماً وأن يناضل بشكل فعّال ضدّ إعاقته. كان يحرَص على ذلك الأمن.

بعد أن قرر أخيراً، عَرَضَ أمير على نابو ذات صباح أن تأتي للعيش معه في فاس. تظاهرَت بالتردُّد لحظة ثم أجابته متأثرة بأنها تقبل أن تتبعه وهرعَت إلى ذراعيه.

قبل أن تغادر، كانت ترغب في زيارة أخيها. لأنها لم تكن ترغب في الوصول بيدين خاويتين، طلبت نابو بشكل استثنائي قليلاً من المال من أمير. وبدل أن تشتري طعاماً أو لعباً للأطفال، فضَّلت وضع الأوراق النقدية في منديل ودسَّته في جيب أخيها. أظهرَ ذلك الأخير تفهّماً: «تذهبين مع الفاسي، انتبهي لنفسك. أولئك الناس لا يحبّوننا، من الأفضل أن تكوني على علم بذلك وتأخذي احتياطاتك. عندما يكونون هنا، يُظهرون جانبهم الجيد. بمجرد أن يعودوا إلى بلدهم، يتغيَّر كلّ شيء. قُدِّمت العديد من الشهادات من طرف مسافرين... هناك، ستكونين جارية مزدوجة: ليلاً، سيجعل منك زوجة

Tele: @Arab_Books

المتعة، نهاراً، ستكونين الجارية، الخادمة، تلك التي تهتمّ بالمهام الشاقة. الكلّ يعرف هذا الأمر. لذا يجب أن تنتبهي. سأكون دائماً هنا، إذا قرَّرتِ يوماً العودة إلى بيتك. نصيحة أخرى، أختي الصغيرة، أعرف أنك تتدبرين أمرك جيداً، وأنك كنت مستقلّة في وقت مبكر، لكن إذا استطعت أن تأخذي منه النقود وتضعيها جانباً، لا تتردّدي. لأنه عاجلاً أو آجلاً، سترغب الزوجة البيضاء في الانتقام وستستغلّ نقطة ضعف عند زوجها كي تطردَك. لن تقدِّم لك هدايا. هذا طبيعي، بالنسبة لها، أنتِ خطر، الخطر الأساسي. أنت شابة وجميلة وذكية. إذاً انتبهي! لن أقول لك، بما يكفي، كم يجب عليك أن تحذري من البيض!».

دافعت نابو عن أمير، وهي تذكر مزاياه.

«سيتزوّجني ويمنحني أطفالاً وسيمين. لا أريد أن أسافر دون أن أحصل على مباركتك، بما أنك أكبرنا، وأنا أعتبرك مثل والدنا».

أخذها بين ذراعيه، قبَّل رأسها وقال لها:

«تعرفين، لم أنَلْ تعليماً كثيراً، لكني أعرف شيئاً: علمتني الحياة شيئاً بسيطاً، نحن نشتكي من عنصرية البيض ضدّنا... هذا حقيقي، هم عنصريون، استعماريون، متغطرسون ومذلّون. لكن، اعلمي شيئاً، نحن لا نحبهم أيضاً. نحن عنصريون أيضاً، شيء طبيعي، لن نُقبّل أرجلهم... غير أننا نحن، لا نملك الوسائل للذهاب لاستعمارهم. هيا. لا تنسينا».

كانت المرة الوحيدة التي تساءلت فيها نابو: «هل أمير

Tele: @Arab_Books

صادق، هل هو، فعلاً، مغرم؟» لكنها قررت أن تثق بغريزتها، بقوتها الداخلية، وأيضاً برجلها الذي لم تكن تتصورّه نصيراً للاستعباد. كانت مغرمة، وبالنسبة إليها كان ذلك هو الشيء الأساسي. لم يكن شقيقها مستعداً لسماع ذلك النوع من الحجّة.

لم تكن نابو تتوفّر على بطاقة وطنية. مقابل مبلغ من المال جعل أمير أحد الكتّاب يحرِّر وثيقة تقوم مقام الجواز: كانت قد ولدت سنة 1936، سنة الأمطار الغزيرة...

مع اقتراب موعد السفر، بدأ أمير يحسّ لدى نابو ببعض القلق. أرادَ أن يطمئنها، لكن كريم كان قد سبقه. تحدَّث إليها بكلمات نطقَها بصعوبة، لكنها فهمت الرسالة: «لا تقلقي، لن يصيبك شيء، سأكون دائماً حاضراً لحمايتك. والدي رجلٌ طيب، هو يحسّ بمشاعر قوية تجاهك. في البداية ستكون الأمور معقَّدة، كوني صبورة. سأكون هناك».

وهو يتحدّث، كان كريم يشير إلى عضلاته، الشيء الذي أضحكَ نابو. أحسَّت أنها يمكن أن تعتمد على حمايته، أو على الأقل على محبته.

لم تقُل شيئاً. سقطت دمعة على خدّها. ضمَّت بين ذراعيها كريم الذي كان أيضاً متأثراً. في الغالب، كانت حساسيته المفرطة تجعله يضحك ويبكي في آنٍ واحد. نفخَ عضلاته وقال لها: «اصعدي هنا، اصعدي لشرب قهوة!» ضحكاتها كانت تملأ أمير بهجة.

في المساء، رفقة كريم، قامت نابو بجولة في الحي. توقفت

Tele: @Arab_Books

أمام بعض الأبواب وبعض الدكاكين. بحركة من يدها، بدت أنها تودّعها، وتابعت السير وهي تشرح لكريم الأشياء التي ستفتقدها:

«أترى، أحب هذه الكنيسة، هي بسيطة ومتواضعة. أصلّي، ولو لم أكن مسيحية. أحبّ صمتها وطراوتها. هنا، الحلاق هو الذي منحني طاولة ومقعداً عندما كنت كاتبة عمومية. خسارة أنه غائب اليوم، قيل لي إنه مريض. أنا أصلي من أجله. هناك، مقعد كنت أجد عليه قريباتي».

عندما وصلا إلى الساحة الرئيسة خارج وسط المدينة، أَرَتْه شجرة البوباب، وهي تقول:

«هنا تسكن أرواح الأجداد الذين يدلوننا على طريق الحقيقة، والذين يمنحوننا النور الذي يقود خطواتنا».

داعب كريم جذع الشجرة وهو متأثّر وأطلق صيحة فرح. بعد لحظة أسرّت فيها نابو بصمت للشجرة، انطلقا دون كلمة.

Tele: @Arab_Books

الفصل الثالث

انطلقت القافلة باكراً في الصباح. ستتبع البضاعة في وقت لاحق، في بعثة أكثر أهمية. طلب أمير من صاحب القافلة أن يكون السفر ممتعاً ومسلياً. لذا خطّط الدليل لوقفات متعدِّدة، كانوا خلالها ينصبون الخيام ويتناولون الطعام حول النار. كان كريم يراقب النجوم ويغني، بطريقة سيئة. رغم انتظار نابو، كان أمير يتمنّع ويشارك ابنه خيمته.

استمر السفر إلى زاكورة أسبوعاً كاملاً. خلال الطريق دعاهم الدليل إلى بيته. كان يملك منزلاً صغيراً من الطوب، في سفح جبل، على بُعد عددٍ من الكثبان الرملية من الطريق. كانت فترة بهجة. اصطحب كريم الأطفال إلى أقرب مرتفع، وبما أنهم لم يكونوا يتحدّثون لغته، شرح لهم بلغة الإشارة زواج الشمس والقمر. كان يقلِّد بأصابعه سطوع الضوء. كانت النجوم ثمرة ذلك الزواج. كانت زوجة الدليل خلاسية قوية، من أم موريتانية وأب من الطوارق. كانت ترتدي ثوباً باللون الأزرق. أسرَّت لنابو، التي بدت لها نحيفة، بسرّها للحصول على وركين عريضين كي تحافظ على رجلها. نصحتها برجيم غذائي: شمر يوناني كل

Tele: @Arab_Books

صباح، عسل حر، دخن ممزوج بعناصر أخرى حدَّدتها دون تسميتها. أجابتها نابو بأن رجُلها يحبّها كما هي وأنها لم تكن بحاجة إلى كيلوغرامات إضافية. حذّرتها المرأة، لأنه بحسب رأيها كلّ الرجال يحبون النساء البدينات. لم تُعارضها واكتفت بسؤالها عن حياتها وعن أبنائها. أخبرتها زوجة الدليل بأنّ الذكور يذهبون إلى المدرسة، التي توجد على بُعد ساعة من السير؛ بينما يتمّ تربية الإناث وتحضيرهن ليتمّ تزويجهن عند البلوغ، مع الحرص على أن تقدّم لهن تغذية وفيرة. كانت نابو تعرف تلك التقاليد ولم تسمح لنفسها بانتقادها، واكتفت بالقول إنّ زوج خالتها أنقذها بتسجيلها في المدرسة الفرنسية. عند مغادرتها، منحتها المرأة كيساً من الشمر اليوناني.

في اليوم الموالي، خلال السفر، حدث الدليل أميراً عن مقدار كُره الموريتانيين للسنغاليين: «أنتَ تدرك ذلك، نحن بيض، عرب مثلكم. هم عبيد. يحنون ظهورهم بمجرد أن يروا رجلاً أوروبياً». أجابه أمير بأن ذلك عنصرية وأن الله خلق الناس مختلفين ليتعارفوا. تلا بعد ذلك الآية التي تقول ذلك، لكنه لم يستطِع إقناع صاحب القافلة.

زاكورة، اسم غريب. اكتشف أمير وكريم ونابو عند وصولهم مدينة مسطّحة بسكانها، الذين قيل إنهم يعيشون على التمر، وهم أناس طيبون، هادئون وخلوقون. لا وجود للفنادق، بيت كبير فقط حيث يقوم رجل شجاع بتأجير غرف وتوفير الخشب لحمام المدينة الوحيد. بعد أسبوع من السفر، كان أمير

وكريم يتوقان للاستحمام، لكن كان عليهما انتظار صباح اليوم الموالي لأنّ فترة بعد الظهر كانت مخصّصة للنساء. كانت نابو سعيدة لأنها ستذهب إلى الحمام، لكن المشرفة على الحمام التي كانت تجلس على كرسي متعِب كما هو حالها رمَتها بنظرة جعلتها تحسّ في الحال بأنها ليست على ما يرام. رغم كون بشرة المرأة سمراء، إن لم تكن سوداء. عندما تعرّت نابو، تفحّصتها كل النسوة كما لو كانت حيواناً يُعرض في سيرك. كانت رشيقة وطويلة القامة ورائعة، ثدياها كأنهما ثمرتا فاكهة صلبة. كانت تملك قوام أميرة. أثار ظرفها واسترخاؤها لدى أولئك النسوة شعوراً من الإعجاب والسخط. كنّ يتساءلن من أين يمكن أن تكون قد خرجت تلك المرأة، مَن أتى بها إلى ذلك المكان، ماذا أتت تفعل... أخذت نابو حمامها، استغرقت الوقت الذي تحتاجه دون أن تنطق بكلمة. اقتربت منها امرأة بدينة وعرضت عليها أن تدلّكها. قبِلَت وتركتها تفعل ذلك تقريباً لساعة من الزمن على الأقل. عند خروجها من الحمام، كانت سوداء بالدرجة نفسها التي دخلت بها، وأيضا بالجمال والروعة نفسهما.

كان كريم موجوداً لمرافقتها إلى البيت حيث ينتظرها أمير الذي اغتسل بشكلٍ خفيف وتوضّأ.

وبينما تلاقى الزوجان، خرج كريم يتنزّه في المدينة. كان يحبّ اكتشاف الأماكن ليلاً. لم يكن يخشى شيئاً ويعرف أنه بأمان، ربما كما تقول والدته «في حماية أحد الأولياء». لكن زاكورة مساء كانت مقفرة. لا أحد. لا مقهى. لا شيء. ضوء القمر فقط الذي يضفي على الأشياء مظهراً غريباً، مظهر الصور

Tele: @Arab_Books

التي نصنعها ونحن نحلم. كان الإسفلت والحيطان بلون الفضة. الهواء السائل والعليل منح بعض البهجة لزائر الليل، الذي كان سعيداً بذلك الهروب من دون هدف، من دون سبب. كان يسير ببطء، يلتفت من وقت إلى آخر كي يتحقق من أن لا أحد يتبعه. لا أحد. لا صوت، لا خيال. الوحدة والفراغ جعلاه يحسّ بانتشاء. فرك عينيه. ظهر أمامه رجل قصير القامة، جاء نحوه ومدّ إليه كفاً مليئة بالتمر:

«أنا جامِعُ التمر الأكثر سرعة، الأكثر دقة. أتسلق النخلة في ثوانٍ وتساعدني قامتي القصيرة على التمسّك بالأغصان الأكثر صلابة».

كان كريم يستمع وهو يهز رأسه. أكل بعض حبات التمر التي قدّمها له الرجل وطرح عليه سؤالاً (كان صوته قد تحرَّر تماماً):

«أين هم السكان؟

- إنهم ينامون بسلام. أنا حارس النوم، مانح الأحلام أيضاً. أمرّ أمام البيوت وبمجرد أن أحسّ أو أسمع ضجيجاً، أتدخل. في هذه المدينة، الكوابيس غير مرحَّب بها. دوري هو أن أجعلها تهرب، أرسلها إلى ورزازات، مدينة التجار وقطاع الطرق، مكان المناورات والنفاق».

سأله كريم متعجباً:

«لماذا هذه المدينة؟

- لأن أناس ورزازات يحتقرون أناس زاكورة. أعرف ذلك، عندما أقصد تلك المدينة لا أصادف سوى المشاكل. الإدارة

Tele: @Arab_Books

يمسكها فرنسيون سيئون وأناس محليون يلعقون أحذيتهم. هم يطالبون طيلة الوقت بالبقشيش. أنا، أرفض. أودّ أن أمنحهم تمراً، لكنهم لا يحبّونه، يقولون إنه مُرّ. الأوغاد!

- لكن كيف تفعل لتطرد الكوابيس؟

- يكفي أن أوقظ النائم. الأمر بسيط. سأتركك، أحسّ باضطراب خفيف جهة الشمال الشرقي. وداعاً».

اختفى الرجل. كان كريم مقتنعاً أنه نام وحلم. لكن كيف يمكن تفسير وجود التمر الذي كان يتذوّقه؟

تابع نزهته. وقف وجهاً لوجه أمام قطّ أسود يحدِّق به. تظاهَرَ بطرده، أصدر القط مواء خفيفاً، احتكّ بساقه ثم أخذ يتكلم. عندها أحسّ كريم بالخوف. أن يقصّ عليه رجل يجني التمر حكايات غريبة، كان مستعداً لتقبّله. لكن أن يملك قط أسود القدرة على الكلام، كان ذلك يُقلقه بجدّ.

تحدّث إليه القط:

«لستُ من الجن الذين يخرجون ليلاً لإخافة الأطفال. أنا قطّ تربيت في قصر الباشا الزاوي في مراكش. ذات يوم، كي يعاقبني، نفاني إلى زاكورة، وفي هذه المدينة اكتشفتُ أني أستطيع أن أتحدّث مثل البشر».

أحسّ كريم بالفضول ولم يستطِع منع نفسه من أن يجيب:

«وماذا تحكي لي؟

- آه، إذا أخذتُ أحكي لك الحكايات، فلن يكفينا الليل. بحسب حسابكم، أنتم البشر، عمري مائة وخمس سنوات، أنا لا أفنى. يجب أن أعترف بأني سئمت حياة التشرّد في مدينة

Tele: @Arab_Books

مهجورة، خالية، حيث لا يحدث أي شيء مهم. لا حفلات، ولا أعراس. بمجرد أن دخلت أنت ووالدك إلى زاكورة، تمّ الإنذار. لا شيء خطير، لكنه حدث. الصحراء تتقدم. الكثبان أصبحت قريبة أكثر فأكثر من المساكن. ذات يوم، ستغطينا الرمال. قبل أن تغادرنا، اطلب من والدك أن يصلي من أجلنا».

طلب منه كريم أن يسرّ له بسبب نفيه من طرف الباشا الزاوي.

أطلق القطّ زفرة طويلة وقال:

«ألن أجد معك سيجارة، شقراء من الأفضل، هذا ما يساعدني على تحمّل وضعيتي ونسيان جحيمي».

أجاب كريم بأنه لا يتوفّر سوى على التمر.

«أكره التمر. أحبّ الأكل المالح. طيب، هذه هي الحكاية، هو أمرٌ معقّد: كنت شاهداً على حادث لم يكن عليّ رؤيته. كان الباشا شغوفاً بالفتيات الشابات. كان التقليد يقتضي أن تقدّم له عشية كلّ احتفال، فتاة تأتي من إحدى القبائل التي يسود عليها، فتاة عذراء طبعاً. بالضبط قبل عيد المولد، تلقى فتاة ذات جمال غامض. طويلة، نحيفة، رشيقة، كانت بشرتها رائعة. ملتحفة ببرنس كبير، قدّمت نفسها قبل منتصف الليل بقليل. لكنها كانت اللحظة التي يتغيَّر فيها كل شيء.

- ماذا تقصد؟

- ذلك الشخص الذي كان له مظهر فتاة، شعرها أسود وطويل وكثيف، كان في الحقيقة شاباً متنكراً في زيّ فتاة. عندما قام الباشا بتعريته أطلق صيحة صغيرة، ثم جذبه نحوه. أنا رأيت

كلّ شيء: كان للشاب عضو صغير، استلقى على بطنه وكان الباشا يستعدّ ليأخذه عندما لمح وجودي. لم يكتفِ بضربي لكنه طلب من جنوده أن يرموني في حفرة الأفاعي. أفلتّ من الموت، جريتُ، قفزت دون أن ألتفت، باختصار، بعد بضع ساعات وجدتُ نفسي على طريق مقفر وواصلت إلى اليوم الذي التقيت فيه سائحاً إنجليزياً رقّ لحالي واصطحبني على عربته. بطبيعة الحال لم أكن أعرف لغته، لكني كنت أرى أنه يحبني كثيراً. نحفت كثيراً. عندما وصلنا إلى زاكورة، سقط مريضاً ومات ببطء. سهرتُ عليه، بالنوم على بطنه، إلى أن جاء الناس المهمون. طردوني بركلاتهم. أحسستُ بألم شديد وأخذت في المواء والصراخ، لكنها كانت كلمات تلكً التي خرجت من فمي. أنا ذهلت أيضاً. منذ ذلك الحين، أنا أتحدّث، والموت لا يريدني».

مدّ كريم ذراعه كي يحمله، لكن القط قفز قفزة كبيرة واختفى في الليل.

كان البدر تاماً، وفي ذلك الضوء، الأشياء الأكثر غرابة بدأت تظهر عادية. كان كريم سعيداً بذلك اللقاء. تابع سيره وهو يتساءل عمّا سيراه يبرز هذه المرة. لا أحد خرج من خلف الجدران. وقف أمام نخلة وقرَّر أن ينام. كان الجو لطيفاً وعذباً، كما في طفولته. غزالة، تائهة بلا شك، اقتربت منه. داعبَت عنقه. أحنَت رأسها ثم استلقَت بالقرب منه. بعد لحظات، وصل راعٍ مجعد الوجه. كان يعرج وهدّد الغزالة وكريم بعصاه. بمجرد أن رأته، أخذت الغزالة تعدو وهو وراءها. كان غضبان جداً. قال

Tele: @Arab_Books

كريم في نفسه: «ماذا سيكون التالي؟»، وهناك، من خلال الرعد، أجابه صوت: «ستعدّ النجوم إلى الصباح، إن أخطأتَ، ستبلعك الرمال!» بعد أن أحسّ بالرعب نهض وأخذ يسرع الخطى كأن أحداً يتبعه. لم يكن يجرؤ على النظر إلى السماء وأخذ يعدّ خطواته. أحسّ بالإنهاك وتوقّف تحت نخلة لم تعُد تنتج تمراً وانتهى به الأمر إلى النوم. في الصباح، أيقظته شمس قوية وضجيج بعض الأحصنة. ظنَّ أنه تعرّف إلى الراعي الغضبان، ونهض ليهرب. التقى حامل ماء ومدّ له قدحاً من الفخار مليئاً بماء عذب. بحثَ عن البيت الذي ترك فيه نابو مع والده.

«أيّ بيت؟ سأله الناس الذين كان يستفسرهم. لا يوجد هنا سوى بيت كبير واحد وهو في ملكية الباشا محاميد، مات الباشا ودفن، ولا أحد يجرؤ على الدخول إلى البيت الذي سكنه جنّ أشرار. فلنأمل ألّا يكون أبواك قد قررا قضاء الليل هناك.

- لماذا؟

- يملك الجن القدرة على تحويلهما إلى أفاعي أو معز.

- غير ممكن، والدي من أقا... أقارب الر... الرسول؛ لا يمكن... أفعى...»

طلب أن يدلّوه على بيت النحس ذاك.

«سِرْ نصف ساعة. ستجد أوّل هضبة. تخطّاها، ثم تجِد ثانية، اصعَدْها وهناك سترى بيتاً رمادياً في حالة مزرية: ذلك هو البيت. الأبواب مغلقة بالمفتاح. لن يفتح لك أحد الباب ولو طرقت. يجب أن تنتظر سواد الليل كي يُجيبك سكان البيت. حظاً موفقاً. انتبه؛ لا تصدّق كلّ ما ترى».

Tele: @Arab_Books

لم يكن يستطيع انتظار الليل. انطلق للبحث عن القافلة التي أوصلتهم إلى المكان. كان أحد الأشخاص قد رأى فعلاً رجلاً وامرأة سوداء. لكنهما غادرا المدينة. أخذ يجري نحو طريق ورزازات. حمله أحد القرويين على عربته التي يجرّها حصانان جامحان. استطاع بتلك الطريقة أن يلحق بقافلة والده الذي كان في غاية القلق. أراد أمير أن يمنح بعض القطع للقروي الذي رفضها:

«لا مال! فقط دعاءك ومباركتك يا حاج!».

كان الأب شاحباً، لم يستطِع النوم. بينما كانت نابو قد غفت قليلاً. قصّ على كريم ليلتهما التي تشكّلت من الكوابيس والأصوات المرعبة. كان أحد ما قد أمرهما بمغادرة البيت واللحاق بطفل يجري على طريق ورزازات. فضّل كريم السكوت عمّا وقع له. عندما وصلت الشمس إلى ذروتها، نزل صاحب القافلة إلى سفح الجبل متوجّهاً نحو واحة صغيرة. تناولوا خبزاً مغمساً في زيت الزيتون. بقيت نابو بعيدة شيئاً ما. أحسَّت أن الأب والابن يرغبان في التحدّث مع بعضهما.

ذكر كريم، الذي كان تحت صدمة الليلة الماضية، الجن والقط الفصيح وبعض الظلال. كانت كلمة «عنيف» تتكرّر في كلامه. من أجل تهدئته، ابتسم له والده ووضع كفه على جبينه:

«في البيت الغريب حيث كنا، جاءت أفعى وحدّثتنا. يبدو أنّ الأمر يتعلق بخادم تعرض لعضّة وحش مجهول، ومنذ ذلك الحين أصبح يتحوّل ليلاً إلى أفعى. كان يقول لنا: «لي مظهر أفعى، لكني الدكالي، حارس البيت. لا تخافا، لا أعضّ ولا

Tele: @Arab_Books

أحدِث سوءاً؛ عليّ أن أخيفكما فقط كي أثيركما. لكن بمجرد طلوع النهار، أستعيد شكلي البشري، وعندها أصبح شريراً، شريراً جداً. نصيحة، انصرفا قبل عودة الضوء، وافعلا مثلي، كونا شريرين، وحده الشر، الشرّ العميق ينتصر في حياة الحمقى هذه!»».

سأل كريم عن ردّة فعل نابو.

«هي أكثر تعوّداً منا على هذا النوع من الأشياء. لا شيء يُثير دهشتها. هي تملك قوة داخلية مدهشة. لا أقلق بشأنها. أنا متأكد أننا بعد أن نصل إلى البيت، ستعرف كيف تتأقلم وربما أثارت إعجاب والدتك. هي ذكية جداً. من حُسن حظها أنها ذهبت إلى المدرسة وتعلمت لغات أخرى غير لغة بلدها.

- وماموش؟

- والدتك، مثل كلّ نساء جيلها، لم تذهب إلى المدرسة.

- وأنت؟

- أنا؟ الصبيان فقط كانوا يذهبون إلى المدرسة. من حظي أنّي قُبِلْت في «مدرسة أبناء الأعيان». في الصباح كنا نتعلم الفرنسية، والعربية بعد الظهر».

كان كريم يكرِّر كلمة «عنيف». كان أقل ثقة من والده وكان يخشى الصدام بين نابو ووالدته. تساءل لماذا أشادت الأفعى بالشرّ. لماذا سيكون الشرّ أفضل من الخير؟ فهم والده اندهاشه وفسَّر له نظرية خبرها في الحياة:

«الناس الأشرار يعيشون أكثر من الآخرين، ببساطة لأنهم لا يتأثرون بشيء. تحميهم أنانيتهم وعدم حساسيتهم. أجسادهم

Tele: @Arab_Books

تقاوم، لأنهم لا يعرفون خيبات أمل ولا مضايقات. هم يضرون ولا يخشون شيئاً بالمقابل. تكمن قوتهم في لامبالاتهم ولا إنسانيتهم. لا رحمة ولا شفقة ولا طيبة. هم حذرون جداً، يستبقون ويتصرّفون قبل أن يتمكّن الآخر من الوصول إليهم. بالطبع هم أناس يتبنون مظهراً متحضّراً، لكن يجب ألّا ننخدع بذلك. غالباً ما يموتون خلال نومهم، بعد أن يهرموا. الشرّ يحفظ في صحة جيدة، كما لو أنّ الفيروسات والأمراض تتجنب لحمهم غير المضياف. هذا لماذا، بحسب رأيي، نصحنا الرجل الأفعى بأن نكون أشراراً. لكن لا أنت، (خاصة أنت)، ولا أنا ولا نابو نستطيع أن نمارس الشرّ. لا بأس، ليس الأمر خطيراً، الحياة أجمل بأخطائنا ونقاط ضعفنا».

استأنفت القافلة السير عندما أصبح بالإمكان تحمّل أشعة الشمس.

ورزازات، في تلك الحقبة، كانت تشبه قرية كبيرة ببيوت قليلة ونزل مسافرين. عند وصولهم، تبيَّنا في البعيد أضواء تلمع وسمعوا أصداء موسيقى. كانت المدينة تستقبل معرضاً وسيركاً. شيء جذب كلّ أهالي المنطقة. كان الناس يتوافدون من القرى المجاورة. نُصِبت خيام حول المدينة. استأجر أمير واحدة.

بدأ العرض. شقّت موسيقى حادة الليل. صعد أقزام فوق الخشبة وقاموا بشقلبات. أعلن منشط يرتدي لباس الجنود الأمريكان عن وصول للّا خناتة، «المرأة الأكثر جاذبية، والأجمل، والأروع بين راقصات الجنوب!». بعد ضربات

Tele: @Arab_Books

الطبل، ظهرت امرأة بشعر طويل أشقر: استدارت، وعندما واجهت الجمهور، اكتشف هذا الأخير وجه رجل بلحية غير حليقة وشارب كثّ. كان يرتدي فوق قميصه قفطاناً مليئاً بشذرات فاقعة الألوان. الصوت الأجش والهيئة الأنثوية كانت تعطي انطباعاً غريباً. كان أمير يعرف ذلك المعرض الذي يقوم بجولة حول البلد. فسَّر لابنه ولنابو ذلك التمويه:

«المرأة التي تحترم نفسها لا تصعد فوق الخشبة أمام الجمهور، لذا هم يستعينون بالرجال. هم يرقصون ويغنون مثل النساء، رغم أصواتهم القوية والذكورية. شيء غريب، لكن لا أحد يستغفل. هناك مَن يفضلهم على النساء الحقيقيات».

كان كريم يجد صعوبة في الفهم. كان أحياناً يسهو ولا يستوعب ما يُقال له بعد أن أنهَكه التعب وأحداث الأمس التي لا تفسير لها. أصبح صوته أكثر تردّداً: كان محتاجاً إلى الراحة والهدوء. لكن رغم ذلك، أحسّ بالفضول لرؤية العرض. عندما اقترح عليه والده الدخول تحت الخيمة، رفض.

قام أحد المنشطين ببيع أوراق يانصيب وهو يصيح: «تربح! تربح!»، تشاجرت بعض القردة من أجل حبات موز، أخذ المتفرجون يصفقون، كان كل شيء يسير على أحسن حال. كان الحفل، وكانت الصحراء بعيدة. استعاد كريم روح طفولته. أخذ يتلوى من الضحك. كان سعيداً. اشترى والده ورقة يانصيب من أجله. كان الرقم 777 السحري. تأكَّد من أنه سيربح. دارت العجلة ثم توقفت عند الرقم 555. خطأ في التنبؤ. قال: «غير طير»، ناسياً نطق الخاء.

Tele: @Arab_Books

مع كلّ ذلك الضجيج والحركة، صعُب عليه النوم. طلب أمير من ابنه، الذي فضَّل قضاء الليل في العراء، ألّا يبتعد كثيراً عن الخيمة. التقى كريم قزمة اقتربت منه وهي تهزّ ثدييها، غمزته بطريقة مشينة. أضحَكَه ذلك فأطلقت القزمة صيحة رعب. انطلقت جارية. كانت الليلة قصيرة. أيقظهم صاحب القافلة باكراً. كان عليهم استغلال طراوة الهواء في الصباح الباكر من أجل الطريق.

عند مغادرة ورزازات، التقى أمير الغزواني، وهو تاجر نشيط من فاس يوجد دكانه قبالة دكان أمير مباشرة في حي الديوان. بدا له منشغل البال. عندما استوضحه أمير، أخبره أنّ البلد على حافة اضطرابات، انتفاضة ضدّ الفرنسيين. تسري إشاعات في كلّ مكان مفادها أنّ مجموعة من الوطنيين يطالبون باستقلال المغرب وخروج الفرنسيين. كان التاجر الغني قلقاً من الاضطرابات التي تلوح في الأفق. قال ذلك بوضوح:

«التظاهرات، تعني كساد تجارتنا. هل تعي ذلك، جحافل من الناس تصرخ ضد المسيحيين، هذا يرغمنا على إغلاق المتاجر. أنا مسافر إلى غينيا، لكني لا أعرف إنْ كنت سأجد عند عودتي متجري على الحالة التي تركته عليها. يوجد وطنيون، لكن يوجد أيضاً ناهبون وأوغاد أتوا من البوادي. . . ».

بينما كان يتحدث، حطَّت عيناه على نابو. غمز لأمير وقال له:

«انتبه جيداً، سيأخذونها منك!».

لم يُجِبْه أمير الذي انتابه قلق عميق:

Tele: @Arab_Books

وإن هجرتني نابو؟ يمكن أن تتبع رجلاً أكثر ثراء، أكثر قوة، بعد خروجها من وضعيتها الهشة. . . أحسّ بنغزة في القلب، ثم جعله تبادل نظرة مع نابو يطرد في الحال ذلك الاحتمال. في وقت متأخّر، قبل أن يناما، تساءل: هل هي مغرمة بي؟ تراجع وقال: لم أطرح هذا النوع من الأسئلة مع للّا فاطمة.

فكّر في قريبه حفيظ، الثوري والفوضوي الذي كان يقول إنه يجب استغلال وجود العائلة المالكة في المنفى لإنهاء عهد الملكية الذي يدمر البلد! كان الوحيد الذي يتبنى ذلك الخطاب. كان يعرف ويكرِّر أنّ المغاربة يملكون فرصة ذهبية كي يقيموا نظاماً ديمقراطياً على شاكلة السويد، لكنهم كانوا حذرين جداً، ينقصهم الجرأة والخيال.

كان أمير قد حاول إعادته إلى جادّة الصواب عدّة مرات، لكن عبثاً. كان كما يقول، «رأسه ناشف، أحمق سيجلب المشاكل لنفسه ولعائلته». ورغم كونه حَذِراً، كان أمير يغذي مشاعره الوطنية. سنة 1930، عندما أعلنت الإدارة الفرنسية «الظهير البربري» الذي كان يتضمن تشريعات مختلفة عن تلك التي تسري على العرب، تبع أمير والده في مظاهرة كانوا يرددون فيها نفس شعار: «كلنا مسلمون، كلنا مغاربة». كانت فرنسا ترغب في انتزاع القبائل البربرية، سكان البلد الأوائل، من التأثير العربي وبالتالي المسلم. كانت قد خطّطت لمدارس فرنسية-بربرية، سلطة قضائية تفضِّل عادات تلك القبائل، آملة بتلك الطريقة في تقسيم المغرب الذي كان في تلك الفترة ذا أغلبية بربرية. كان أمير يتذكّر جيداً تلك التعبئة التي جعلت

فرنسا المستعمرة تتراجع. كان يبدو له أمراً طبيعياً المطالبة باستقلال بلده بدوره.

في سنة 1947، سافر إلى طنجة كي يستمع إلى خطاب محمد الخامس المُطالب رسمياً باستقلال المغرب. كان قد انضم إلى حزب الاستقلال وأخذ يدفع استحقاقاته بانتظام. لم يكن جاره، الغزواني، الأناني والبخيل، يهتم كثيراً بالاستقلال: الذي كان يهمه في الأساس، هو جمع المال والذهاب من وقت إلى آخر إلى ماخور السيد بروسبيل الذي كانوا يطلقون عليه «بوسبيل».

كان الوصول إلى مراكش قاسياً. رجال درك وجنود يوقفون العربات والشاحنات من أجل تفتيشها. لم يعِشْ أمير إهانة على ذلك النحو من قبل. فَهِمَ أنّ المغرب سيدخل في منطقة عواصف.

تركهم صاحب القافلة في ساحة جامع الفنا، في المحطة الطرقية. كان عليهم الانتظار عدة ساعات قبل أن يصعدوا إلى حافلة تحمل لوحة تسجيل فرنسية. كان أحد البربر قد اشتراها من شركة ليونية تنقل فيها السياح. في انتظار ذلك، اصطحب أمير نابو وكريم لزيارة جامع الكتبية الرائع، أخبرهم أنّ له توأماً في إشبيلية هو جامع الخيرالدا. كي يصلوا إلى الجامع، ركبوا عربة. جلس كريم قرب السائق وحدّثه عن سفرهم. كان يفتح قلبه للناس بسهولة، لكنه لم يكن يخطئ أبداً: كان يعرف مع مَن يتحدث ومَن يتجاهل. كان والده، خلال ذلك الوقت، يشرح

Tele: @Arab_Books

لنابو بناء المدينة وأهمية الباشا الكلاوي الذي كان يسود بصفته سيداً مطلقاً على مراكش وجزء كبير من الحوز.

استطاع أمير ونابو، مقابل إكرامية كبيرة، أن يجلسا في المقاعد الأولى للحافلة. اختار كريم أن يجلس في الخلف. كان يحب من حين إلى آخر أن يخلو إلى نفسه. كانت له قدرة كبيرة على الهروب من العالم والانطلاق في أحلام هو وحده يملك سرّها. كان والده يعرف أن لا جدوى من إزعاجه عندما ينعزل.

حذّر السائق المسافرين وهو يصيح:

«مراكش كازا، مراكش كازا، الانطلاق خلال ساعة، حافلة سريعة، نهار واحد للوصول إلى كازا، أسرعوا، بقيت بعض الأماكن...».

من النافذة، تأملت نابو الساحة الكبيرة جامع الفنا: موسيقيون وراقصون وبهلوانيون وعرافات وسحرة ثعابين ومربي قرد يدخن سيجارة وبائع ماء ونساء يمتطين دراجات هوائية ومتسولون وبائعو كباب وحتى بعض الحكواتيين السود باللباس التقليدي.

كان رأس السائق وكذلك رأس مساعده تحت غطاء المحرك. علامة سيئة. خشي أمير ما يحصل عادة: عطل. بعد بعض الوقت، أخبر المساعد المسافرين بأنّ الحافلة لن تنطلق قبل صباح اليوم الموالي. من أجل إصلاح العطل، كان يجب الحصول على قطعة، وحدَهُ حميدة الأعور، الحداد الشهير والجزار السابق، يستطيع صناعتها. ذهب أحد الصبيان للبحث

Tele: @Arab_Books نورسين نوفل pdf

عنه في بيته. كان يسكن في المدينة العتيقة ويخصّص فترة الظهيرة للقيلولة مع زوجته الثانية. لم يكن عليهم إزعاجه. كان حميدة يحبّ أن يتم البحث عنه وكان يترك زبائنه ينتظرون. كان يقول إنه اشتغل ميكانيكياً في الجيش الفرنسي حيث تعلّم تفكيك وتركيب محركات السيارات بالكامل. وكان قد فقد إحدى عينيه خلال عمليات في الأطلس. كان يقسم شغفه بين النساء ومهنته الثانية. كان الشغل قليلاً بالنسبة إلى الحدادة وجدّ وفير بالنسبة إلى الميكانيكا. ترجّاه الصبي أن يسرع. تبعه بمزاج سيئ وهو يلعن صانع الحافلة التي كانت كثيرة العطب. في الطريق، توقّف أمام دكان ابنه بائع اللحم المحضَّر للشواء. ذكَّره بموعده مع القائد من أجل رخصة توسعة. قال له: «لا تنسَ أن تبعث له بالخروف الذي ذبحته أمس. لا رخصة من دون هدية!».

أخذ أمير في البحث عن فندق قريب. لم يضطر للبحث كثيراً لأنه لم يكن هناك سوى فندقٍ واحد، يوجد قرب الساحة ويحمل اسم «فندق المتعة». طريقة أخرى لقول «فندق دعارة».

كان كريم قد انطلق إلى الساحة وكان حتماً سيُمضي الليلَ في ذلك العالم المشبوه والغامض.

كانت الشكوك تحوم حول دور لبوّاب الفندق في إتلاف محركات الحافلات كي يستطيع عرض لافتة «مليء بالكامل». أعجبته هيئة أمير الذي كانت تتبعه امرأة شابة وقرَّر أن يمنحه أفضل غرفة عنده، تلك التي يوجد بها أقل عدد من البراغيث بفضل فلي-توكس الذي كانت رائحته اللاذعة تملأ المكان. رغم ذلك كان الذباب موجوداً، بالنسبة له. قال البواب، لا أستطيع

Tele: @Arab_Books

فعل شيء، فهو أكثر مكراً وأكثر ذكاء من البراغيث التي تعيش على دم النزلاء. يأتي الذباب من البوادي، ذلك واضح، هو غليظ وأسود وقبيح وجشع وعنيد بالأخص. كان يُعدي ذباب المدينة الصغير، النحيف والصامت.

كان السرير شبيهاً بأرجوحة. كأن فيه ثقباً في الوسط. قررت نابو أن تنام على الأرض، تاركة الفراش لرجلها. في الغرفة المجاورة، كان زوجان يتململان كثيراً والمرأة تصرخ. كانت تنبعث صيحات متعة. جعلهما ذلك يبتسمان. لم تكن نابو مرتاحة وحاولت أن تُفهم أمير بأنها لم تكن تشعر برغبة في ممارسة الحب في تلك الغرفة. قالت له:

«أنا متعوّدة على النوم على الأرض مباشرة؛ الأمر ليس مأسوياً. أنتَ الذي أدخلت الرفاهية إلى حياتي. لكني قد أعود إلى وضعيتي السابقة في أية لحظة. هذا أول درس يقدِّمه لنا الأسلاف.

- نعم، أعرف، لكن يجب أن تستعدي لتتعايشي مع للّا فاطمة، زوجتي الأولى. هي امرأة لها قيمة وكثير من المزايا، لكنها تظلّ مع ذلك امرأة وستُعبّر، من دون مواربة، عن اختلافها وغيرتها.

- أكيد، أتوقع ذلك. لكن لا تشغل نفسك».

نامت نابو في الحال بينما بقي أمير فريسة لأفكار تؤرقه. كان رجلاً قلقاً بطبعه، يعيش في استباق لما يمكن أن يحدث، وغالباً ما كان يعاني من ذلك. كان ضعيفاً وواعياً بضعفه. حاول

Tele: @Arab_Books

أن يتصوّر كيف ستمرّ الأحداث. تخيَّل لحظة وصولهم إلى البيت، تخيَّل ردّة فعل الجيران وأفراد العائلة وأخيراً ردّة فعل للّا فاطمة. وضع جانباً كلّ الذين سيتبرؤون منه بنفاق، وعلى الجانب الآخر الذين لن يقولوا شيئاً. كان يرى تماماً كيف سيتصرّف خاله، الرجل الذي تصرّف بشكل سيئ مع المرأتين السوداوين. لم يكن يخشى حكمه، لكنه لم يكن يرغب في أن يناقش معه اختيارات حياته. تصوَّر أيضاً ردّة فعل سعدية، شقيقة للّا فاطمة، تلك العانس التي تحسّ بالمرارة والغيرة والتي تكرِّس نفسها للصلاة والنميمة. كانت تتحدث بسوء عن الجميع، وحتى عن الناس الذين لا تعرفهم. تتبُّع عيوب الآخرين كان يشكِّل متعة بالنسبة لها، ودائماً ما كانت تختم حديثها بالتضرُّع إلى الله بأن يعاقب الناس غير الجديرين بالإسلام.

كان أمير يخشى أن يقلِّل أحد أولاده من احترامه له لارتباطه الوثيق بأمه. لكن ذلك كان شيئاً قليل الاحتمال. تصوّر مشاهدَ يصرخ فيها الجميع، أو يطردون نابو بالعصي. رأى نفسه يتدخَّل بين زوجته ونابو ليحميها من العداء العام. عندما كانت النساء السود يأتين كإماء ليكدحن دون احتجاج، كانت النساء البيض يتقبّلنهن رغم معرفتهن بأنهن ينفعن أيضاً في تهدئة جموح أزواجهن الجنسية. لكن نابو لم تكن جارية. كانت امرأة وقَع أمير في غرامها وها هو يحاول إدخالها في محيط العائلة. لا جارية ولا خادمة، لكن سيدة وجميلة ومحترمة، امرأة تستحق الاحترام والاعتبار. كان يقول لنفسه ذلك، ثم يتنهَّد مدركاً أنّ الحقيقة ستكون من دون رحمة بالنسبة إلى تلك المرأة وذلك الحب.

Tele: @Arab_Books

قرَّر أمير أن يخصِّص شقة صغيرة من أجل نابو، مُلحقة بالبيت يطلقون عليها **المصرية**. كانت المكان الذي ينعزل فيه والده عندما يحتاج إلى الهدوء من أجل قراءة مخطوطات ثمينة. كانت **المصرية** مثالية من أجل ذلك. كان بها مكتب صغير وسرير وبعض المخدّات. سيكون ذلك المكان مثالياً بالنسبة إلى نابو، الوقت الكافي ليُخبر زوجته بمجيئها. لن تغار زوجته من جمالها، لأنه بالنسبة إليها لا يوجد من جمال سوى الأبيض. لكنها لن تتحمّل أن ترى كم أنا منجذبٌ نحو تلك المرأة الشابة، التي سأعاملها بالاعتبار نفسه الذي أخصصه لها. هنا تَكمُن عقدة المشكلة.

كان يتصوّر المَشاهد، مشهداً تلو الآخر، ويقتنع بأنّ الأمور لن تمرّ ببساطة. لم يكن يستطيع الاعتماد كثيراً على كريم، الذي لم يكن، رغم طيبته الطبيعية، قادراً على مضايقة والدته. كان يقول لنفسه: الهدايا في البداية، بعد ذلك الراحة، وبعد بضعة أيام، دخول نابو إلى الساحة، نابو الجميلة، السامية.

باكراً في الصباح، طرقَ البوّاب الباب. كان قد تمّ إصلاح الحافلة. وكان حميدة الأعور يتناول فطوره في الساحة. كان يلتهم رأس خروف مطبوخ على البخار ويشرب كؤوس شاي بالنعناع شديدة الحلاوة.

كان كريم ينتظرهما في مدخل الفندق. حمل حقيبة نابو وتوجّهوا نحو المحطة. سحنة السائق كانت سيئة. وكان مساعده قد أمضى الليل بجانب حميدة يساعده. دار المحرك وهو يطلق

Tele: @Arab_Books

أصواتاً شبيهة بصوت ناقة أو حيوان جريح. اعتقد أحد المسافرين أن المحرّك يُعلِم المسافرين عن وجهة الحافلة: مرّاكش كازا! سارت الحافلة القهقرى. سمعت صيحات بائع الدجاج. هرب ديكان. كان جار كريم في الجهة اليسرى قد اشترى ثلاث دجاجات، واحدة منها تحسّ بعطش شديد، ولن تعيش طويلاً. مباشرة في الخلف، جلس جندي ثملٌ إلى حدّ مَا يدخن سجائر «تروب» تطلق رائحة زيت محروقة. وضعت نابو غطاء على رأسها ونامت. أمسك أمير مسبحته وأخذ يسبح بطريقة آلية وهو يفكر في شيء آخر. أحسَّ برغبة قوية في ممارسة الحب مع نابو. بالطبع لم يكن المكان والزمان مناسبين، لكنه لم يستطِع تهدئة اندفاعه، خاصة أنها وضعت رأسها على كتفه وكان ثدياها يلمسان ذراعه. طردَ من ذهنه إغواء الشيطان الذي كان يوسوس له وأخذ يتلو ذهنياً سورة من القرآن. ذِكْرُ بعض الآيات أحدثَ لديه تأثيراً عميقاً، إذ تنتفي كلّ رغبة جارفة، وكل إثارة، وينتفي، بشكل خاص، كل انتصاب مفاجئ في حافلة، يختنقون فيها بسبب الحرارة ودخان سجائر جنود في إجازة.

سارت الحافلة ببطء وتوقفت مراراً. كان مساعد السائق يفتح الغطاء بانتظام كي يبرد المحرِّك وكان بعض المتسوّلين يستغلون الفرصة ليصعدوا ويندبوا حظهم. وكان أمير يتصدّق، باستمرار، ذلك واجب كلّ مسلم صالح. لم يكن الجندي وحده مَن يدخن. مع الحرارة، أصبح الهواء خانقاً. كان السفر جحيماً خاصة بالنسبة إلى أمير وكريم غير المتعودين على الحرارة المرتفعة مثل نابو. لم يكن سكان المدينة يتحملون سكان

Tele: @Arab_Books

البوادي. كانوا يرون فيهم أناساً بدائيين ومتّسخين وعديمي الحياء وشيئاً ما قديمي الطراز. كان أهل فاس يعتبرون أنهم حراس الثقافة والحضارة، وأن باقي المغاربة ليسوا بنفس تحضُّرِهم. كان ذلك نوعاً من العنصرية، ورفضٍ للناس الذين قدموا من مكان آخر ولأساليبهم التي تُعتبر مستهجنة وملابسهم التي كانت تحمل رائحة التراب وروث البقر. كانت محنة النقل الجماعي تسبب لأمير وأمثاله ضيقاً لا يجرؤ على الإفصاح به. في جميع الأحوال، كان يعرف أن لا جدوى من أن يحتجّ على كون جاره لم يستحمّ أو لأن أحداً آخر ينفث الدخان في وجهه. سمع دوماً والده يضع فاس «مدينة المدائن»، في مقابل كلّ مُدن المغرب. لم يكن أهل فاس المنغلقون على أنفسهم، الأقوياء بتقاليدهم، يغادرون المدينة العتيقة سوى من أجل الذهاب إلى مكة أو بالنسبة إلى البعض منهم من أجل أسفار العمل إلى السنغال. كانوا بقية الوقت يزرعون حدائقهم الصغيرة مديرين ظهورهم لباقي البلد. لم يكن القرويون أيضاً يحبونهم. غالباً ما كانت نساؤهم أو بناتهم يشتغلن خادمات لدى العائلات. كان ذلك شبيهاً بالرقّ، لكنه لم يكن يصدم أحداً. من حين إلى آخر تبرز مأساة، ثورة ضدّ المعاملة السيئة. كان ربّ الأسرة يتدخل فينضبط كلّ شيء. لكن الجميع كان يتذكر الحالة المأسوية لعائلة الكوهن، وهم يهود أندلسيون اعتنقوا الإسلام في فترة محاكم التفتيش. كانت السيدة الكوهن قد ذُبِحَت خلال نومها من طرف خدم عندما كان الزوج في سفر عمل. سلّمت القاتلة نفسها للشرطة، تمّت محاكمتها بسرعة وحكم عليها بالمؤبد. منذ ذلك

Tele: @Arab_Books

الحين، أخذ الأسياد يغلقون عليهم غرف النوم بالمفتاح قبل النوم.

توقفت الحافلة أمام جزار يبيع الشواء. كان يطرد الذباب بإحدى كفيه، وبالأخرى كان ينشغل بالنار. غطّت سحابة دخان وجهه، لكن ليس صوته الذي كان يصرخ: «لحم جمل طري! كفتة لذيذة!» تكفَّل كريم بحمل الخبز المحشوّ بلحم متبّل لأمير ونابو. أكلوا بشهية مفتوحة. شربوا كؤوساً كبيرة من الشاي بالنعناع. كانت تقريباً وليمة، لكن بعد بضع ساعات، تقيّأت معدة أمير، الحساسة جداً، كلّ ما التهمه. أوقف السائق الحافلة، أنزلوا أميراً وتركوه يتقيّأ. تسلت نابو التي لم تعانِ من مشاكل في الهضم بذلك بتكتم. انطلقت الحافلة. كان أمير شاحباً، وضع رأسه على كتف نابو ونام مثل طفل متعب.

نظرت نابو إلى المناظر عبر النافذة. تركت ذكريات مراهقتها تسحبها. في تلك الفترة، كان والدها، المنحدر من كازامانس، يدلِّلها في كلّ إجازاته. كان يأمرها بألّا تعير اهتماماً للسخرية التي كان ذلك الجزء من السنغال ضحية لها. كان يحبها كثيراً ويوصيها بالحذر من طمع الرجال. هو الذي كان قد علَّمها الاعتراف تحت شجرة البوباب وحدّثها قليلاً عن الإسلام، كما حذّرها من المسلمين العرب الذين، بحسب قوله «لا يكنّون أيّ احترام للمرأة». كان لنابو تصوّرها الخاص عن الروحانية ولم تكُن تهاب الموت. كان والدها يعرف أنه سيموت. قال لها ذات يوم: «يرسل القائد السود دائماً إلى الجبهة. نحن لحم من أجل

Tele: @Arab_Books

المدافع. لكني إنْ متّ، ستكون مشيئة الله والأسلاف». أما بالنسبة إلى والدتها، التي هجرها ذلك الزوج الذي كان يقضي من الوقت في الجيش أكثر ممّا يقضيه في البيت، فقد كانت تقول لها: «أنا لا أقلق عليك؛ بجسدك الممشوق وعينيك الشبيهتين بحبّتَي لوز وذكائك، ستحصلين على الرجل الذي ترغبين به، تكفيك نظرة وغمزة، وسيأتي مثل حَمَل ليقبع تحت تنورتك. لكن انتبهي، كوني ماكرة، ولا تأتي أبداً لتبكي في بيتي». كانت الأمور واضحة.

أقامت نابو معظم الوقت عند خالتها التي لم تنجب. كان زوج الخالة هو مدرِّس القرية وكانت نابو تقضي معظم الوقت في المدرسة: أحبَّت الرسم وكتبت قصصاً وقرأت كلّ ما كان يوصي به زوج الخالة.

كانت بالكاد في سنّ السادسة عشرة عندما أغرمت بذلك الرجل اللطيف والمهتم. انبهرت بكرمه وبكفّيه الطويلتين والدقيقتين. ذات يوم، رأته، من دون قصد، يستحمّ. كان عارياً. كان يعتقد أنه لوحده بعد أن خرجت زوجته الخياطة. لم تستطِع نابو حبس نفسها عن النظر إلى الجسد الرشيق والطويل والنحيف. تثبتّت عيناها على عضوه وتفاجأت بلعابها يسيل. أحسَّت برغبة غريبة يرافقها سائل ساخن يسيل على طول ساقيها. وضعت كفّيها على عانتها وداعبَتها. لم تكن تستوعب ما يحدث لها. اعتادت كلّ ليلة، قبل أن تنام، أن تهدّئ رغبتها بمداعبة نفسها ببطء وبشكل ممنهج ممرّرة في ذهنها صُوَر ذلك الرجل العاري الذي أثارها بشكل كبير.

Tele: @Arab_Books

فهمت الخياطة أنّ الصغيرة لم تكن بريئة. جعلتها تتكلم واكتشفت أنها ترغب في زوج خالتها. أفهَمَتها أنّ الانجذاب إلى رجل قريب لم يكن مسموحاً به، وأنّ زوج الخالة كان في مقام والدها وإن لم يكن من العائلة نفسها. أحنَت نابو عينيها، استمعت وهي تبكي. قرَّرت العودة إلى العيش مع والدتها، لكن الأمور مرَّت بشكل سيئ. حاول أحد الأزواج العابرين مضاجعتها بمجرد أن رآها. هربت، وفي الشارع، قرب المدرسة، سقطت بين ذراعي زوج الخالة المحظور. لم يكن مغفلاً، طلب منها أن تتبعه. فتح باب المدرسة، وافتضّ بكارتها في مكتبه. خافت من الدم وبكت. هدّأها زوج الخالة وهو يمسح فخذيها ويقبّلها بلطف. عندما نهضت، أحسَّت بصعوبة في المشي. طلب منها أن تبقى هناك لتستريح، وأحضر لها ليموناادة وتركها لوحدها. يجب أن يظلّ السرّ بينهما.

خلال أكثر من سنة، التقيا في ذلك المكان ومارسا الحب على حصائر من دون ترف. غيَّرت نابو من مظهرها وهيأتها. الشيء الذي لم يَغب عن ذهن خالتها. ذات يوم نهضت بفكرة محدّدة: «إذا منحته نابو طفلاً، سينتهي أمري! يجب أن أدمّر هذه العلاقة».

لم تكن لديها أية وسيلة ضغط على زوجها. عند أقل مشاجرة، سيذهب. كان عدد النساء أكبر من عدد الرجال. اعترفت للساحر الأعمى الذي أخبرها أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً من أجلها. بمعجزة لم تحبل نابو.

ذات يوم، بينما كانت ترافق خالتها إلى سوق النسيج وقعت

Tele: @Arab_Books

نابو وجهاً لوجه مع رجل أجنبي، مسلم يرتدي ثياباً بيضاء. خاطبها كأنها طفلة مدلَّلة تائهة في أحد الدهاليز:

«لكن من أين خرجت، من أين جئت؟ تبدين تائهة، تحتاجين إلى سيدٍ ليعتني بكِ؛ لا يجب أن يبقى كلّ هذا الجمال من دون حماية».

أحسَّت الخالة، التي استمعت إلى أمير، بالسعادة، ولم تكن لتفوِّت فرصتها للتخلص من نابو وإبعادها عن زوجها:

«لست والدتها، أنا خالتها، لكنها مثل ابنتي. هي بحاجة لأن تتحرّر. ليس لها أب، ووالدتها، التي تغني في الأعراس، بالكاد تستطيع تدبّر أمرها».

لم تتكلم نابو، لكنها في قرارة نفسها كانت تراقب الوضع باهتمام. كان غرامها بزوج خالتها قد خفّ، وحان الوقت لتجرّب مغامرة أخرى.

قال لها الأجنبي:

«أودّ سماع رنة صوتك

- نعم، سيدي!

- أين تعلّمت أن تتحدثي على هذا النحو؟ عند موليير؟

- أجل، زوج خالتي هو مدير المدرسة. علّمني عدة أشياء

- لا أريد أن ألهيك عن دراستك. يجب أن تتابعيها، لكن ذلك لن يزعجني».

تدخلت الخالة كأنها والدتها:

«ما هي نواياك، سيدي؟

- طيبة! شريفة!».

بعد عدّة أيام، تزوّج أمير، لمدة محدّدة في خمسين يوماً، نابو، التي كانت تقترب من الثامنة عشر. كان لرَجُلي دين مكتبهما في مدخل مسجد الحي الوحيد. حرَّرا عقداً يذكرون فيه مبلغ المهر ونوعية الهدايا ومدة الزواج. تحقّقا ممّا إن كانت الفتاة الشابة موافقة، طلبا منها أن تضع توقيعها في أسفل الورقة، بجانب توقيع أمير. هنّأه الرجلان على أول «زواج متعة» يعقده. انصرفت نابو و«زوجها» وهما يشبكان يديهما، كأنهما يتعارفان من قبل.

أقاما في البداية في بيت صغير مجهّز وعاشا فيه زوجاً وزوجة في انتظار حصولهما على بيتهما الخاص. خلال الأيام الأولى، لم يتمكّنا من إيجاد توازن. لم تكن تستسلم له كلّياً، كانت تتركه يداعبها لكنها لم تكن تشارك في اللهو. كان لطيفاً معها، أخرق شيئاً ما، لكنه صبور. ثم ذات مساء، أخذَت بزمام الأمور وأشرقَ بريق من الفرح والنور جعل أمير يستمتع بجنون. لم يكُن يظن أنّ بإمكان امرأة أن تمنحه كلّ تلك المتعة. اكتشف جرأة ذلك الجسد الذي يلتف حوله بمرونة ورشاقة.

أخذَ ينشد أبياتاً لشعراء مجهولين، ربما كانت من تأليفه، يهذي ويسيل رضابه ويقبِّل قدميها ويلحس بنانها واحداً واحداً ثم يضع وجهه بعد ذلك بين فخذيها محاولاً أن يُمسك بلسانه الشفتين والبظر والزغب وكل شيء. كان يصيح مجنوناً، يصرخ من المتعة ثم يسقط بكلّ ثقله على ذلك الجسد النحيل الموهوب بإثارة جنسية لا محدودة.

لم تكن نابو تتكلم، كانت تتركه يفضي لها بكلّ ما يجول

Tele: @Arab_Books

بذهنه مكتفية بأن تمنح له نفسها وتَسمعه يهذي من المتعة. كان زوج خالتها قد درَّبها بشكلٍ جيد. وكانت قد تعلَّمت كيف تشبع رجلاً وكيف تنجح في الاحتفاظ به مشدوداً في داخلها. كانت تملك حيلاً وتقنيات بالكاد يمكن ملاحظتها لكنها ذات تأثير مذهل.

كان أمير يتساءل في قرارة نفسه عمّا إن كان سيعود يوماً إلى فاس. عندما كان يتذكَّر اللحظات الحميمة التي أمضاها مع الزوجة البيضاء، كان يشعر برغبة في الضحك والبكاء في آن. لماذا نساؤنا البيض خوّافات ومكبوتات وخرقاوات وخجولات؟ كان يتساءل. آه، أعرف، نحن نمارس الحب من أجل الإنجاب وليس من أجل الاستمتاع بجسد ما إلى حدّ الجنون. كان يعتقد إلى حدود ذلك اليوم أنّ العملية الجنسية كانت تمريناً بارداً وسلبياً: تضطجع الزوجة على الظهر وتبعد ساقيها، وعليه هو فعل الباقي. بعد أن يقذف كان ينسحب، يمسح بفوطة صغيرة تمدّها له زوجته وينام راضياً. كان ذلك ما يعتقده. منذ أن اكتشف ذلك البركان، أصبح يرى أنه من الصعب أن يعود إلى سرير زوجته الشرعية، أم أولاده.

كانت سطات في تلك الفترة مجرد قرية غير ذات شأن. كان على الحافلة أن تتوقّف فيها فترة طويلة حتى يرتاح المحرّك ويأخذ السائق قسطاً من النوم. لم يكن هناك أحد عدا بعض المتسولين الذين علموا بوصول المسافرين وصعدوا يمدّون أيديهم بينما كان الليل يرخي سدوله. نام الجميع. كان البعض يشخر أو

Tele: @Arab_Books

يتحدث خلال النوم. كانت الأحلام تحوم حول رؤوسهم. سرى في الحافلة جوّ غامض كما لو تمَّ تخدير المسافرين. التقى كريم، مرة أخرى، أشباح زاكورة الذين تدثّروا بأقمشة مزركشة عريضة. كانوا يرقصون وهم يدورون حول أنفسهم مثل دراويش ويطلبون منه أن يوافيهم. عندما نهض، تعثّرت قدماه في شبكة صيد ووجد نفسه في قاع البحر يصارع كي لا يموت غرقاً. أطلق صيحة واستيقظ. لم يرغب في العودة إلى النوم مخافة أن يستغرق ثانية في الكابوس المرعب.

كان كريم يرى الكثير من الكوابيس. لم يعرف أحد إن كان ذلك مرتبطاً بإعاقته أو بخياله غير المحدود. كانت نظرته للعالم المحيط به واضحة، من دون أي ضباب، بل إنه كان يرى حتى ما لا يلاحظه الآخرون. يوم ختانه، جاءت نسوة يقبِّلنه ويقدِّمن له هدايا. كان سعيداً رغم الألم. عندما اقتربت منه هدى، تظاهر بالنوم كي لا تقبِّله ويضطر لأن يبتسم لها. أحسَّت والدته بالقلق وطلبت منه تفسيراً. أجاب وهو يقوم بحركة من يده تعني «سيئة»، صاحَبَتها تكشيرة لا تترك أيّ مجال للشكّ حول شرّ تلك المرأة. تأثَّرت والدته: كانت هدى بالفعل طاعوناً، امرأة نمامة وحسودة تمارس السحر متحالفة مع الشيطان. أحسّ كريم بذلك دون أن يكون قد رآها من قبل. في يوم آخر، طرقَ الباب بائع متجوّل، رجل غجري. كان يعرض أقمشة يدَّعي أنها مستوردة من فرنسا. كانت للّا فاطمة على وشك أن تسقط في الفخ لولا مجيء كريم، تلمَّس القماش ثمّ أشار برأسه بالنفي مضيفاً «خردة اليابان». منذ أن تدفّقت سلع يابانية عديدة من نوعية رديئة، سَرَت إشاعة قوية

Tele: @Arab_Books

تقول إنّ كل ما هو قبيح كان يابانياً. أدان كريم سلعة الدجال بتلك الطريقة.

كانوا يقولون عنه في العائلة «الخبز الجيد» و«القلب الأبيض» و«أمين الخير» و«البريء». كان البعض يحبه بإخلاص، وآخرون يبعدونه - الإعاقة، كما قال والده ذات يوم، ليست معدية. لا يهم الحذر. كان كريم فوق تلك الأشياء وكان بحالة جيدة. بسبب ثقب في القلب، كان يرى الطبيب أدريان الذي يشتغل في ثكنة الجيش الفرنسي خارج المدينة العتيقة مرة في السنة. كان لا يزال صغيراً عندما رافقَ والدته يوماً إلى الحمام، هناك طلبت منه امرأة عجوز أن يُريها راحة كفه الأيمن. تفحَّصتها بإمعان كأنّها شوافة ثم تركتها وهي تقول «لا بأس». لم تفهم للّا فاطمة ردّة الفعل تلك. فسَّرت لها المشرفة، الجالسة عند الباب، أن تلك المرأة كانت تبحث عن طفل يكون خطّ كفه اليمنى في وسط الراحة مستقيماً، لأنه بحسب إحدى المعتقدات كانت تلك العلامة الخاصة تميِّز الأطفال القادرين على اكتشاف الكنوز الخفيّة. حاولت مؤخراً جماعة من الأشرار خطف طفل ولدَ بتلك العلامة كي يبيعوه إلى قبيلة في الأطلس الكبير حيث يُقال إنه توجد كنوز من جميع الأصناف. أحسَّت للّا فاطمة بعرق بارد وأمسكت كريم من يده وهي تأمره بألّا يفتح راحة كفه أبداً لأيّ كان.

عمّ سطات هواء مضطرب وثقيل. لم يكن لون السماء طبيعياً. كان، أحياناً، أبيض، وأحياناً رمادياً. أحسَّ كريم قبل

Tele: @Arab_Books

أيّ أحد بضرورة المغادرة. لم يفهم السائق الذي كان كريم يحاول إخباره، قام بحركة كي يقول «من بعد»، لكن كريماً كان مقتنعاً بأنّ ذلك المكان مسكون بشيء سيئ.

بالفعل هبَّت عاصفة غبار مصحوبة بريح قوية كادت تقتلع كل شيء عند مرورها. أحسّ كريم بالرعب والتصق بوالده وأخذ يبكي مثل طفل استيقظ وسط كابوس. كان من الصعب إزاحة المعسكر. كان السائق ومساعده، اللذان ينحدران من تلك المنطقة، قد ذهبا لتناول العشاء عند عائلتيهما. أخذ جميع المسافرين ينتظرون متمنّين رؤية مَن سيقودهم إلى الدار البيضاء يظهر من خلال الزوابع الرمادية. قال أحد المسافرين: «لم يعُد المهدي المنتظر، أصبح السائق المنتظر!» وأخيراً نام الجميع في الحافلة، وباكراً في الصباح ظهر الرجلان متعبين تفوح منهما رائحة الجعة. عندما انطلقت الحافلة أخيراً صفّق الناس كأنهم أفلتوا من كارثة.

في الطريق، أوقف رجال درك الحافلة للتحقق من المسافرين. أخبروا السائق أنهم يبحثون عن مجرمَيْن قتلا فرنسيين في مكناس. فهمَ أمير أنّ الأمر يتعلق بمناضلين وطنيين يقاومان من أجل استقلال المغرب. لم يبدِ أيّ ردّة فعل، أظهر أوراقه وكذلك أوراق كريم ونابو. أنزل رجال الدرك تلك الأخيرة وقاموا بتفتيشها. تركتهم يفعلون دون التفوّه بكلمة. كانت المشبوهة الوحيدة. أغضبَها ذلك لكنها تمكَّنت من ضبط نفسها. لم يكن الاعتراض مُجدٍ، خاصة أنها لم تكن في بلدها ولم تكن وثائق الهوية التي بحوزتها قانونية تماماً. أعطى أمير ورقة نقدية

Tele: @Arab_Books

لمساعد السائق الذي دسَّها في جيب أحد رجال الدرك. عادت نابو إلى مقعدها. بعد أن تملّقوا السائق، ترك رجال الدرك الحافلة تنطلق. أطلق بعض المسافرين تعليقات بصوتٍ مرتفع وأنشد آخرون نشيد الاستقلال. تضامَن السائق ورافَقَ الغناء بالقرع على بوق الحافلة. عمَّ جو لطيف في الحافلة التي انطلقت منذ أمدٍ بعيد من مراكش والتي ستدخل، أخيراً، الدار البيضاء، دخولاً مظفّراً، حيث كان مسافرون آخرون ينتظرون للانطلاق إلى فاس وتازة ووجدة. كانت المحطة قذرة ومليئة بالسلع. لا مقاعد من أجل الانتظار. كان هناك مقهى يعرض بعض الأطباق وينشر رائحة زيت استُعمِل مرّات عديدة. كانت الحافلات تغادر مواقفها في سحاب من الدخان الأسود يعمّ الفضاء في الحال. قططٌ نحيفة ومتّسخة، كلب يتلقى ركلة من حين إلى آخر. متسولون يحومون في المكان. كان يجب توقع انتظار عدّة ساعات قبل أن تنطلق حافلة الغزاوي إلى فاس.

لم يكن أمير يستطيع المرور بالدار البيضاء دون زيارة الحاج حبيب، خاله الذي كان قد غادر فاس قبل الحرب وجمع ثروة من تجارة الجُملة. كان يحبّه كثيراً لأنه كان مرحاً وكريماً ومن دون أفكار مسبقة. كان الوحيد في العائلة الذي دافع عن المرأتين السوداوين اللتين أساء أخوه وزوجته البيضاء معاملتهما.

ترك أمير كريم ونابو في أحد المقاهي وقصد القيسارية الكبيرة حيث توجد متاجر الخال ومخازنه.

بمجرد أن رآه الخال، صاح فيه:

Tele: @Arab_Books

«أنت عائد من أفريقيا! هذا واضح، أنت سعيد مثل طفل يوم عاشوراء. كيف هو صغيري كريم؟ أنا أحبّه وأعشقه».

عندما علمَ أنه كان رفيق والده في السفر، طالب بذهاب الجميع إلى بيته، أمر مساعديه بالذهاب للبحث عنهم والمجيء بهم.

كان الحاج حبيب من أوائل المغاربة الذين اشتروا كاديلاك. كان قد جلبها من أميركا وانتظرها ستة أشهر. كانت لعبته وفخره. كان يضعها من حين إلى آخر تحت تصرّف الناس الذين يحبهم.

كان يعيش في فيلا رائعة في الحي السكني أنفا. كان كلّ شيء فيها ممتازاً. كان أمير سعيداً بأن يجد حمّاماً تحت تصرّفه. وكذلك نابو. كانا محتاجَين للاستحمام ونسيان وعثاء السفر الطويل في الحافلة.

سأل أمير عن وجهة القبلة كي يصلي. دلّه عليها الحاج حبيب. بعد العشاء، تحدَّثا عن وضعية البلد السياسية. كان حبيب يساعد الوطنيين. كان أمير يتساءل، لأنّ التظاهرات المتكرّرة والإضراب يضرّ تجارته. نصحه خاله بمساعدة الوطنيين وعدم إظهار الودّ للفرنسيين.

في صباح اليوم الموالي، أيقظ الحاج حبيب كريم، أجلسَه في الكاديلاك المكشوفة واصطحبه لتناول الفطور على الشاطئ. أحسَّ الولد بالابتهاج ووقف وشعره في الريح، وحيّا المارة كأنه الملك. أضحَكَ ذلك الحاج حبيب الذي وعده بهدية.

كان كريم يحبّ الأكل. لم يكن يعرف أن يحرم نفسه أو أن

Tele: @Arab_Books

يتوقف، لكنه بسبب ممارسته الكثير من الرياضة، لم يكن يسمن.
عند عودتهما، توقف الحاج حبيب أمام وراقة كانت أيضاً مكتبة وطلب رؤية الآلات الكاتبة. لم يكن عندهم سوى نموذج واحد، ماركة إيطالية، أوليفيتي. اشتراها، وأخذ في الوقت نفسه رزماً من الورق. ولمعرفته بالصعوبة التي يجدها كريم في الكتابة باليد، قال له: «بهذه الطريقة، ستكتب لي رسالة كلّ أسبوع. لكن قبل ذلك، سأرسل لك مَن يعلمك استعمالها».

بعد يومين من الاحتفال، تقرَّر أمير العودة إلى فاس. لا مجال لركوب الحافلة، المعروفة بأعطالها الكثيرة عندما لا تسقط في أحد الوديان، ولا القطار الذي لم تكن مواعيده مضبوطة. سيذهبون في شاحنة الحاج حبيب التي يجب أن تقوم بتسليم بضائع في مكناس وفاس.

جلس أمير ونابو في المقدمة، بجانب السائق. رتّب كريم ومساعد السائق في الخلف مكاناً مريحاً بين الأقمشة. أخرَجَ الولد آلته الكاتبة وأخذ يكتب كلّ ما يخطُرُ بذهنه. شعر كريم بالسعادة بسبب تلك الهدية، فكان ينتظر، بنفاد صبر، وصول معلّم كي يتعلّم استعمالها بشكل صحيح.

استمر السفر فترة طويلة بسبب تسليم البضائع. تناولوا الغذاء في مكناس. كان هناك العديد من الجنود لأنّ قرية الحاجب، على بُعد بضع كيلومترات، كانت تأوي ثكنة كبيرة وماخوراً كان السائق ومساعده يعرفانه جيداً.

كلّما اقتربوا من فاس، كلّما ضاقَ قلب أمير، أكثر فأكثر.

Tele: @Arab_Books

الفصل الرابع

ذلك الصباح، كان الهواء لطيفاً. قليل من الدخان يترك أثراً في بياض الأفق. كان الوقت الذي يشعل فيه الخزافون والخبازون أفرانهم.

من بعيد، كانت فاس تشبه زُبْديّة بيضاء تغطي زبديات أُخَر. كانت فاس تُبهر كلّ الذين يكتشفونها لأول مرة. الأسقف والأسطح تتواصل مع بعضها وترسم، وهي تتشابك فيما بينها، أرابِسْك يحفّز خيال الزوار الذين يأتون من بلدان بعيدة. كانت لها رائحتها، رائحتها الخاصة، انبثاق يصعب تعريفه يحمل ذكرى كلّ العطور التي صبّت على أرضها منذ سنة 808، تاريخ تأسيسها من طرف مولاي إدريس الأول، سليل الرسول محمد المباشر.

كانت روح المدينة تمتدّ أبعد من حدودها. كانت فاس تشعّ وتُسمع موسيقاها في جميع أرجاء البلد. كان ذلك محرجاً لسكان المدن المجاورة. كانت فاس مقبرة الزمن، منبع الروح الساحرة، ملاذ التائبين وديوان الشعراء الذين ينسجون من أبياتهم الأزقة المظلمة والضيقة. كانت أيضاً مركز التجارة

Tele: @Arab_Books

والتبادل والتحكيم وكلّ مزادات الذهب والحرير. كان كلّ شيء في مكانه. ذلك كان سرّ تلك المدينة. لليهود، الذهب وخيوط الذهب والمرتبات المحشوة بالصوف الخام. كان عندهم حيّهم، الملاح، في أطراف المدينة العتيقة. قليل من التعالي من قبل أهل فاس المسلمين، لكن لا رفض، وأيضاً لا عنف. لا زواج مختلط أيضاً. تتذكر كلّ المدينة الحادث الذي كاد يفسد تعايش الطائفتين، عندما أراد مراد، ابن أستاذ الدين العراقي، أن يتزوج بسارة ابنة الحاخام. وتسبَّبت الفضيحة في كثير من اللغط. اضطُرّ العاشقان إلى اختيار المنفى في أرض أجنبية، فرنسا أو بلجيكا. أعطيت التعليمات من الجهتين بنسيان الولدين اللذين أضلّهما الجنون. اعْتُبرا كأنهما لم يوجدا أبداً. بشكل يثير الفضول، قرّبت تلك الحادثة العائلتين بخلق روابط بينها. كانت الوالدتان تلتقيان خفية على أمل الحصول على بعض المعلومات حول ابنيهما. بعد مرور الوقت، وصلت سارة ومراد ذات يوم وهما يحملان رضيعهما دون أن يُعلما أحداً. كانت تلك الولادة هي سبب تصالح الولدين كلّ مع عائلته، لكن في العمق، بقي إحساس من الندم كان يعبِّر عن نفسه بآهات أو نظرات معترضة.

لكل حِرَفيّ حيُّه. كانت المدينة منظمة بطريقة عقلانية وعملية. هكذا، كان لأمير دكانه المخصّص للتوابل في الديوان. كان تجار الأقمشة في الجهة الأخرى من الشارع. أبعد قليلاً، كان بائعو الفواكه المجفّفة مجموعين حول ساحة مليئة بالعديد من الطيور.

Tele: @Arab_Books

رغم بعض القلق، كان أمير توّاقاً لأن يصل إلى بيته، ويوزِّع الهدايا على للّا فاطمة والأطفال. يجب أن تكون هدية زوجته في مستوى الصدمة التي ستتعرّض لها حتماً. كان قد اشترى لها، في قيصرية الصيغة بالدار البيضاء، أساور رقيقة من الذهب. كان يعلم أنها تحلم بها، لأنّ الأساور التي تملكها لم تعُد تساير الموضة. وكان مع ذلك يُدرك أنّ الهدية لن تمنع شيئاً. سيكون هناك صراع وأزمة وعدم توافق، صراخ وبكاء، لحظات توتر ثم سيعود كلّ شيء إلى وضعه الطبيعي.

اكتشف أنه لا يحمل معه مفاتيح **المصرية** حيث يجب أن تقيم نابو خلال الأيام القليلة القادمة. أدار رأسه ناحيتها وراقبها دون أن تشعر. لم يكن وجهها يعبِّر عن أي إحساس. كان قد لاحظ منذ سفره الأول إلى السنغال أنّ وجوه الأفارقة لا تسهل قراءتها، مسألة تعود بلا شك أو علم فراسة يستعصي عليه. كان كريم يحتضن الآلة الكاتبة. قرَّر أمير أن يطلب من السائق كَسْر قفل الباب.

دخلوا فاس في منتصف النهار. أنزلتهم الشاحنة في ساحة البطحاء، غير بعيد من مدخل ثانوي للبيت يؤدي مباشرة إلى **المصرية**. اضطرّوا للمرور عبر أزقة ضيقة، غير ممهّدة، مثل الزيات والغرسة الأندلسية. دفع السائق الباب بكتفه فانفتح. كان المنظر رائعاً، كانت الأشجار مزهرة. في **المصرية**، كان كلّ شيء منظماً. كأنّ أحداً قد هيأها. استقرت نابو، أعطاها أمير قفّة من المؤن، وطلب منها ألّا تخرج وألّا تفتح الباب لأحد. لم يكن هناك تيار. كان يجب إعادة توصيله. بعد أن أتعبها السفر،

سقطت نابو من النوم. تمدَّدت على السرير وغفَت في الحال. كان أمير مسحوراً بقدرتها على الاستغراق في النوم بتلك السهولة. كانت تنام وابتسامة خفيفة على شفتيها، وعيناها الكبيرتان شبه مغمضتين. حمل مساعد السائق حقائب كريم وأمير إلى الباب الرئيس للبيت. كانت للّا فاطمة قد أمرَت بأن تقف خادمة على السطح كي تُعلمها بمجرد أن ترى سيدها يقترب. في اليوم السابق، كان قد جاءها رسول يُخبرها بأن أمير لن يتأخر في الدخول إلى المدينة. سمع أمير وابنه زغاريد الترحيب، شمّا رائحة عطر الجنة. كشّر كريم، لم يكن يحبّ ذلك البخور الذي يُستعمل في الأفراح كما في الأتراح. لكن اليوم كان الفرح. كانت للّا فاطمة جميلة في قفطانها المطرَّز بخيوط الذهب. بالكاد تبرّجت، كانت تنتظر زوجها الذي سافر منذ شهرين بهدوء وسمو. قبَّل كريم يديها وارتمى في حضنها. أراها الآلة الكاتبة. اقتربت من زوجها، أمسكت يده اليمنى وقبّلتها. كذلك جرت العادة. وضع يده على رأسها كأنه يقوم بمباركتها. مالت نحوه وتظاهرت بتقبيل كتفه. رحَّب الأولاد بوالدهم. من بعيد، انحنت الباتول والخادمتان للتعبير عن متمنياتهن بالسعادة. كان العشاء جاهزاً. كانت للّا فاطمة قد دعَت بعض أفراد العائلة. كانت عودة السيد. يستحق ذاك احتفالاً. حضرت أخت الزوجة، سعدية، الشريرة دوماً والمستعدّة للنميمة والتي لم تستطع حبس شرها:

«وإذن الزنجيات، الكحلوشات، دائماً بنفس السواد، أو بالأحرى دائماً متسخات، بروائح عرقهن وأنفاسهن السيئة؟».

لم يُجب أمير. تابعت حول موضوع آخر:

Tele: @Arab_Books

«وكريم، هل ما زال يتعتع بنفس الدرجة؟».

بمجرد سماع ذلك الكلام، استدار أمير نحوها وأمرها بأن تصمت وإلّا طردها بنفسه. كانت لهجته حازمة. سبق أن طردها من بيته لبذاءة تصرّفاتها. فهمَت أنّ عليها أن تتوقف وتلين جانبها. أشارت لها للّا فاطمة بأن تهدأ. عندما كان يتملّكها الشر، كانت عيناها تصفران ويسيل قليل من اللعاب على شفتها السفلى التي تنفتح عن تكشيرة. كانت قبيحة المنظر. في الواقع كانت تثير الشفقة، امرأة جافة ومن دون أيّة مزايا.

لم يستطع كريم منع نفسه من ذكر نابو. قال بهذه الكلمات:

«جميلة، نااا.. بو!».

تساءل الجميع عمّن تكون نابو. أجاب أمير بأنها شخص التقيا به وتحفَّظ عن ذكر المزيد.

لم يغلق الموضوع. في وقت متأخر من الليل، عندما كان في السرير مع زوجته، طرحت عليه السؤال بهدوء:

«هل أتيت بجارية من السنغال؟ لدينا خادمتان، ثلاثة مع الطباخة، ستكون زائدة.

- لا، ليست جارية، أحضرتُ امرأة حرة. بحسب تعاليم رسولنا محمد، صلى الله عليه وسلم، عقدتُ زواج متعة مع امرأة شابة اسمها نابو. اسم جميل، ألا تجدينه كذلك؟

- ماذا عساي أقول، زوجي، زوجي العزيز؟ الله منحكم، أنتم الرجال، إمكانية الزواج بأربعة نساء. لن أقف ضدّ مشيئة الله. لا أستطيع أن أغضب وأن أكسر الأواني وأتسبَّب في

Tele: @Arab_Books

فضيحة أو أن أبكي وأذهب عند والدي، لكني ملكك، جدّ مرتبطة بك، ولا أريد أن أخسرك. سأفعل مثل جميع النساء اللواتي اضطررن للعيش مع ضرائر. بشرط ألّا تقلّل من احترامي. أنا زوجتك الشرعية، من حقي أن أحصل على الاحترام التامّ وألّا يأتي أحد ليُجري مقارنات بيني وبينها. لديّ كرامتي. لكني مسلمة صالحة. أطيع الله وأنتمي إليك. كلّ اللواتي ثرن فقدنَ كلّ شيء، فقدن بيوتهن وأطفالهن وسعادتهن. لم أذهب إلى المدرسة، لكنّي أحفظ عن ظهر قلب بعض آيات القرآن وأتبع تعاليمه وتشريعاته. سأدعو الله كي يحفظنا من تلك الأجنبية ويحمي أسرتنا. أتمنى أن تبقى أجنبية، أليس كذلك؟».

كان أمير مندهشاً من ذلك الكلام. كأنها أعدَّته منذ مدة طويلة. ربما أخبرها حدسها بذلك. لم يبقَ أمام أمير سوى أن يحضر نابو إلى البيت.

قالت له للّا فاطمة قبل أن تستسلم له:

«أتصوّرُ أنك تركتها في **المصرية**؟

- أجل، خمّنت وفهمت كل شيء. أنا ممتنٌّ لكِ جداً. فليحفظك الله وليجعل الصحة قدر العمر».

كانت تلك عبارة تُقال عندما يعاني أحدٌ ما من مشاكل في صحته: «الله يجعل الصحة قدر العمر» كرّرت زوجته بعده.

أمام ذلك الموقف الهادئ والذكي، أسقط في يده. مستحيل أن يحصل على الانتصاب. لأوّل مرة منذ زواجهما، أدخلت للّا فاطمة عضو زوجها في فمها. هو أيضاً لم يكن قد قبَّل فرجها أبداً. كانت النساء في الحمام يقُلن فيما بينهن إنها تصرفات

Tele: @Arab_Books

الأوغاد والعاهرات. رغم ذلك، ظلّ عضوه رخواً، من دون رغبة، من دون متعة. احتفظت به فترة في كفها الأيمن، حاولت إيقاظه ثم تركته. قبلها وتمنى لها ليلة سعيدة. في اليوم الموالي، كان لا يزال متعجباً من جرأة الأمس. ماذا جرى خلال شهور غيابه حتى تجرؤ للّا فاطمة على فعل ما لا تستطيع أية برجوازية فاسية تحمّله؟ آه، الحمّام! المكان الذي تنحلّ فيه عقدة الألسن، حيث تساعد الحرارة الخانقة النساء على التحدّث بحرية، من دون رقابة. هناك سمرا، وهي امرأة مطلّقة تحوّلت إلى خاطبة. كانت تقدِّم نصائح للشابات العازبات:

«إذا كنت ترغبين في الحفاظ على زوجك، فثمة شيئان أساسيان: الجنس والطعام. يجب أن تجعليه مرتبطاً بك من خلال هذين المجالين. ليس عليك أن تمنحيه كلّ شيء مرة واحدة. يجب أن تسيلي لعابه وتجعليه يعاني وينتظر. كوني غامضة، ولا تقولي كل شيء. شيء آخر، توقّفن عن الاعتقاد بأنّ النساء السود يتمتعن بقدرة جنسية أكبر من قدرتنا. هنّ مثلنا، غير أنهن فهمن أنه يجب أن يتحرّرن تماماً وألّا يظلّ هناك شيء حرام أو ممنوع. هذا ما أوصي به: يجب أن تتحرّرن! استعملن أجسادكن كي تُثرن جنون أزواجكن. لا تنسين، أنهم ضعاف ولا يتمتعون بكثير من الشجاعة. داعبن كلّ الجسد، قبِّلن كلّ الجسد، تحرَّرن، هكذا ستضاعفن متعتهم ومتعتكن. أمّا بالنسبة إلى الطعام، يجب أن تحضِّرن بأنفسكن أطباقاً صغيرة لا تحضّرها الطباخة عادة. أن تطعموهم وتقبلوهم، أن تلعقن كلّ الجسد. هذا هو السرّ، أخواتي!».

Tele: @Arab_Books

كان يتبع ذلك حديث عن أعضاء الرجال التناسلية، حجمها وطولها وقدرتها. حول ذلك الأمر كانت سمرا حاسمة:

«ليست الأعضاء كبيرة الحجم هي التي تمنح متعة أكبر. هذه خرافةٌ، وتوقَّفْنَ عن الاعتقاد بأنّ الرجال السود أكثر فحولة من البيض. كلّ شيء يوجد في الرأس، وليس في السروال. وأنا واعية بما أقول». قالت امرأة شابة: «الزنجيات لا يعرفن الحرام، والرجال يحبون ذلك. بسبب ذلك، تختن البعض منهن». صحَّحت سمرا: «لا، بل هن أكثر حرية، والدّين لا يُقيّدهنّ. كما أنّ تقاليدهم مختلفة عن تقاليدنا». سألت أخرى: «إذاً لماذا يذهب رجالنا إلى أفريقيا؟ يقولون إنهم يمارسون التجارة، أنا أشكّ أنهم يعربدون بين أفخاذ الزنجيات، اللواتي يسرقن الرجال، ويسرقن صحتهم!» كانت حانقة لأنّ زوجها لم يكن فقط قد تركها، لكنه أيضاً هجرها وذهب للعيش في غينيا.

كانت للّا فاطمة مضطربة وجدّ مهتمة بما تقوله سمرا. بعد ذهابها الأخير إلى الحمام، رجعت إلى بيتها وهي تقول: «الآن، يجب أن أتعلّم الحرية! سيكون ذلك صعباً!».

استغرق أمير وقتاً قبل أن يأتي بنابو إلى البيت. لا يجب أن يتصرّف بخرق، لا مجال للخطأ، أية زوجة كانت ستغتاظ لأدنى من ذلك. ظلّ كلام للّا فاطمة غامضاً بالنسبة إليه، لكن التقاليد والعادات وبعض الامتيازات التي يمنحها الإسلام للرجال كانت تسهِّل مهمة أمير الذي كان يسعى إلى إيجاد حلّ لوضعية معقدة: العيش مع امرأتين تحت سقف واحد ومن دون أن يظهر أيّ

Tele: @Arab_Books

تعقيد ولا مضايقة من أي منهما. كان يعرف أنه يرجو المستحيل. مشكلته كانت بسيطة: كان يريد أن ينال إعجاب الجميع، وألّا يُغضب للّا فاطمة مع منح نابو الإحساس بأنها مُرحَّب بها في البيت، في حين أنّ كل شيء يمكن أن ينقلب رأساً على عقب بين عشية وضحاها ويجعل الحياة اليومية جحيماً. يستحيل الاعتقاد أنه سيتفادى الصراعات. كان يكره الصراعات، وطيلة حياته حاول تفاديها، لدرجة أنه خسر على جميع الأصعدة. ذلك كان طبعه. ذات يوم، قال له أخوه الأكبر: «أنت جبان، لهذا لن تجمع يوماً ثروة. أنت تعتقد أنّ الطيبة تحلّ المشاكل، لكن لا أبداً: الطيبة، خدعة تجعلك غبياً ويستغل الآخرون ذلك كي يأخذوا منك كلّ شيء. إذن، من فضلك، كفى سذاجة، الحياة كفاح، وليست نزهة في الربيع، حيث كلّ شيء على ما يرام والكل في توادّ. استيقظْ. انظرْ كيف أعمل. فإنْ لم آخُذ حذري، سيجرِّدني عمّالي من كلّ شيء. . . لا يتعلق الأمر بأن تصبح شريراً، هذا ليس ممكناً، لكن على الأقل أن تكون واقعياً: إذا تردّدت، إذا أظهرت قليلاً من التفهّم، ستضيع، لأنّ الآخرين سيعتبرونك ضعيفاً، وهذا الشيء لا يُعجب النساء، البتة!».

كان أمير محبّاً للمرح. كان يعطي الأولوية للمتعة والطعام الجيد. في الصباح كان يظلّ في السرير بينما تدلِّك زوجته ساقيه. كان يهمل تجارته، ويعتمد على الآخرين لتسييرها. كان سعيداً ويعرف أنه غير قادر على تغيير طبعه وعاداته القديمة. كان يعرف أنّ أخاه لن يتركه يسقط. ربما أخذتُ دروساً مسائية كي أتعلم

Tele: @Arab_Books

كيف أكون شريراً وصعب المراس وقوياً، وفي النهاية سأكون تعيساً جداً.

استغرق الجحيم وقتاً كي يقيم تماماً في البيت الكبير. في البداية، خاصة في اليوم الأول، عاملت للّا فاطمة نابو مثل ضيفة ستغادر قريباً. استقبلتها بكلمات ودودة، لكنها كانت تلمِّح لضرورة أن تغادر قريباً:

«كم من الوقت تظلين هنا؟ بضعة أيام، أسبوعاً أو اثنين؟».

كانت نابو تتفادى الإجابة، ثم تضع عبارة من نوع: «إن شاء الله!»، الشيء الذي لم يكن يقول شيئاً كثيراً في تلك الحالة. كانت وقورة ومتماسكة. كانت تسيطر على نفسها ولا تتضايق أبداً.

منحها أمير غرفة الضيوف، التي كانت مريحة وتتوفر على حمامها الخاص. استغلت للّا فاطمة غياب زوجها لبضعة أيام، فأرغمت نابو على نقل أغراضها. جعلتها تنام في ركن من المطبخ، وأوضحت الأمور، بصوت هادئ، لكن حازم. أحسَّت نابو في الحال بأن تلك المرأة كانت قوية وأنها لم تكن في حجم مقاومتها. اكتشفت أنها ضعيفة ومجروحة، وأحسَّت أنها لم تكن تتقن شيئاً:

«طيب، مكانك بين الخدم. أنت هنا من أجل العمل، من أجل التنظيف والغسيل والكي، وإطاعة الأوامر. ستتناولين طعامك مع المرأتين الأخريين، البدويتين اللتين تهتمان بأشغال البيت. أما بالنسبة إلى الباتول، الطباخة، فلن تقتربي منها. على

Tele: @Arab_Books

كلّ، أنتِ لن تلمسي الطعام. أعرف، للسود رائحة خاصة. أعرفها، تلك الرائحة. أنت ستذهبين إلى الحمام كل يوم خميس. سيكون يوم خروجك الوحيد. لا مجال للذهاب للنزهة ولا للتحدّث مع أناس المدينة. هنا، أنا التي أحكم. أعطي أوامر للجميع بما فيهم زوجي. إذن، فليلزم كلّ واحد وواحدة مكانه. لا ألفة، لا اختلاط، واعلمي شيئاً محدّداً: أنت لست من العائلة، أنت جارية أحضَرَها زوج ساذج في متاعه. شيء آخر: عندما تخاطبينني، ابقي على مسافة بعيدة مني ولا ترفعي عينيك».

بعد لحظة، بينما بقيت نابو محنية الرأس، قالت لها الزوجة البيضاء:

«هل أنا واضحة؟

- أجل سيدتي.

- لا، لستُ سيدتي، أنا للّا، وبالتحديد للاّكِ، تلك التي تملك حقّ التصرف في حياتك وموتك.

- أجل، للّا».

شرعَت في العمل وحبَست نفسها عن البكاء. كانت تقول لنفسها إنّ رجلها، الذي لم يعُد رجلها، لن يتركها أبداً في تلك الظروف. ربما كانت تتوهّم. عندما عاد أمير، أخبَرَته زوجته بما فعلته. لم يعلّق، وأسوء من ذلك لم يزُر نابو. لكنها لم ترَ في ذلك أيّ جبن، فكَّرت أنه تكتيك. وحدَه كريم جاء لرؤيتها. حساسيته المفرطة وطيبته الفطرية وحدسه أتاح له اختيار الكلمات

Tele: @Arab_Books

من أجل مواساتها. وعدَها بأن يُخرجها من ذلك المطبخ الأسود:

«كريم يحبك جيداً؛ كريم لا يمكن أن يتركك في السجن...».

لم يكن من حقّ أحدٍ تأنيب كريم. طلبَت منه والدته فقط ألّا يضيع وقته وأن يذهب لمتابعة دروسه على الآلة الكاتبة. أطاع وقال لها: «ماموش، أحبك».

كان اسم إحدى الخادمتين زهرة والأخرى طام. كانتا من القرية نفسها. عهَد بهما أبواهما لتلك العائلة. مرة في السنة، كانا يزوران أمير الذي يمنحهما بعض المال. لم تكونا تعرفان القراءة ولا الكتابة وكان عليهما العمل من دون يوم راحة. كانت تأكلان البقايا ولا تستطيعان رفع صوتيهما. لم تعرف نابو كيف تتعامل معهما. كنّ يتبادلن إشارات ونظرات وبعض الكلمات العربية التي تعلَّمتها نابو بالقرب من أمير. لم تكن في عينيهما أية علامة تدلّ على التمرد. مستسلمتان، خاضعتان، كانتا تعيشان في ذلك البيت الكبير حيث كان سيداه يصلّيان ويصومان رمضان ويؤديان الصدقة ويذهبان للحج دون أن يتصوّرا أن تصرفهما فظيع ومنافٍ لتعاليم الإسلام. لكن الأمر كان على ذلك النحو. في ذلك الوقت كان الجميع يأتون بخادمات من البادية ويعاملونهن مثل الجواري، دون أن يكونوا على وعي بذلك.

وحده كريم كان يتدخّل من حين إلى آخر، بخاصة عندما كانت الباتول تحضِّر من أجله تلك الأطباق الصغيرة التي تجعله

Tele: @Arab_Books

سعيداً جداً. بوسائل تعبيره، كان يعبِّر عن أسفه. ذات يوم حاول والده تبرير ذلك الوضع:

«أنت ترى، إنّ هؤلاء الناس وُلدوا في البادية. عند حدوث جفاف شديد أو محاصيل سيئة، يأتون إلى المدينة بحثاً عن أي عمل. إذاً نحن نتبادل الخدمات. فمن جهة، زهرة وطام تقومان بأعباء البيت، تغسلان ثيابك وتكويانها ومن جهة أخرى نحن نأويهما. ونقدِّم لهما الطعام، ومرة في السنة يتلقى أبواهما نقوداً. الكلّ رابح. إذا طردناهما من البيت، ستكونان أكثر تعاسة. العالم هكذا، خلق الله الناس من جميع الأنواع، كباراً وصغاراً، طيبين وأشراراً، فقراء وأغنياء.. . نحن البشر، لا نستطيع تغيير شيء. إنها الحياة».

ذات يوم، بدا كريم متضايقاً. كان يقوم بإشارات كبيرة ويشير إلى المكان الذي ينامان فيه. فهمَ الأب غضبه وأقرّه.

«من الآن فصاعداً، ستأكلان نفس أكلنا، وليس البقايا. سأطلب من الباتول أن تطبخ من أجل الجميع وأن يقدّم لهما الطعام في الوقت نفسه الذي يقدّم فيه لنا. البقايا ستخصّص للقطط، قططنا وقطط الجيران».

لم يفعل شيئاً من ذلك. مجرَّد كلمات لتهدئة ملاك ساخط.

أما بالنسبة إلى مصير نابو، فقد فهِمَ أمير أنّ عليه أن يخطِّط ويتصرّف عبر مراحل. لا عجلة ولا ارتجال ولا غضب. كان يحسّ برغبة أشدّ فأشد في رؤية نابو. عندما كان يفكر فيها، كان قلبه يدقّ بسرعة، كان يحسّ بالإثارة والاضطراب في آن. كلّ

Tele: @Arab_Books

ذلك كان جديداً بالنسبة إليه. عندما كان ينام مع زوجته البيضاء، كان جسد نابو هو الذي يتخيّله. كان مهووساً بها، يحلم بها طيلة الوقت. أدركت للّا فاطمة ذلك. ذات مساء، دفعته بعنف حتى سقط من السرير. كان غضبها وحشياً، لكن كان عليهما الحفاظ على المظاهر. تمنّعت عليه خلال خمسة عشر ليلة. كان أمير تعيساً. لم يكن يستطيع الوصول إلى نابو، لأنها تنام مع باقي الخادمات. لا مجال لدخول المطبخ، المكان الذي لم يكن يدخله الرجل أبداً. ماذا سيفعل هناك؟ إلّا إذا كان يريد الاعتداء على النساء المسكينات خلال نومهن. يجب إيجاد حيلة كي يكون لنابو مكان خاص بها، ليس غرفة الضيوف بالضرورة، لكن على الأقل غرفة حيث ستكون بسلام وحيث يمكن أن يوافيها.

التفاوض مع للّا فاطمة؟ صعب. وضعها أمام الأمر الواقع؟ أمر غير بسيط. ذهب لطلب المشورة عند مولاي أحمد الذي كان له مكتب في جامعة القرويين.

كان رأيه يعتدّ به ولا أحد يشكّ في علمه ومهاراته:

«الزواج.

- زواج متعة؟

- لا، أنتَ لست في سفر. هي في بيتك، وبحسَب ما حكيت لي فلن تعود إلى أفريقيا. يجب أن تقنّن وضعك من وجهة نظر دينية. فمن غير الوارد أن تجعل منها جارية جنس أو خادمة. كانت زوجتك خلال أشهر، أحضرتها: تدين لها بالاحترام، عليك واجبات تجاهها ويجب أن تعطيها حقوقها. الله رحيم، لكن علينا أن نكون عادلين.

Tele: @Arab_Books

- وللّا فاطمة؟

- منذ متى كانت النساء هنّ مَن يقرِّرن في مجتمعنا؟ هي مسألة يجب أن تسويها بسرعة. لا تظلَّ في الحرام، وفي الخطيئة. الله يُحلّ للرجل بأن تكون له حتى أربع زوجات شرط، وأكرّر، شرط أن يعاملهن بعدل، ب-ع-د-ل. . . هل تستطيع ذلك؟

- سأحاول».

مبدئياً، تعدّد الزوجات كما هو مشرع، وكما يجب أن يمارَس شيء مستحيل. لا أحد يستطيع أن يكنّ المشاعر نفسها، بالضبط، لأربع نسوة. الإنصاف المعني هو نوعٌ من المنع. بما أنّ لا أحد يستطيع أن يعدل بين أربعة نسوة، يجب الاكتفاء بواحدة. بهذه الطريقة ستحترم الشريعة الإسلامية، لكن كل الرجال يتصرفون عكس ذلك ويدعون الله أن يغفر لهم!

عند مغادرة القرويين، كان أمير مرتاحاً ومصمِّماً على الزواج بنابو. بقي فقط كيف يعلن ذلك للّا فاطمة.

دخل إلى مسجد مولاي إدريس، توضّأ، وبعد صلاة الظهر، اتكأ على أحد الأعمدة، وثبت بصره على إحدى الثريات التي كانت مصابيحها ميتة. نام وحلم أنه يمشي وحيداً في الصحراء إلى أن أنقذه أحد رجال القوافل وأخذه إلى أحد المرافئ. صعد حينئذٍ إلى باخرة مهجورة، من دون بحارة ولا ربان، لكنها كانت تبحر في الأمواج نحو أفق، أخضر حيناً وأحمر، حيناً آخر، بسبب النيران التي ترتفع في السماء. كانت تترك خلفها دخاناً أسود يشكل صُوَراً غامضة ومثيرة للقلق. لم يكن يجرؤ على

النهوض، ترك نفسه تهدهده الظلال. كان يلج عالماً غامضاً. كان مقتنعاً أن التهديدات ستأتي مع الليل الذي يقترب في حين بدأت السماء تمتزج بالأفق غير الواضح.

لم يكن نومه عميقاً، كان يسمع حوله صوت الحرفيين وبائعي الماء، غناء العصافير الضائعة في أروقة ذلك المسجد الكبير.

هزّته يد. استيقظ واعتذر، كان وقت صلاة العصر. فعل مثل الآخرين، نهض وتبع الإمام الذي كان ه صوت جميل.

عند دخوله إلى البيت، أحسّ برغبة في أن يقصّ حلمه على للّا فاطمة، لكنه لاحظ أنها لم تكن في مزاج يسمح لها بالاستماع وأنها لم تكن مستعدة لمعرفة القرار الذي أخذه. في الغالب، عندما كانت تتملّكه الشكوك أو يعتريه القلق، كان يذهب لرؤية كريم الذي كان يملك دائماً القدرة على تهدئته. كان يبتسم طيلة الوقت تقريباً، كان يهوّن من كلّ شيء، يرفع سبابته نحو السماء ويقول: الله! كان ذلك كافياً لتهدئة الأعصاب وإبعاد المضايقات.

لمح نابو. كانت تقوم بأشغال البيت، نظر إليها ثم أغلق عينيه وتذكّر المرة الأولى التي استسلمت له فيها. كان قد اتّخذ قرار أن يجعلها، رسمياً وشرعياً، زوجته الثانية، ولا شيء سيجعله يتراجع، ولا حتى التهديدات التي يمكن أن تطلقها للّا فاطمة. انتظر الجمعة، مباشرة بعد خروجه من الحمام، جمع أبناءه وأعلنَ لهم الخبر دون أن يقدِّم لهم تفسيرات. وحده كريم صفّق. أشار إليه أخوه الأكبر بالتوقّف. لم يجرِ نقاش.

Tele: @Arab_Books

بقي الأصعب، أن يعلن ذلك لزوجته البيضاء. لم يحتَج إلى فعل ذلك. هي التي ربما أخبرها أحد الأبناء أخذت زمام الأمور:

«أدخلتَ التعاسة والخطيئة والاختلاف إلى هذا البيت. تريد أن تتزوج خادمة، زنجية يشي لون بشرتها بسواد روحها، لكن هل تملك بالفعل روحاً؟ أتساءل عن ذلك. وأخيراً، أنت مُحبِط. اصنع ما بدا لك، أنا، سأعتني بتربية أبنائي، سأحتفظ بهم بعيداً عن هذا الشيء الشرير والكريه الرائحة. لستَ أوّل ولا آخر مَن يعرِّض للخطر أسرة بأكملها بسبب زنجية متحالفة مع الشيطان. الله أكبر!».

الأشياء الأساسية كانت قد قيلت. لم يجِب أمير، غيَّر جلبابه وانصرف. كان يودّ إعلان الخبر لنابو، لكن الوقت لم يكن مناسباً. كان محتاجاً إلى السير في شوارع فاس والتفكير في تنظيم حياته الجديدة. في زقاق ضيق، صدمه حمار محمَّل. كاد يسقط، لكن يداً امتدت إليه وأعادت إليه توازنه. كان عليه أن يناضل ضدّ ضعف طبعه، أن يغلظ القلب والنبرة، أن يصبح صعب المراس ومن دون رحمة ومن دون ندم. تساءل كيف يمكنه أن يتوصّل إلى ذلك. كيف يفعل الآخرون؟ تذكَّر نصائح مولاي أحمد، وهزّ رأسه. أجل، أنا رجل، أنا مسلم صالح، وكرجل مسلم، يحقّ لي الزواج بامرأة ثانية. سأكتفي بهذا. أكنّ مشاعر لنابو وهذه هي المرة الأولى التي أحسّ فيها بشيء كهذا، أنا مغرم. مع للّا فاطمة، كان كل شيء قد تمّ تنظيمه والتخطيط له، لا مفاجآت، وخاصة لا نزوات. أعرف، لا يجب أن أتحدّث

Tele: @Arab_Books

عن المشاعر والحب، سأكون موضوع سخرية. هي أشياء لا تُقال. لم أسمع أبداً أحدَ والديَّ يقول للآخر «أحبك»، لم أرهما أبداً يتعانقان، أو يقومان بلمسات لطيفة. كانا يتحابّان على الأرجح، لكن بتكتم، في خصوصية تامة. وأنا، أدّعي بأني مغرم! لا أحد أبوح له. مغرم، هذا لا يُقال، يتحدث الرجال عن الجسد ونادراً عن الأحاسيس.

أحسّ برغبة في أن يعلن ذلك في ساحة أشابين، لكنه تراجع مخافة ردّة فعل الناس. كان أمير شخصاً محترماً. كان رمزاً للنظام واحترام العقيدة. إذا صرخ بأنه مغرم، سيقول الناس إنه فقَدَ عقله.

عندما عاد إلى البيت عرف أنّ للّا فاطمة قد ذهبت إلى بيت أبويها. لا مجال للذهاب لإعادتها. جرَت العادة أن يُعيد الأب ابنته إلى بيت الزوجية. كذلك كان، بعد بضعة أيام. وصلت شاحبة ومتعبة، كانت تمشي بصعوبة، انسحبت في الحال إلى غرفتها وأغلقت عليها الباب. كان ذلك كلاسيكياً. كان الصمت والدموع أفضل ملاذ. سينتهي بها الأمر إلى القبول، استسلمت للنسق الذي أحدَثه الأسلاف والإسلام والزمن، خاصة، في تلك المدينة التي لم تكن تتحرك، والتي ظلّت مجمدة في القرن التاسع عشر.

عاد أمير لرؤية مولاي أحمد. كان محتاجاً إلى دعمه ونصائحه. تعجَّب هذا الأخير من قلة صرامته:

«كن رجلاً، كن قوياً ولا تنخدع بحيل النساء. «إنّ كيدهن

Tele: @Arab_Books

عظيم» كما يقول القرآن. إذن، افعل ما عليك فعله، ولا تَعُد مرة أخرى وأنت في هذه الحالة المتأرجحة والمتردّدة، في حين أنك محظوظ بامتلاك الإمكانات الجسدية والمادية الكافية لإرضاء أربع نسوة. لا تتردد. تزوج السوداء وعش بسلام».

عند عودته إلى البيت، جمع أمير أبناءه الأربعة من جديد، وعرض عليهم مشروعه بالتفصيل:

«كما أعلنتُ لكم من قبل، قرّرتُ الزواج بنابو، المرأة الشابة التي أتت برفقتي من أفريقيا. هي امرأة صالحة، تمنحني السعادة. هذا الزواج لم يقرَّر في أيّ حال من الأحوال للإساءة إلى والدتكم. ديننا هكذا، أنا لا أستطيع أن أعيش في الخطيئة. سبق أن عقدتُ زواجاً مؤقتاً مع هذه المرأة. اليوم، هي تعيش عندنا وسأجعل منها زوجتي الثانية، بحسب تشريع وسنة سيدنا محمد، عليه الصلاة والسلام. حرصتُ على إعلامكم. بالنسبة إلى الباقي لا شيء سيتغير».

صمت. لا كلمة، لا ردّة فعل. نهضوا، الواحد تلو الآخر. وحده كريم أتى ليُقبّل يد والده.

ذهب الثلاثة الآخرون عند والدتهم ليعبِّروا لها عن مساندتهم. تناول محمد الكلمة باسم الآخرين:

«أيتها الوالدة، اعلمي أننا نحبك وأنّ بإمكانك الاعتماد علينا. إذا كان والدنا قد ارتكب خطأ، فالله سيعيده إلى الطريق المستقيم. هذه المرأة الجديدة يجب أن تظلّ بعيداً عن البيت. نحن متّحدون ومتضامنون معك».

Tele: @Arab_Books

كان أمير يشكّ في أنّ أبناءه سيتصرفون بتلك الطريقة، رغم غياب ردّ فعلهم أمامه.

الجمعة الموالية، وصل اثنان من العدول إلى البيت حيث كان أمير ينتظرهما، وهو يرتدي ثوباً أبيضَ. كان عليهما أن يسجِّلا على العقد حيث تظهر للّا فاطمة الزواج الجديد مع نابو، التي ولدت في تييس، بالسنغال. كان الاحتفال قصيراً. نابو، التي ارتدت هي أيضاً ثياباً بيضاء، وضعت توقيعها على العقد وتسلّمت مَهْراً مع بعض الأقمشة وبعض الحلي الذهبية. تمّت تلاوة دعاء. كان الصمت يعمّ الفناء حيث كان تدفّق ماء نافورة صغيرة يُحدث صوت عصفور.

كانت ليلة العرس هادئة. كانت توترات الأسابيع الأخيرة قد أتعبتهما ولم يكن أيّ منهما في حالة تسمح له بممارسة الحب كما كان يحدث في «زواج المتعة». ناما متعانقين. بكت نابو قليلاً، ربما من الفرح، وربما من التعب. في الصباح الباكر شعر أمير برغبة قوية. لم يكن انتصابه ليترك نابو لا مبالية فالتحما أخيراً.

في فاس، كانت توجد مجموعتان من الناس: أهل فاس، الذين جاء أسلافهم من شبه الجزيرة العربية أو من الأندلس، والآخرون. هؤلاء لم يكونوا موجودين. لم يكونوا يلقون أدنى اعتبار. لم تكن لنابو أية فرصة في هذه المدينة وأقل منها في البيت الكبير. ذات يوم، أحسّ أمير بوعكة. انتاب نابو الذعر:

ماذا سيكون مصيرها إذا حدث، لسوء الحظ، أن أصابه مكروه؟ جعلها ذلك تفكر. سيتمّ رميها بلا شك إلى الشارع من دون أي شيء، ولا حتى متاعها الخاص. أحسّت بانقباض في القلب ودعت في نفسها أن يحفظ الله زوجها ويمنحه العافية.

التقت مُدلّكةً سوداء في الحمام. كانت قد جاءت من غينيا، ووجدت نفسها في الشارع غداة موت سيدها. كان يحميها، لكنه لم يتزوّجها. خسرت تلك المرأة كل شيء. لم تعُد تعرف اسمها ولا كيف وصلت إلى تلك المدينة ولا كيف حصلت على العمل المنهك والزهيد الأجر. كانت المدلّكة تُهمهمُ وكانت نابو تفهم الأساسي عامة. لم يكن من قانون سارٍ يدافع عن أولئك الناس. رسمياً لم يعُد هناك رقّ، لكنه كان يمارس، من دون قلق. كان ذلك في حكم الأشياء.

كانت المدلكة تنام في غرفة صغيرة، في ردهة الحمام. كان البعض يمنحها الطعام من حين إلى آخر. عندما لم تكن تشتغل، كانت تتسول في مدخل ضريح مولاي إدريس، وليّ وسيد المدينة. كانت نابو تفهم قصّتها وكانت تمنحها بعض المال كلّما استطاعت ذلك.

وحتى وهي متزوجة، لم يكن لنابو أيّ ضمان، لا أمان بالنسبة إلى مستقبلها. لم تكن تجرؤ على التحدّث مع أمير، الذي كان يتوفر على فن تهوين كلّ شيء. قرَّرت أن تمنحه طفلاً. قامت بحساباتها وتوصلت إلى تحقيق مراميها. بعد ثلاثة أشهر من زواجهما، كانت نابو حاملاً.

كان لذلك الخبر وقع الصاعقة على للّا فاطمة التي تشلل

Tele: @Arab_Books

نصفها الأيسر. بعد أن أصبحت مشوّهة ولا تستطيع أن تنهض أو تصرخ، حبست نفسها في غرفتها ورفضت، مرة أخرى، استقبال زوجها. وحدهم الأطفال كانوا يستطيعون رؤيتها. كان كريم، الذي تأثّر كثيراً بحالتها، يبذل قصارى جهده كي يُخبرها بحبه ويُضحكها. كانت بعيدة عن كل شيء، أسيرة قلقها، تشعر بالمهانة، وطفقت تفقد الوزن وترفض تناول الدواء. كان والداها يزورانها من حين إلى آخر، خاصة ليقولا لها إنه من مصلحتها أن تقبل الواقع وأن تتعايش مع الزوجة الجديدة. كانت تبكي وتكرِّر:

«أبداً، أبداً لن أتحمل أن تحلّ محلي زنجية، أجنبية نتنة لا تعرف حتى أن تتكلم. لقد سحرت لزوجي، لقد عملت عملاً لزوجي وأنا أيضاً ضحية لها. هم أناس متوحشون يكرهوننا لأن الله جعلنا بيضاً ومحبّين للنظافة وهم أوساخ الإنسانية».

طلب منها والدها أن تعود إلى رشدها وألّا تنطق تلك الأشياء التي لا معنى لها والتي لا تليق بمسلمة. كان يتلو عليها آيات من القرآن من أجل تهدئتها، لكن كراهيتها وحقدها كانا أقوى من كلّ شيء.

أصبح البيت أبعد ما يكون عن الملاذ الآمن. أخذ أمير يتناول طعامه مع نابو؛ كان الأولاد يأكلون لوحدهم في المطبخ، ولم تكن والدتهم تغادر غرفتها. لم تعد هناك حياة عائلية. كان كريم هو أكثر مَن عانى من ذلك. انتكَسَ قليلاً ولم تعُد الآلة الكاتبة تمتعه. ظلّت الخادمات عاجزات ولم يعُد من شيء يسير مثل قبل. بسبب الحذر، لم تستطع نابو أخذ أية

Tele: @Arab_Books

مبادرة. كانت صغرى الخادمتين تحت إمرتها. أخذت ترافقها مرة في الأسبوع إلى الحمام. كانت هناك، دوماً، المُدلّكة التي تهتم بها بعناية.

باءت كلّ محاولات أمير للتصالح مع للّا فاطمة بالفشل. نصحه مولاي أحمد بالانتظار. ستستيقظ ذات يوم وستنسى أفكارها السيئة.

كان أمير ينظم كل سنة أمسية صوفية كبيرة، عشية السابع والعشرين من رمضان. كان يدعو كل العائلة وبعض الأصدقاء والطلبة ومرتلي القرآن وبعض الصوفية. كان الأطفال يحبون تلك الليلة الطويلة حيث يصعدون إلى السطح ويراقبون النجوم مقتنعين بأنّ لكلّ واحد نجمته التي تلمع أكثر من نجوم الآخرين.

لم يكن باستطاعة للّا فاطمة أن تبقى حبيسة غرفتها وألّا تشارك في الاحتفال مثلما تفعل كلّ سنة. قرّرت أن تخرج وتستقبل المدعوين، كما كانت تفعل عادة. كانت قد استعادت مظهرها الطبيعي بعد أن خفّ شللها تقريباً. هل عاد السلم؟ ظهرت بجانب زوجها. وقفت نابو بعيداً شيئاً ما، حبلى ومبتسمة. في لحظة ما توجّه الجميع نحو ضريح مولاي إدريس من أجل صلاة الفجر. كما يحدث خلال أيام الفرح، كان الأطفال يلعبون ولا ينامون. تقدم الرجال ومشت خلفهم النساء. دخل الموكب إلى الضريح. وقفت النساء في الخلف وتقدم الرجال إلى الأمام وأقيمت الصلاة بصوت مرتفع. عند شروق الشمس غادر الجميع المسجد. رافق أمير للّا فاطمة إلى غرفتها.

Tele: @Arab_Books

ناما معاً دون أن يتلامسا. على أية حال، كان ذلك ممنوعاً خلال أيام الصوم، لكن شيئاً ما كان قد هدأ بين الزوجين.

رغم أنها بدت أكثر هدوءاً، إلّا أنها لم تكُن مستعدة للتعايش مع نابو. بضعة أسابيع بعد رمضان، أحضرت رجلاً أشعثَ، يرتدي ملابس مهترئة، ويجر خلفه حقيبة من الكرتون. توجّه نحو المطبخ وطلب أن يأكل لحماً نيئاً. قال إنه يحتاجه من أجل العمل. أطاعت الباتول، وهي غير معجبة بذلك الرجل الذي كان دجالاً. لكنها كانت قد رأت أسوء منه وتعرف أنّ سيدتها المتيمة بهذا النوع من الممارسات التي لا تؤدي إلى شيء إن لم يكن صرف مال زوجها عبثاً.

بعد أن التهم كلّ ما قُدِّم له، تجشأ بصوت مرتفع وشرب قدحاً من الماء المغلي. حبس بعد ذلك نفسه عند للّا فاطمة ولم يعرف أحد ماذا يفعل عندها.

كان على ذلك الساحر أن يبعد نابو وأن يسقط الجنين. كان هاجس للّا فاطمة هو إمكانية أن يولَد طفل أسود في العائلة وأن يحمل اسم أبنائها نفسه. كانت الفكرة تُشعلها غضباً. كانت تقول:

«أن يتسلى مع عاهرة، شيء أفوّتُهُ، لكن أن ينجب أطفالاً، هذا لا يحتمل. يجب أن تموت قبل ذلك».

أخبرها الساحر أنه يحتاج إلى خصلة من شعرها وبعض زغب عانتها. مهمة مستحيلة. كيف يمكن أن تحصل عليها كي يقوم السحر بفعله؟ الشعر، يمكن أن تكلِّف إحدى الخادمتين بأن تقصّه خلال نومها، لكن زغب العانة، وحده أمير يمكن أن

Tele: @Arab_Books

ينتفه، وكيف يمكن تصوّر أن تجعله يتواطأ معها؟ كان مغرماً بتلك المرأة ولن يَدَع أحداً يسيء إليها. بينما كانت تفكر بصوت مرتفع، جاءتها فكرة: رشوة المدلِّكة التي كانت تزيل شعرها خلال جلسة التدليك. كانت تخشى تضامناً بين سود، لكنها فضَّلت أن تحاول، وهي تقول في نفسها إنّ المال يصنع المعجزات.

كان التفاوض مع المدلِّكة صعباً. لم تفهم ما كانت للّا فاطمة تطلبه. اقترحت مدلِّكة أخرى أن تقتلع زغب نابو مقابل مبلغ كبير من المال.

بعد خمسة عشر يوماً، كان الشعر والزغب في حوزتها. خبّأتهما في مكان أمين وانتظرت عودة الساحر الذي كان يقوم بجولة في المدينة ويقيم ليوم أو يومين في مكناس لمعالجة طفل فَقَدَ بصره فجأة.

كانت نابو تشكّ في أنّ للّا فاطمة تحضّر لشيء ما. لكنها كانت تحسّ أنها تحت حماية أرواح الأجداد. لا شيء سيئ يمكن أن يصيبها. بالإضافة إلى أنها منذ أن أصبحت مسلمة، أصبحت تسرّ إلى الله وتطلب طيبته ورحمته. كانت قد تعلَّمت العربية من أجل أداء الصلاة وكانت تتلو بعض آيات القرآن. كانت تمزج الفرنسية والعربية لكن ما يهم هو النية في أن تكون على صراط الله المستقيم. كان بطنها يكبر، الشيء الذي أضفى جمالاً على مظهرها. عندما كانت تتحرك، كانت تبدو خفيفة كأنها تمشي على بنانها. كان أمير يدلِّلها ويقبِّل بطنها كلما دخل إلى البيت أو خرج. كان يحسّ أنه شاب وعاشق وسعيد. حتى

Tele: @Arab_Books

ولو لم تكن الأعمال تسير بشكل مُرْض بسبب الاضطرابات السياسية، لم يكن يشتكي مثل جيرانه وأقربائه. لم يكن ذلك من أولوياته. كان مهووساً بذلك الحمل، يعدّ الأيام ولا يخفي نفاد صبره. اتصل بثريا، القابلة. كانت قد هرمت وتوقفت عن ممارسة مهنتها. وكانت كنزة، ابنة أختها، الممرضة في المستشفى الفرنسي، هي التي أخذَت مكانها. جاءت لتفحص نابو وأعلنت بنبرة حازمة:

«ستلدين بعد حوالي عشرة أيام، سيكون توأماً».

كاد أمير يفقد توازنه. ابتسمت نابو بعصبية. طفلان أسودان في العائلة! سيقضي ذلك على للّا فاطمة.

في تلك المدينة، من دون أفق، حيث تتداخل الدُّورُ في بعضها وتنسج الأزقة متاهة ضيقة، وحيث تبدو الحياة كأنها سُطرت من قبل في كتاب كبير وُضِعَ فوق ضريح وليّ وسيّد المدينة، يجب على كلّ واحد أن يظلّ في مكانه. لا يجب أن تتخطى النساء، في أي حال من الأحوال، الحُدودَ التي رسمتها القرون والرجال، كان على الفقراء أن يكتفوا بوضعهم كفقراء والذين يغتنون يجب أن يواصلوا طريق الأعمال ولا يلتفتوا خلفهم أو ينتابهم إحساس بالظلم. كان عليهم أداء الزكاة، معاملة الفقراء بإحسان وأداء الشكر لله لأنه منحهم كل تلك الخيرات.

كان أمير مستغرقاً في أفكاره عندما جاء كريم وارتمى بين ذراعيه كأنه يفتقد إلى الحنان. كان يشعر برغبة في البكاء. كان

Tele: @Arab_Books

المدرِّس في المدرسة قد طرده لأنه لم يتوصّل إلى نطق كلمة «عرض» وكان يقول «عضر». كان أمير قد لاحظ أنّ كريم يتراجع غالباً عندما تكون لديه أسباب للقلق.

«ماذا حدث، ولدي؟

- أنا خائف...

- خائف من ماذا؟

- ماما مريضة، ماما تبكي، تبكي...

- لا تقلق، سيكون لك أخ صغير أو أخت صغيرة.

- أعرف، نابو حا... مل... تنتظر طفلاً.

- ها هو. ابتداء من اليوم، أعتمد عليك كي تساعدني في الدكان. بقية الوقت، سيأتي مدرِّس إلى البيت كي يقدِّم لك دروساً. لن يجعلك تبكي مثل ذلك الحقير.

- لي وحدي؟

- في انتظار ذلك، رافِقني إلى الدكان، يجب أقوم بتنظيمه».

كان كريم يحب أن يُعهَد إليه بمسؤوليات. الاشتغال مع والده كان أفضل من العلاج. كان أحد الممرّضين قد أخبر أمير أنّ أحد مروضي النطق قد جاء ليستقرّ في المدينة الحديثة. استعلمَ وتأكَّد من استقرار المختص في حي الفرنسيين. سجَّل اسمه وعنوانه وأعلن لكريم أنه سيعرضه على طبيب جديد. أجاب الأخير بابتسامته الكبيرة:

«لست مر. مريضاً، أنا!».

Tele: @Arab_Books

لم يكن المدرّس شخصاً آخر غير أصغر أبناء مولاي أحمد. خصّص ساعتين كلّ يوم من أجل كريم لتعليمه القراءة والكتابة.

بعد أن استقرّت في غرفة جميلة متماثلة مع غرفة للّا فاطمة، كانت نابو تتفادى لفت الأنظار إليها. لم تكن المرأتان تتواصلان. كان أمير يمضي ليلتين في الأسبوع مع الزوجة البيضاء التي كانت تتمنّع عليه دوماً. أما نابو فرغم أنها حامل كانت تُشبعه بمداعبات وحنان كبير. وبعد أن نبّهتهم والدتهم، كان الأولاد يحسّون بالحرج؛ وحدها الابنة اتخذت موقفاً واضحاً ضد المرأة السوداء، وأعلنته بالصراخ:

«إذا كان عليّ أن أتزوج، يوماً، سأتزوج مسيحياً، أجنبياً جاء من بلد يمنع فيه تعدّد الزوجات، حيث لا يختلط السود بالبيض. والدنا لا يعرف ماذا يفعل، لم يعُد يملك نفسه، هو تحت التأثير السيئ لقبيلة، سترون، ذات يوم سينزلون علينا كلهم وسيحتلوننا، سيأخذون أملاكنا وسيرمون بنا إلى الشارع!».

لمحت للّا فاطمة، التي لم تكن تغادر غرفتها، كنزة التي كانت تشتغل عبر النافذة. كانت نابو على وشك أن تلد. راقبَت تلك الحركة ولم تستطِع منع دمعة من السقوط. كانت حزينة وفي الوقت نفسه تريد أن تقوم بمجهود كي تتقبّل الوضع وتتعايش معه. لكنها لم تكن مستعدة. كان عندها إحساس أنها خسرت زوجها. كان الأمر كما لو أنها كانت ميتة وتحضر حياة زوجها السعيدة مع تلك المرأة السوداء التي تجعله سعيداً. كانت تسأل نفسها عن تصرفاته، عن حياتهما الجنسية، تلعن النساء

Tele: @Arab_Books

الأفريقيات. لم تكن ترى في ذلك أي عنصرية. على كلّ حال اعتبر المغاربةُ دوماً أنّ العنصريين هم الآخَرون. من أين تلك الأفكار البلهاء التي تدّعي أن السود لهم أداءٌ جنسي عالٍ؟

كان أمير حاضراً. عوّضه كريم في حراسة الدكان. سارعَت الخادمتان بتنظيف البيت. طلبت الباتول أحشاء خروف من أجل تحضير حساء يُعيد للأم الشابة قوتها بعد الولادة. كان كلّ شيء جاهزاً لاستقبال المولود أو المولودين الجديدين.

بقي أمير بعيداً، يذكر الله معدّداً حبّات مسبحته. بلعت للّا فاطمة حبة، طلبت مشروب أعشاب ونامت. لا مجال لحضور الحادث الذي كان يُدميها. فعلت ابنتها الشيء نفسه، وضعت فراشاً في بيت والدتها، بالقرب منها، وقرَّرت أن تنام طيلة الوقت الذي ستستغرقه الولادة.

عند مجيء أول مولود، أطلقت الباتول زغرودة حادّة أيقظت سيدتها. عند مجيء الثاني، صاحت: «الله أكبر!» أصاب كنزة الخرس. كما توقّعت، كان بالفعل توأماً، لكن أحدهما كان أسود، شديد السواد مع احمرار. في الواقع، كان لون أحدهما داكناً أكثر من الآخر، لكن لون بشرتهما لن يتأكّد بشكل واضح إلّا بعد بضعة أيام. كان المولود الأول أبيض، أبيض بالكامل، والثاني، أسود، أسود بالكامل.

لم تكن قد رأت حالة مشابهة من قبل ولا حتى تصوّرت أن ذلك ممكن. قالت:

«إنها إشارة من الله! كرامة، رأسمال مزدوج».

Tele: @Arab_Books

تأثّر أمير بشدّة، قال ببساطة:

«حسن وحسين. سأسميهما حسن وحسين. هكذا جرت العادة».

استشار مرة أخرى مولاي أحمد حول تلك الظاهرة. «الأمر الطبيعي هو أن يكون لون ابنيك بلون القهوة بالحليب. أما في هذه الحالة، فعندنا من جهة قهوة سوداء، ومن جهة أخرى، حليب. لله أسبابه. تقبّل هذه الهبة من الله، وقُل لنفسك إنها علامة على رحمته. خلق الله الناس مختلفين كي يتعارفوا ويتعاونوا. هو لا يفرِّق بين أسود وأبيض، أو بين أجنبي وأصلي، بين هؤلاء وأولئك، هكذا. اعتبرْ نفسَكَ صاحب امتياز، أنت محظوظ ولا تضيّع حظَّك في أشياء تافهة. قُم بتربيتهما بطريقة جيدة في سبيل ديننا وشريعتنا».

لم يكن كريم قادراً على إخفاء فرحته بوجود أخوَين صغيرين. كان يغني ويرقص مثلما يفعل عندما يربح في سباق سباحة. ذلك الصباح فوّت حصة تدريب كي يحضر الولادة. هو الذي أعلن الخبر لوالدته التي لم تكن مندهشة. قالت:

«الدليل على أنها ساحرة، هو وجود واحد أبيض وآخر أسود! لم يعرف هذا من قبل».

لم يُبد كريم اهتماماً للتعليق. أخذ يجري في البيت مُعلناً الحدث للجميع. أمسك قِدراً وأخذ يضرب عليها بملعقة خشبية:

«بلاغ للش... ش... شعب! حس... حسن وح... حسين هنا... عاش بابا، عاشت ماما...».

Tele: @Arab_Books

أمسكه أخوه الأكبر وذكّره بأن نابو ليست والدته.

«نعم أعرف، لكن نابو هي أم حسن وح... حسين... أخوي!».

في اليوم السابع بعد الولادة، ذبح أمير كبشين وسمى الولدين. رفع مولاي أحمد كفيه وطلب من الحاضرين بأن يدعوا معه، طالباً من الله القدير: «أن يرحِّب بهما في هذا العالم، وأن يباركهما وأن يكونا بشيريْ خير وازدهار وسكينة وسِلم على دين الله ورسوله سيدنا محمد؛ فليهدهما الله إلى الصراط المستقيم وشريعتنا وقيمنا التي تجعل منا مجرّد عابرين في هذه الحياة، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون حسب مشيئته المقدسة...».

بعد الصلاة، كان الغداء وليمة. لم ينقص سوى الموسيقيين الذين لم يجرؤ أمير على إحضارهم مخافة إثارة غيرة للّا فاطمة.

كانت جريحة ومتألمة، ولم تعُد تسيطر على نفسها.

وبعد بضعة أيام، أرسلت الباتول خلف الساحر الذي لم يستطِع المجيء بسبب مرضه. قرَّرت حينئذٍ أن تذهب هي لتراه. من أجل ذلك، كانت تحتاج إلى إذن زوجها. اخترعت حكاية المُنجِّد اليهودي الذي لم يكن يخرج من الملاح بسبب تدهور صحته. قالت لأمير:

«إذا سمحت، سأزوره وأعطيه قياسات الأفرشة التي يجب أن يُعيد حشوها. أعطني المال مسبقاً. ثم إني أشعر برغبة في الخروج ورؤية أناس آخرين؛ أحتاج إلى تغيير الجو».

Tele: @Arab_Books

ارتدت جلبابها الرمادي ووضعت خمارها الأبيض الذي يخفي الفم والذقن، ثم ذهبت مع الباتول إلى خارج المدينة العتيقة من أجل موافاة الساحر الذي كان ينتظرهما في مرأب.

«هل معكِ ما طلبته؟».

أعطَته خصلة الشعر والزغب اللذين احتفظت بهما في منديل.

«كان عليك المجيء من قبل؛ المدينة لا تتحدّث سوى عن التوأم، واحد أسود، والآخر أبيض. الآن، ما العمل؟».

سلّمته بعض الأوراق النقدية وقالت:

«إنه عملك. الهدف هو أن تعود هذه المرأة من حيث أتت، وطبعاً رفقة ما أنجبته».

سلّمها الساحر طلسماً لتضعه تحت سرير نابو.

«بهذا لن تستطيع النوم. بعد ذلك، ستفقد العقل، سترين، ستغادر البيت مثل مجنونة. لكني سأشتغل على عمل أكثر فعالية وأكثر سرعة. أحتاج إلى بعض خيوط الذهب، هي مهمة لربط الطلسم. ستعطينها للباتول».

في المساء سألها أمير عن أخبار المُنجِّد. «لم أجده؛ قيل لي إنه في المستشفى.

- غريب، لأنه بعد ظهر اليوم، جاء ليتسلم أجرته عن العمل الذي قام به قبل ذهابي إلى أفريقيا. كان بصحة جيدة. أنت تخفين عني شيئاً».

Tele: @Arab_Books

همهمت للّا فاطمة بعض الكلمات ثم لجأت إلى غرفتها. طلب أمير من نابو أن تحترس من الأكل الذي تقدّمه لها الباتول. كان يعرف ما يمكن أن تفعله امرأة تشعر بالغيرة.

مع مرور الوقت، فهم أنه لا يستطيع ترك نابو في البيت نفسه مع المرأة البيضاء. كان عليه إيجاد مسكن آخر في الحي نفسه وإبعادها عن الخطر الذي يهدّدها. لكنه لم يكن يتوفر على الإمكانات. استدعى الطباخة وحذَّرها من أي عمل سحر يمكن أن تتعرض له زوجته الشابة. جعلها تقسم على المصحف بأنها لن تضرّ نابو أبداً. لم يكن يخشى التمائم والخربشات، لكنه كان يخشى عناصر مثل دماغ الضبع الذي إذا أضيف إلى الطعام يمكن أن يسبب شللاً واضطرابات في السلوك. وعدته بأنها ستتظاهر بإطاعة سيدتها كي لا تتعرّض لغضبها لكنها لن تسبِّب الضرر لنابو أبداً. لم تكن الباتول تحبّ سيدتها التي كانت تجعلها تعمل بلا توقف.

ذات يوم، خطرت لأمير فكرة كراء آلة لغسل الصحون جلبتها شركة مستقرة في المدينة الجديدة من فرنسا. بعد نهاية شهر، إن كان راضياً، يستطيع شراءها بثمن مغرٍ. كان سيكون أول رجل فاسي يجهِّز بيته بتلك الآلة. كان فخوراً بتسهيل عمل الخادمتين، اللتين كانتا مندهشتين ومبتهجتين. بالنسبة لهما، كان حلماً. انتهت عمليات غسل الصحون المتعبة. فسَّر لهما أحد التقنيين كيفية اشتغال الآلة. قام بتجربة وانصرف بعد أن قدَّم لهما تعليمات حول التشغيل. كانتا مذهولتين وتصوَّرتا أن ذلك لن

Tele: @Arab_Books

يعجب سيدتهما. ودون أن تدلي بخطاب طويل، فقط من أجل الشرّ، منعتهما من استعمالها:

«أنتما تملكان أيد وأذرعاً، أخبرا زوجي بأنكما لا تحتاجان إلى هذه الآلة التي هي للمعاقات والكسولات، وليس من أجلكما. على أيّ حال لا بد أن يعيدها. أول مَن تلمسها منكما ستندم على ذلك طيلة حياتها. مفهوم؟».

جاء رجلان لاستعادتها. رأت الخادمتان الآلة العجيبة تختفي. أحسَّتا بدموع في عينيهما. جرحهما كلام سيدتهما. كانتا تعرفان أنه في يوم ما ستحين ساعة العدل. لم تجرؤا على ذكر ذلك لأمير. على أيّ حال، لم تكونا تستطيعان التوجّه إليه. أطاع زوجته وتفادى مأساة جديدة. لم يكن الوقت مناسباً لمضايقتها.

واصل أمير تمضية ليلتين مع الزوجة البيضاء، التي بعد بعض الوقت، قبلت عودة العلاقة الجنسية. فتور تلك الممارسات كان يجعله حزيناً ويُشعره بالمرارة. كان يؤدي دوراً زوجياً، من دون متعة ولا فرح ولا جموح. كان أكثر سعادة عندما ينام مع نابو، التي رغم أمومتها، لم تفقد شيئاً من شهوانيتها وألاعيبها. كان ثدياها قد انتفخا، وكان أمير يمصّهما مثل الرضيعين، مداعباً كلّ الجسد الذي كان أكثر ليونة وأكثر إثارة.

لم تُحدث أعمال الساحر أيّ تأثير على نابو ولا على الولدين. انتهى الأمر بللّا فاطمة لقبول الوضع، في انتظار اللحظة المناسبة للانتقام.

مرت خطوبة ابنتها الوحيدة، فتيحة، في جوّ متوتر، وكادت

Tele: @Arab_Books

تنحو منحى سيئاً. كان عُمْر حسن وحسين سنتين، كانا يجريان مثل شيطانين في البيت الكبير. سألت والدة الخطيبة عن مصدر الطفل الأسود. أجاب أمير بنبرة حازمة ومهدّدة تقريباً:

«إنه ابني حسن، شقيق حسين التوأم، وأخ الخطيبة غير الشقيق».

صمت. نظرات جانبية. سأل العَدلان المكلفان بتحرير العقد عمّا يجب فعله.

تدخّلت للّا فاطمة:

«ليس سوى أخيها غير الشقيق، لن نجعل من ذلك مأساة بسبب شيء قليل، مثل رائحة اللحم على الشاقور، لا شيء.

- أجل، لكنه أسود! قال والد الخطيب. نحن نستعد للدخول في عائلة، أحَدُ إخوة الخطيبة فيها أسود. هذا ليس في تقاليدنا. مَن يدري، فقد تلد فتيحة ولداً أسود؟

- وإذن؟ صاح أمير. كنت أريد تسميته بلال، مثل العبد الأسود الذي حرّره رسولنا، لكن بما أنّ له أخ توأم، اخترت حسن وحسين. أيّ سوء ترونه في الأمر؟ ثم إنّ لون البشرة ليس معدياً!».

صمتٌ طويل وحرج. أزال كريم التوتر بعزفه لحناً جذاباً على البيانو. صفّق الجميع. كان من حقه أن يكون سعيداً. أنقذ الوضع.

خطرت على العَدْلين فكرة تلاوة الفاتحة ورفع يديهما تضرّعاً من أجل أن يبارك الله ذلك الاتحاد ويجعل السلم والهدوء يعمّ القلوب. قدم العم إبراهيم للعروسين اثني عشرة ملعقة فضية.

Tele: @Arab_Books

كانت إحدى الخرافات تؤكِّد أنّ شراء المرء للملاعق بنفسه نذير شؤم.

في الفترة نفسها سرت شائعة، مصدرها أمينة صندوق الحمام، تتّهم نابو بأنها سرقت حسين، الطفل الأبيض. قامت الإشاعة بدورة في المدينة ووصل الخبر إلى أمير. عندما كان يستعد لغلق دكانه، اقترب منه جار تافه وغيور ودمدم في أذنه:

«أن تمتلك امرأة سوداء، شيء مقبول، لكن أن تدعها تقنعك بأنها والدة الطفل الأبيض فهذا مقرف!».

لم يُجب، أحنى رأسه وأخذ وجهة بيته.

طرحت للّا فاطمة السؤال مباشرة:

«هل كنتَ في الغرفة لحظة الولادة؟ لا، إذن الطفل الأبيض يمكن أن يكون قد سُرق بتواطؤ القابلة الجديدة، المنحرفة، الخليعة، غير المتزوجة والتي يمرّ العديد من الرجال في سريرها. شهادتها لا تساوي شيئاً. لا داعي لأن تطلب منها أن تقصّ علينا أكاذيبها».

لأول مرة في حياته تملّكَ أمير غضب شديد.

صرخ بكل قوة:

«لا أتحمل هذه الحرب التي تشنينها ضد للّا نابو، أجل، إنها أميرة، امرأة ذات مقام رفيع، وقورة ورائعة. إذن هذا يكفي، أجل، يكفي! لا أريد أن أسمع كلمة ضدّها. مهاجمتها تساوي الاعتداء عليّ وعلى شرفي وكرامتي. إذن توقفي!».

تجرأت على الإجابة:

Tele: @Arab_Books

«وإلّا؟»

- وإلّا، الطلاق! سيتطلب الأمر دقيقة، الوقت الكافي لكتابة رسالة طلاقك وحزم حقائبك. يكفي أن أنطق ثلاث مرات متتابعة «أنت طالق» كي لا تبقي زوجتي. هذا هو القانون!».

أجهشت للّا فاطمة بالبكاء، كانت تعرف أنه لا يمزح، ثم اختفت في غرفتها. لم تُرَ أبداً من قبل زوجها في حالة مشابهة. بالنسبة لها، كان ذلك نتيجة السحر الأفريقي.

كانت نابو قد علمت بالأمر من خلال إحدى الخادمتين التي سمعت الشجار الذي حدث بين أمير وزوجته. لا شيء أصبح يُدهشها لكنها أصبحت تخشى أن يأتي أحد ليخطف ابنيها. كانت تعرف أنّ كل شيء ممكن في هذه المدينة، المؤامرات كانت عديدة وخادعة. كانت تنام وطفلاها بين ذراعيها. استغلّ أمير عيد ميلادهما كي يقوم بالضربة القاضية ويضع حداً للإشاعة الرهيبة. تقدَّم رفقة حسن من جهة وحسين من الجهة الأخرى، تتبعه أمهما مرتدية في ذلك اليوم ثيابها الأفريقية الجميلة. كانت للّا فاطمة مستاءة في غرفتها، كان يبدو لها أنها تشهد غرقها الخاص وتوقفت عن أداء الصلاة، معتقدةً أن الله قد فضّل عليها الزوجة السوداء.

انتشر شعار «محمد الخامس في القمر» بسرعة في جميع أنحاء المدينة ذات يوم من نوفمبر 1955. أُعطِي موعدٌ لجميع المغاربة كي يروا ظهور ملكهم على وجه القمر التام. كان الجو جميلاً والسماء مليئة بالنجوم، وها هو الشعب المغربي يصعد

Tele: @Arab_Books

على الأسطح والهضاب وعلى الأشجار أو فوق العمارات القليلة الموجودة كي يروا صورة وجه مَن نفته فرنسا مع عائلته، بعيدا عن بلده، في مدغشقر. نادراً ما تمّ تتبع ظاهرة ذات وزن بذلك الشكل، وخاصة أن يتمّ تصديقها. لم يكن تخيّلاً. قال البعض إنهم رأوه مبتسماً، وآخرون هادئاً وواثقاً، وإنّ عودته إلى العرش حتمية وإنها مسألة أسابيع فقط. وجد رجال السياسة تسوية، بشكل سريع، لم تُعِد فقط الملك إلى قصره، لكنها منحت الاستقلال للمغرب أيضاً. بعد كل شيء، كانت الحماية قد طالت، خاصة أنّ فرنسا في تلك الفترة كانت متورطة في حرب عنيفة في الجزائر، حرب أساءت للشعبين، تاركة جراحاً لا تداوى.

لا أحد كان يجرؤ على أن يمزح بخصوص ذلك الظهور السريالي، ولا حتى القريب حفيظ، المدرّس السابق والفوضوي والمرشد السري والمعادي للمَلكيّة والذي كان المناضلون الوطنيون يهدّدونه بالموت. كان يختبئ وبمجرد أن يستطيع ذلك يصرخ بشغفه بالثورة الفرنسية لسنة 1789. كان أمير قد دلّه على كوخ ليختبئ فيه. كان يرسل له الطعام من حين إلى آخر ولا يستطيع رؤيته سوى ليلاً، متخفياً في جلباب قديم:

«اسمع يا حفيظ، توقّف عن لعب دور المحرِّض. أنت ضد تيار جميع المغاربة، المغاربة يحبون الملك ويناضلون من أجل عودته. إذن، توقف عن لعب دور الوغد.

- أجل، لكن ماذا فعلت الملكية من أجل راحة المواطنين؟».

Tele: @Arab_Books

كان حفيظ قد عانى كثيراً ولم يكن مثل الآخرين. كان أحد أبناء الجارية السوداء التي أحضرها أبوه من غينيا. كان خلاسياً تعرّض للاحتقار والمهانة. عرف في وقت مبكر أن لا أحد سيعامله بشكل جيد، فأخذ يقرأ ليل نهار وكوّن مكتبة. أتاحت له الكتب إيجاد هوية لنفسه وتوازناً وسَكينة. كانت العنصرية طبيعية تقريباً في مجتمع رفض وعامل سود البشرة وكأنهم أقل درجة خلال جميع الأوقات. كان حفيظ قد قرأ فولتير وهوجو، وزولا ورابليه، ورامبو وعمر الخيام، وخليل جبران وأندريه جيد، وأحمد شوقي وأناتول فرانس، وجورج دارين وطه حسين. كان قد التهم كلّ ما سقط بين يديه وسجل ملاحظات وحفظ عن ظهر قلب بعض مقتطفات النصوص.

كان يقول لعمه:

«لقد كوّنت نفسي بنفسي؛ تخلى عني والدي. من حسن حظي أني وجدتُ كلّ هذه الكتب في سوق الخردة. كانت في ملكية فرنسيين غادروا المغرب خلال الأحداث».

كان حفيظ شخصية روائية. قارئاً شغوفاً في الغالب. لكن يمكن لبعض القراءات أن تتحوّل إلى هوس. صعب عليه التخلص من **المسخ** لكافكا. كان يسارع كلّ صباح إلى المرآة كي يتحقّق إن لم يكن قد تعرّض لتغيرات جسدية خلال الليل. لاحظ ذات يوم ظهور ثؤلول تحت شفته في الجانب الأيسر. في اليوم الموالي، كان الثؤلول قد كبر وانتقل. فتح كتاب كافكا في طبعة الجيب وعندها أحسّ بالخوف. لم يجد على الصفحات

Tele: @Arab_Books

نصوصاً، لكن رسوماً تجعل وجهه كاريكاتورياً بعشرات الثآليل من مختلف الأحجام. سمع صوتاً يدَّعي أنه سيجد قدره مكتوباً في تلك الصفحات. أصابه الهلع. عزا تلك الاضطرابات للتعب. إلّا أن لا شيء كان يضغط عليه: لا شيء مرهق، كان عمله كمرشد سياحي سري هادئاً، لكن شيئاً ما كان يضايقه ولم يستطع تبيّنه. عندما مال كي يأخذ غليونه الطويل ويحشوه بالكيف، فهمَ أنّ تلك العشبة هي التي كانت تضلِّله. وضعه جانباً وشرب كأساً كبيراً من الماء. كان دائم التدخين لكنها كانت المرة الأولى التي يحسّ فيها بتلك الهلوسات.

عندما تصفّح رواية كافكا مرة أخرى، بعد قيلولة مطولة، لم يجد أي شيء غير عادي في الكتاب. لا تشطيب ولا رسوم. نظر إلى نفسه في المرآة وابتسم كي يقول لنفسه «أوقف حماقاتك».

غلاف **الآلهة عطشى** لأناتول فرانس كان أبيض ومهدئاً. كان صديقه خوسيه قد قدَّم له الرواية وهو يوصيه بقراءتها بأسرع وقت:

«أيّ حظ تملك باكتشاف هذا العمل العظيم!».

استغرق في القراءة. بدا له كأنه يسمع صوت الثورة. كان مسروراً. إنه نوع الأدب الذي يقدِّره أكثر. أخذ يحلم ورأى والده على حمار، تائهاً في حرارة قرية خالية، وهو يصرخ: «المغفرة من الله الذي أعطاه ابناً كافراً، لا يحترم أيّ شيء، والذي جعل من الثورة ديانته؛ هذا ليس له علاقة بتاريخنا. نحن ملكيّون موالون، لا نريد أن نقطع رأس أحد! فليغفر له الله!» قال في نفسه إنه لا أحد عندنا يستطيع محاسبة أبٍ عن شيء

Tele: @Arab_Books

فَعَله، وإن علاقتنا بالأب شبه مقدّسة. نتقبّله كما هو ولا نقلِّل من احترامه. وإلّا تعرّضنا للقطيعة والرفض الجماعي.

كان حفيظ ثورياً وليس ابناً عاقاً؛ لم يكن يستطيع أن يلوم الأب الذي تخلّى عنه. أما بالنسبة إلى والدته فقد اختفت بعد أن تمّ بيعها لأحد ملاكي الأراضي الأثرياء من منطقة مكناس.

ذات يوم فسَّر حفيظ لعمه والمنعم عليه أمير، دون أن يرفع نبرة صوته، وجهة نظره: «لم يكن على الفرنسيين إيداع الملك، كان عليهم تركه في مكانه، بذلك الشكل كانت الملكية ستنطفئ من تلقاء نفسها. في حين أنهم بجعله بطلاً، ومحمد الخامس بطل، حكموا على المغرب بديمومة الملكية ودعموها، الدليل، الشعب كله في الشارع يطالب برجوع الملك إلى عرش أسلافه! أنا، ليس لدي شيء شخصي ضد تلك العائلة، لكن بصراحة، كم عدد من السنوات سنظلّ رعايا، خاضعين، نقدّم البيعة لملك؟ ربما كنت الوحيد الذي يفكر على هذا النحو. لكنني أقول ما أفكر به لك، صديقي وعمي. وأنا أعلم أني إن تكلّمت سيتم إعدامي من دون محاكمة. لذا سأهاجر، عفواً!» برهن له أمير على أنّ الأنظمة الجمهورية ليست بالضرورة ديمقراطية، قدّم له مثال مصر حيث استولى ناصر على الحكم عن طريق انقلاب عسكري. قال له، بوصفه رجلاً حَذِراً، كم يحتاج البلد إلى الاستقرار، وأنّ الملك، بوصفه أميراً للمؤمنين، القادر، لوحده، على توحيد المغاربة تحت شعار إسلام هادئ.

كان حفيظ يعلم أن لا أحد يشاركه رأيه، لكنه كان يتصرَّف

Tele: @Arab_Books

بحسب هواه. كان قد توقف عن لعب دور مرشد بعد أن أنشأت السلطات ميليشيا ضد المرشدين غير المرخصين. كان قد حسم قراره: المنفى. استعرض عدّة بلدان وحسم اختياره: السويد. كان يقول إنّ ذلك كان حلمه. لماذا ذلك البلد؟ لأنّ السويد في ذلك الوقت كان قد تبنّى مئات الأيتام بعد حرب مدنية في بلد أفريقي. تحدّثت الصحافة بإسهاب عن الموضوع وأحسّ حفيظ ليس فقط بكونه يتيماً، لكن أيضاً أفريقياً! علاوة على ذلك، كان قد تقصّى حول النُّظُم السياسية في بلدان الشمال.

لكنه لم يكن يتوفّر على جواز سفر وكان مُعتمِداً على أمير كي يستخرج له واحداً. أمر صعب. كلّ الذين يسلّمون الجوازات كانوا في غالبيتهم موظفين جزائريين بوضعية فرنسية. كانوا عديدين يشتغلون في الشرطة والاستخبارات. كان الوطنيون يتفادونهم ولا يخفون استنكارهم. كان الرجل الذي سيصبح زوج فتيحة يعرف واحداً يشتغل بخفاء في الشرطة الفرنسية. توسَّط عنده لاستخراج واحد من أجل حفيظ، الذي ولد بفاس من أب مغربي وأم غينية. مقابل مظروف دُسّ في الملف، ضمن الوثائق المطلوبة، حصل حفيظ على جوازه، ودون أن يُعلمَ أحداً، عدا أمير الذي أعطاه بعض المال، ملأ حقيبته بالكتب، استقلّ الباخرة من طنجة، ثم القطار من الجزيرة الخضراء إلى ستوكهولم التي اكتشفها ذات مساء من ديسمبر يغطيها الثلج بالكامل.

لم يكن قد سبق له أن رأى ذلك الشيء الذي يتحدثون عنه في الروايات. كان غريباً وجدّ مبهج. مثل طفل صغير، أخذ يصنع كريات ثلجية ويمرّرها على وجهه. كان سعيداً جداً لأنّ

Tele: @Arab_Books

قدميه وطئتا أرض ذلك البلد الذي حلم به ولم يشعر بالبرد. استقبله أحد مواطنيه الذي كان قد تبع سائحة متقدّمة في العمر بشكل جيد، ومن جديد كان عليه أن يُعبّئ ملفات ويعرض حياته وأسباب منفاه... إلخ. حذره صديقه من أمر مهم: «هنا، لا أحد يكذب؛ لا داعي لجعل حالتك مأسوية؛ هنا، الأبيض مساوٍ للأسود أو الخلاسي، هكذا أنت، أليس كذلك؟ إذن كن مستقيماً، الناس في الشمال مستقيمون، هم ليسوا متوسطيين؛ لا حركات مبالغ فيها؛ لا ألفة؛ أنت تتوفر على جميع الحقوق التي يتمتع بها باقي المواطنين. سوف تبدأ بتعلم اللغة، بعدها ستبحث عن عمل، الشيء الأهم هو أن تكون جادّاً وتذهب إلى الهدف مباشرة. لا سياسة، أريد أن أقول، انسَ استياءك من النظام الملكي، هذا لا يهمهم. إذا تصرّفت كما يجب، ستحصل على كلّ ما يخوّله القانون، لكن عند أقل تصرف سيئ، سيتم إعادتك من حيث أتيت من دون احتراز. لكنني أعرف أنك ذكي، ستنجح. انسَ أفكارك الفوضوية والوقحة شيئاً ما، موافق؟

- موافق! يمكن أن تعتمد عليّ. ليس لي سوى دين واحد: الجدية والصرامة والقانون!».

بعد بضعة أشهر، بعث حفيظ إلى المنعم عليه أمير صورة يظهر فيها بين ذراعي شقراء جميلة، أطول منه. كانا في محطة تزلّج. فكّر أمير على هذا النحو: في المغرب، لم يكن ليكون أبداً بين ذراعي امرأة بيضاء ولا ليعرف التزلج! يجب إرسال باقة زهور للعائلة الملكية السويدية!

Tele: @Arab_Books

منذ ولادة التوأم، وعى أمير بحقيقة كان إلى ذلك الحين يراها من بعيد لأنها لم تكن تخصّه. كانت العنصرية مترسّخة في عقول الجميع، الأغنياء كما الفقراء، سكان فاس كما سكان باقي المدن. رغم أنّ الشعب المغربي لم يكن أبيضَ بالكامل. كان هناك، بالتأكيد، أحفاد العبيد الذين يعيشون، خصوصاً في الجنوب، ويحتلون مناصب وضيعة. الأكثر استحقاقاً كان يتمّ اختيارهم كي يُشكّلوا الحرَس الملكي. كان الملك قد أعطى الأمر بأن يتشكّل الحرس الخاص من السود وحدهم. دليل واضح على عنصرية لاشعورية تقريباً لا تصدم أحداً عدا ضحاياها بالطبع، لكن لا أحد يتحرّك، لا أحد يصدر ردّة فعل على هذه الأشياء في مغرب لا يزال تحت الحماية، عشية الاستقلال.

بعد زواج فتيحة، سافر محمد، الابن الأكبر، وكذلك عزيز إلى القاهرة من أجل الدراسة بعد أن حصلا على منحة من جماعة إسلامية. لم يرَ الأب في ذلك أي خطر، مؤمناً بطيبة أولئك المسلمين الذين كانوا يتصرفون في الظلّ بالطبع. كانت فكرة أن يكون قد سلّم ابنيه لحركة سياسية تناضل ضدّ الحداثة في مصر بعيدة جداً عنه. لم يبقَ في البيت سوى كريم الذي كان يرعى أخويه الصغيرين بحبّ مع قضائه أغلب الوقت أمام آلته الكاتبة. كان يكتب «مذكرات» كما يقول. كانت للّا فاطمة تضمحلّ في ملاذها. بمجرد أن يغيب أمير كانت تأمر أن يأكل ابنَي السوداء البقايا في المطبخ. كانت نابو تفلت منها، كانت تتفاداها ولا تواجهها أبداً، الشيء الذي كان يسبّب لها هيجاناً رهيباً.

كانت تجارة أمير تسوء شيئاً فشيئاً. كانت الإضرابات المتكرّرة والتظاهرات تثني الزبائن. تحدَّث عن ذلك مع إبراهيم، شقيقه الأكبر الذي كان قد غادر فاس في بداية الأربعينيات ليستقر في طنجة حيث فتح عدة مكاتب صرف. بعد تفكير، شجَّع أمير على اللحاق به إلى مدينة المضيق التي كانت جدّ مزدهرة.

ماتت للّا فاطمة ذات ليلة عاصفة ضربت فاس وكادت تقتلع كلّ شيء في طريقها. اضطروا لانتظار نهاية الأمطار الطوفانية من أجل الدفن وإقامة العزاء. بدت الأيام الثلاثة المخصّصة للعزاء كأنها لا تنتهي. كان عليهم إطعام الناس وإيواؤهم والإجابة على أولئك الذين يطرحون أسئلة في غير محلها عن نابو. «هل هي الخادمة الجديدة؟» كان البعض يسأل، رغم معرفتهم التامة بمن تكون. كان آخرون يتحدّثون من دون مواربة ويتهمونها بأنها عجّلت بوفاة للّا فاطمة. كل ذلك الشرّ المجاني. خلق الله البشرية بالأبيض. السود كانوا أخطاء الطبيعة الذين لم يكن لهم مكان داخل العائلات الكبيرة التي اختارها الإله ويحبها رسوله. هذا ما كان يُقال خلال أيام العزاء تلك والتي جمعت أناساً من مختلف الأطياف. كان يمكن أن يلتقي المرء العم السمين الذي كان له رأي بخصوص كلّ شيء ولا يتحرّج من إبدائه. كانت له عادة سيئة بحيث أنه لا يستطيع منع نفسه من وضع أصبعه في أنفه أمام الناس. زوجته، المعروفة بلسانها السليط، كانت تكتفي بإلقاء نظرات حقودة على التوأم وأمهما التي كانت تجلس بهدوء في أحد الأركان وهي ترتدي ثياباً بيضاء، لون الحداد. كان

Tele: @Arab_Books

هناك شقيق أمير الأصغر، البخيل والضامر، والذي لم يكن يتوقف عن ذكر مشكل الميراث. كان يقول: «لم يكن ينقص سوى هذا! سود في العائلة الشريفة من آل البيت. يجب أن نحذر، النساء السود معروفات بممارستهن للسحر. هن بجانب اليهود من اخترع ما يسمى بـ«السحر الأسود». طبيعي، صنفان يضمران لنا الشر!» عرض أحد الأقرباء، وهو رجل متعدّد الزوجات وسعيد بالاستمتاع بريعه، أن يبحث لأمير عن عروس شابة وجميلة من فاس، تكون بيضاء ونقية: «لا يجب أن نتركه وحده مع هذه الجارية؛ يبدو أن هؤلاء النسوة يملكن أشياء جنسية تسبِّب جنون الرجال البيض!» كان هناك أيضاً مُعلم الكُتّاب، وهو نحيف وبلا أسنان، والذي كان يحتفظ دوماً بيده تحت جلبابه ممسكة بعضوه الذي لم يكن يستطيع السيطرة عليه. حكى أنه ذات مرة عملت له خادمة خلاسية عملاً إلى درجة أنه رحل من حيه، مكرراً لمن أراد أن يسمع أن عقاب الزنا شديد خاصة عندما يكون مع النساء السود. ثم أخيراً كان هناك إبراهيم، الأخ الأكبر، الذي يقطن بطنجة. كان هو الوحيد الذي اقترب من نابو وقدَّم لها تعازيه وهو يحثها على ألّا تشغل بالها بملاحظات أولئك الأوغاد. عند مغادرته، ذكّرها بأن بيته مفتوح لهم: «أنت وأبناؤك على الرحب والسعة في بيتي».

كان أمير يشعر بالحزن، حتى ولو شكلت وفاة زوجته خلاصاً، وإن تلك كانت مشيئة الله. كان نظام الأشياء قد تكسر حالياً. وكان عليه إعادة ترتيب حياته العائلية الجديدة. كان يجيب هذا وذاك بعبارات جاهزة مضيفاً آية عن التسامح مذكّراً أن

Tele: @Arab_Books

الله قد خلق الناس شعوباً وقبائل وأن الفرق الوحيد بينهم كان في قوة إيمانهم وفي صلابة علمهم.

بعد ذكرى الأربعين يوماً من وفاة للّا فاطمة، قرَّر أمير القيام بسفر إلى طنجة من أجل رصد ما يمكن أن يفعله فيها وفي أية ظروف يمكن أن يقيم فيها رفقة زوجته وأبنائه. نصحه أخوه بعدم تضييع الوقت والإسراع بإحضار عائلته في الحال. كانت الأشغال تبدو مزدهرة ولا ضرورة لمراقبتها عن قرب. كونها مدينة حدودية، لم تكن طنجة تشذّ عن القاعدة. كان كلّ شيء ممكناً فيها. فترة رغيدة بالنسبة إلى البعض، حزينة بالنسبة إلى آخرين، الأوفياء لمبادئهم وقيمهم.

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

الفصل الخامس

في نهاية الخمسينيات، كانت طنجة، وعلى عكس باقي كبريات المدن المغربية، تتمتع بوضع خاص كمدينة دولية، بفضل المفوضيات الأجنبية، الأميركية والإنجليزية والإيطالية والفرنسية والإسبانية والهندية والألمانية، التي استقرّت بها. يبدو أنه على الدوام تَواعَد فيها جواسيس ولصوص من كلّ صنف كي يكونوا جواسيس ولصوصاً. عندما كانت الأمور تسوء، كان باشا طنجة، الباشا التازي الشهير، يتدخّل ويُعيد النظام في جحر النمل الذي كان سكانه يرتادون الفندقين الكبيرين في المدينة: الكونتنونتال الذي يؤدي إلى الميناء، والمنزه، الموجود على بعد خطوات من القنصلية الفرنسية.

كانت فترة ترف بالنسبة إلى إبراهيم، على عكس شقيقه أمير، الذي كان أكثر قابلية للتصوّف منه للتجارة. كان إبراهيم رجل أعمال عديم الضمير، متمرساً على الدسائس. وكان قد وجد فجوة: تهريب البضائع بين جبل طارق وطنجة، الشيء الذي كان يُتقنه أكثر من أيّ أحد. وعلى الذين كانوا ينظرون إليه بعيون معترضة كان يجيب: «هذه المدينة لم تنشأ من أجل القانون؛ مَن

Tele: @Arab_Books

لا يعرف أن يكذب لا يُكَوّن ثروة أبداً». إتقان إبراهيم لعدّة لغات كان يُسهّل عليه كثيراً علاقات العمل بحيث كانت التجارة والخدع السياسية المافيوزية تتداخل. لم يكن إبراهيم مغفلاً، أبداً، كان يعرف كيف يُرضي هذا وذاك، مع الحرص على إعلام صديقه لابّار، أحد رجال الباشا، بجميع مؤامراته. المسمى لابّار كانت له بالإضافة إلى ذلك، العديد من الاتصالات مع التجار الهنود الموجودين في طنجة. طائفة على حدة في المدينة، تعيش في حيّها الخاص، كانت تثير الإعجاب والاحترام ولا تختلط بالسكان الأصليين. كانوا يكافئونه في نهاية كلّ شهر من أجل ضمان حمايته حالة وقوع مشاكل.

قبل الشروع في السفر إلى طنجة، وتغيير نمط العيش والدخول في مغامرة لم يكن مهيئاً لها كلّف أمير أحد أبناء إخوته ببيع البيت الكبير في فاس. كانت الفترة عصيبة. كان سوق العقار غير موجود وكان الجميع قد نصحه بألّا يعرض للبيع القصر الصغير الذي ورثه عن والديه وأسلافه. مرَّت أسابيع ولم يتقدّم أحد. كي ينهي الأمر عرض عليه ابن الأخ أن يشتريه لنفسه بثمن زهيد. قَبِل أمير دون مناقشة، غادر البيت الذي أمضى فيه العديد من الأيام السعيدة وقرَّر نسيانه.

وصل أمير إلى طنجة في منتصف الليل. لم يكن يعرف المدينة جيداً لأنه لم يكن قد زارها إلّا من أجل فترات إقامة قصيرة عند أخيه. كان مرفوقاً بكريم ونابو والتوأم. بعد أسبوع أقاموه عند إبراهيم، الذي كان يسكن في فيلا أنيقة في الجبل

Tele: @Arab_Books

الكبير، استقروا في بيت مهدَّم كان تحته مرأب. كان أمير يتبع بالحرف نصائح أخيه وأخذ يبيع الأقمشة التي يشتريها من عند يهودي بولوني هرب من بلده بسبب معاداة السامية والذي كان سكان الحي يطلقون عليه بولاكو. كان قد وجد في طنجة السلم والثروة اللذين رفضتهما له بولونيا.

علم أمير من خلال الإشاعات أنّ بولاكو قد أغرم بجارته. فتاة من الريف زوجها بحار. كانت كلّ يوم، وهي ذاهبة إلى السوق أو الحمام، تتوقف لحظة قصيرة أمام متجر تاجر القماش، ثم تواصل سيرها. كان بودّها أن تدخل وتشتري قطعة ثوب كي تغطي صالونها وتثرثر قليلاً، لكنها كانت تعرف أنّ الجميع يراقبها. ذات يوم، عَلِمَ زوجها من خلال أحد الجيران أن بولاكو يهتم بزوجته. أخذ سكيناً كبيراً وذهب عنده على حين غرة:

«إذن، بولاكو، يبدو أنّ زوجتي تعجبك؟ تعالَ هنا لأريك كيف أقطع قضيبك. سنرى بعد ذلك إن كنت ستحوم حولها».

خاف بولاكو كما لم يخَف من قبل. اعتذر متلعثماً وحلف بألّا يرفع بصره نحوها.

«لا، يجب أن ترحل. هذا أمر، ليس أمامك خيار. وأسرع، لأني خبير في بتر القضبان...».

بين عشية وضحاها جمع بولاكو أمتعته. يُقال إنه استقر في الدار البيضاء حيث فتح محلّ جزارة كاشير، بمساعدة الحاخام الأكبر. خلال ذلك، بسبب تلك الحكاية التعيسة، فقد أمير وإبراهيم أفضَل مورد، واضطر أمير لتغيير نشاطه. أصبح يشتغل

Tele: @Arab_Books

مع الهنود، ويبيع آلات تصوير؛ ترانزستورات فيليبس وحاكي (مدور أسطوانات) تيباز وأقلام باركر مستوردة.

في طنجة كان أمير يعيش بعيداً عن أبنائه الثلاثة الآخرين. كان الولدان يدرسان في مصر. أما بالنسبة إلى الفتاة، المتزوجة، فقد كانت تعيش في وجدة ولا تصله أية أخبار عنها. لم يكونوا يزورونه سوى في عيد الفطر وعيد الأضحى. لم يتقبلوا وجود نابو في حياة والدهم أبداً. وحده كريم كان يتقبَّلها بشكل تام، وعرف كيف يتجاوز الحزن الذي سببه له وفاة والدته.

هذه العلاقة المتوترة مع أبنائه كانت تُشعر أميراً بالتعاسة. كان ذلك قد أرسى عنده شعوراً بالحزن يصعب علاجه. قلّ اهتمامه بنفسه، أصبح يباشر عمله من دون حماس، كما أصبح صموتاً ومحبّاً للعزلة. وحده وجود نابو وكريم وكذلك الأمل في توفير مستقبل جيد لحسن وحسين كان يجعله يتماسك. لذا كان يحرص على الاهتمام بدراستهما وهنائهما.

ظلّت نابو حنونة ومتواطئة معه، تبسِّط من أجله الحياة اليومية وتحاول تجنيبه المضايقات. في الصيف، عندما كان ابنه البكر يأتي من دون سابق إنذار ويطالب بحقّه في ميراث والدته بالصراخ، كانت تهدِّئه وتنجح غالباً في جعله ينصرف قبل وصول والده. كانت تنصحه بالتصالح معه، والذهاب لرؤيته وطلب رضاه، لكنه كان يرفض بعناد ويتفوّه بتهديدات ضده.

ذلك النوع من التصرّف لم يكن مقبولاً في تلك الفترة. لم يكن يحقّ للأبناء مؤاخذة الآباء في أيّ حال من الأحوال. كانوا يخاطرون بالتعرّض للطرد من العائلة وحتى إمكانية الحرمان من

Tele: @Arab_Books

الإرث. كان ذلك نادراً ما يحدث. حصل ذلك لحمزة، ذلك الابن الثائر الذي تعاون مع الشرطة الفرنسية في الوشاية بعمّه وأصدقائه الذين كانوا مجتمعين في بيت مهجور من أجل تنظيم المقاومة ضدّ الوجود الفرنسي بالمغرب. عندما عرف الأب أن الخائن لم يكن أحداً آخر سوى ابنه، ذهب إلى وسط الديوان، سخط عليه علناً وسحب رضاه. هرب الابن ولم يظهر ثانية أبداً في المدينة العتيقة.

مع مرور الوقت ورغم بعض المشاكل، تأقلمت نابو مع المجتمع الطنجي، الذي امتاز بفضل كونيته، بكونه أكثر انفتاحاً من مجتمع فاس. كان هناك مدرِّس أسود في المدرسة الأميركية. كان اسمه جيم، وكانت نابو تعرفه قليلاً. كان رجلاً ساحراً ينظم مرة كلّ أسبوع حصصاً يمرِّر فيها أسطوانات الجاز بعد تقديمها والتعليق عليها. كانت نابو تحضر أحياناً رفقة التوأم. بتلك الطريقة بدأ حسن يعرف تلك الموسيقى التي كان يفضلها على الأغاني المصرية التي تعرضها الإذاعة طيلة اليوم. تعلّم الإنجليزية معه وأصبح صديقاً له. قال له جيم إنه يحلم بالذهاب يوماً لزيارة أرض أسلافه، في غينيا أو مالي. كان يقوم بأبحاث وشرح لحسن بأنه يحسّ أنه أفريقي بقدر ما هو أميركي. ذلك اليوم، استوعب حسن فجأة الشيء الذي كان يجمعهما. مثل جيم، كان بإمكانه أن يقول إنه أفريقي بقدر ما هو مغربي. كان اكتشافاً بالنسبة له.

جيم، الذي كان يكتب تاريخ البْلُوزْ والميز العنصري الذي كان الموسيقيون والمغنون السود ضحية له، حكى لحسن حياة

Tele: @Arab_Books

بيلي هوليداي وأسمَعَه العديد من أغانيها. ذلك الصوت المجروح والمكلوم، الجميل والمؤثر كان يُخبر عن كلّ العنف الذي مارسه البيض من دون عقاب على شعب أميركا الأسود. عرفت الدعارة وهي صغيرة، المخدرات والكحول. ثم ماتت في الرابعة والأربعين بسبب تلف الكبد. تشكّل لدى حسن وعي بأنّ العنصرية لم تكن مجرّد حادث من التاريخ لكنها مصيبة تلتصق بجلد الإنسان، حيثما كان. حدَّث بذلك حسين، شقيقه التوأم، الذي وإن كان قد استمع إليه باهتمام، لم يحسّ بمقدار المأساة التي يعيشها شقيقه. لاحظ حسن الذي كان حساساً جداً ذلك، وتذكّر المثل المغربي: «ما يعرف المزود غير لي كلا منو».

كانت نابو الموهوبة في تعلّم اللغات، تتحدّث العربية من دون لكنة وتخرُج متدثّرة في جلباب جميل، متردِّدة باستمرار على المسجد الموجود في حي الصياغين، مباشرة قبل المنحدر الذي يؤدي إلى الميناء، خاصة في ليالي رمضان. بقية الوقت كانت تستعير كتباً من المكتبة الفرنسية، تقرأها وقلم رصاص في يدها تكتب الجمل التي تعجبها في دفتر مدرسي. في المساء كانت تقرأها على زوجها وتنطلق في خطب عظيمة حول أهمية الأدب. كانت نابو تُدهش أمير بروح المبادرة والتعطّش للمعرفة. كان يحبّ تلك اللحظات حيث تتقاسم اكتشافاتها معه. ذات يوم أحضرت إلى البيت طبعة الجيب من ألف ليلة وليلة التي اشترتها على رصيف شارع إيطاليا. بدأت بقراءة حكاية لأمير، الذي واصلها في الحال - كان يعرف الأساسي من التراث الشفوي.

Tele: @Arab_Books

أصبح ذلك لعبة ممتعة ومثيرة تجمعهما. كانت تحبّ التفاصيل المؤنسة، تكشِّر وتمسك كف أمير وتضعها على صدرها. كانت حصصهما تنتهي عادة بحركات جنسية تضحكهما. كان حبهما حاضراً، كانا يعيشانه بحدّة، ولم يكونا بحاجة إلى كلمات كلّ الناس للتعبير عنه. لم يكن أمير يشكّ في عواطف نابو تجاهه. كان متأكداً إلى درجة أنه ذات ليلة، أيقظها، قبّل يدها وأعلن لها:

«نابو، أنت حياتي، أتمنى أن أكون في مستوى حبك!»

ارتبكت نابو ولم تقُل شيئاً، قبَّلت كفيه ونامت بين ذراعيه.

في اليوم الموالي، ذهب إلى المحطة لملاقاة مولاي أحمد، الذي كان سيستقل بعد بضعة أيام السفينة إلى الجزيرة الخضراء ومنها إلى محطة المعالجة بالمياه المعدنية الحارة انجارون، في إسبانيا، حيث كان سيلتقي أصدقاء في نفس عمره يعانون من الروماتيزم. دعاه إلى البيت ورأى أنه من المناسب أن يحدِّثه عن مقدار حبه لنابو. نظر إليه الحكيم العجوز بقسوة وقال له: «هي تسعدك في السرير، هذا كل شيء. لا تخلط هذا الأمر بالحب. احذر من النساء، هن قادرات على أن يحطِّمن في الغد ما أُغْرِمْنَ به، اليوم! الحب، ما هو؟ هل كان والداك يتحابان مثل أبطال الروايات؟ أنت تفقد عقلك وتخلط بين المتعة الجنسية التي تمنحك إياها هذه المرأة مع الشعور النبيل والنادر الذي هو الحب، والذي ليس محتاجاً لأن يهلَّل له فوق الأسطح وفي أزقة المدينة العتيقة! قليل من الحياء، صديقي وتمالك نفسك!» بعد مراقبة الزوجين، أمير ونابو، ندمَ مولاي أحمد على كلامه. كان

Tele: @Arab_Books

هناك حُبٌّ بينهما، وأثّر فيه ذلك كثيراً إلى درجة أنه بعد صلاة العشاء، جمع كفّيه وتضرّع إلى الله بأن يحفظهما من الشرّ الذي يحوم حولهما.

التحق حسن وحسين بالثانوية الفرنسية رينيو بطنجة، عندما حاول ضباط وتلامذتهم، انطلقوا ذات صباح باكر من ثكنة هرمومو، اغتيال الملك. كانوا قد قاموا بمجزرة في الصخيرات خلال الحفل الذي أقامه بمناسبة عيد ميلاده. ذلك الانقلاب الفاشل أعيدت كرته سنة 1972. قانون الطوارئ، الذي أعلن في منتصف الستينيات، أدخل المغرب في منطقة عواصف بدَت كأنها لا تنتهي. نصح أمير ابنيه بتوخّي الحذر وعدم الاهتمام بالسياسة. كانت مطاردة المعارضين قد بدأت. اعتقالات وأحياناً اختفاءات قسرية. كانت نابو خائفة، لأنها كانت تحسّ أنّ حسن، في قرارة نفسه، كان ثوريّاً.

في الثانوية، كان حسن يجتهد أقلّ بكثير من أخيه. كان الأسود الوحيد في تلك المؤسسة التي كان غالبية تلاميذها بيضاً وفرنسيين. كان هناك سليم، من أب من المارتينيك وأم مغربية، لكن بشرته كانت واضحة. كان الولدان التوأم ملتحمين، لم يكونا يختلطان بباقي التلاميذ، وكانا يصلان إلى الثانوية دائماً معاً وينصرفان جنباً إلى جنب. أصبح أمير يخرج بشكلٍ أقل فأقل، ويفضّل البقاء مع نابو التي كانت تحب تدليله. كانت آلام الظهر تفرض عليه البقاء في الغرفة. كان يشعر بصعوبة في المشي. كانت حالته تسوء وكانت نابو تختبئ كي تبكي. عندما كانت

Tele: @Arab_Books

تصل رياح الشرقي إلى طنجة، كان جميع مَن في البيت يصبح عصبياً وغاضباً. كان كريم يفقد الصبر، ويتغيّر مزاجه. والولدان التوأم يسارعان إلى السينما.

في غضون بضعة أشهر، ساءت حالة أمير الصحية تماماً. لم يتوصّل الأطباء، الذين أصبحوا حالياً يأتون لرؤيته، إلى تحديد المرض الذي كان قد استنزفه. كان يهزل ويفقد الرغبة في الحياة. كانت نابو تصلي ليل نهار وتطلب من الله أن يمدّ في عمره قليلاً. كان كريم يحسّ أنّ المصيبة تقترب من بيتهم. كان يملك حسّاً داخلياً فظيعاً. أمّا بالنسبة إلى العم إبراهيم فقد كان يرعى تجارة أخيه. كان قد وجد وسيلة رائعة تضمن للعائلة دخلاً معقولاً. انتهى زمن الأجهزة التي تُشترى من الهنود. أصبح المتجر يعرض حالياً أدوات تجميل مستوردة من أوروبا وأميركا. كان فريداً من نوعه في طنجة، وكانت النساء يقفن طوابير من أجل الحصول على العطور والكريمات التي تُباع فيه، والتي لم تفتأ مجلات الموضة تشيد بمزاياها. كان حسن وحسين يتعاونان مع ابن عمهما الصغير، آخر أبناء إبراهيم.

عشية وفاة أمير، انتابت كريم نوبة بكاء حادّة يستحيل إيقافها. أحسَّ قبل أيّ أحد أنّ ساعة والده قد حانت. لم يكن يجرؤ على دخول الغرفة حيث يُحتضر والده بين ذراعَي نابو.

عند رؤية حالة أخيهما، فهمَ حسن وحسين وضع والدهما. تمّ استدعاء العم إبراهيم. وكان هو مَن تولى إمساك سبابة الكف

Tele: @Arab_Books

اليمنى لأمير من أجل نطق الشهادة، آخر كلام يخرج من فم المسلم:

«أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله».

لم يتمّ انتظار مجيء الولدين اللذين يدرسان بالقاهرة. أما بالنسبة إلى الفتاة فقد وصلت في المساء رفقة زوجها البغيض، الذي لم يحمل عناء إخفاء عنصريته وغطرسته. بحسب العادة كان الميت يدفن في يوم الوفاة نفسه. اهتمّ العم إبراهيم بكلّ شيء. كانت نابو متماسكة في ثياب الحداد؛ بدأت تظهر عندها شعيرات بيضاء، بسبب الاختبارات والإهانات والشتائم المجانية في الشارع أو في السوق أكثر منها بسبب السن. كان قد مرّ وقت طويل لم تعُد تتفاعل فيه، أصبحت تكبِتُ غضبها وتفضِّل رؤية ما هو جميل وجيّد في حياتها. كانت تعرف بيُسرٍ كيف تترك مسافة بينها وبين مَن يتعدّى عليها. لم تكن تحقد على أحد وتصلّي بصمت قبل أن تنام وتفكر في شجرة البوباب التي تناديها سراً لمساعدتها. بفضل ارتباطها بالتقاليد وبفضل ذكائها وصبرها، كانت تقاوم وكما نصحها زوجها بذلك تفضِّل رؤية المزايا لدى الناس بدل أن تركِّز على أخطائهم ورذائلهم. الآن وقد ذهب أمير، ماذا سيكون مصيرها؟ ألقت نظرة حنونة على ابنيها وأخذت كريم، الذي كان دوماً سنَدَها وشريكها، بين ذراعيها.

ارتدت نابو ثياباً بيضاء كي ترافق زوجها إلى المقبرة، لكن إبراهيم أفهمَها أنه في المغرب، لم يكن مسموحاً للنساء بالسير في الجنائز. هكذا كان. يمكنها أن تذهب لتدعو على قبره متى شاءت. بكت واختلطت بالنساء اللواتي جئن من أجل العزاء.

Tele: @Arab_Books

لاحظ حسين في الموكب رجلين لم يكن يبدو عليهما أنهما من العائلة. مالَ حسن ليهمس في أذنه بأنهما من الشرطة. كانت عادة في ذلك الوقت، كان على النظام معرفة ومراقبة كلّ شيء. أثّرت حالة المقبرة المزرية في الولدين. أكياس بلاستيكية، قناني فارغة وأوراق وبراز وروث الكلاب والقطط والبغال. اقترح شباب سود في المدخل سقاية القبور. كانوا في الواقع يتسوّلون، أعطاهم أحدهم قطعة أو قطعتين. وفي الحال قام متسوّلون بيض، من قراء القرآن بطردهم بالحجارة. تذكر حسن قريبه حفيظ الذي هاجر إلى السويد لأنه يعتبر المغرب شديد العنف. كم هو محقّ.

تمّ الدفن بسرعة أرعبَت التوأم. كأنهم يرغبون في إنهاء الأمر بأسرع ما يمكن، تغطية الجثمان بالكفن الأبيض، وضع حجارة اللحد، رصّها بالإسمنت، وضع التراب فوقها، رفع اليدين وأداء صلاة الجنازة. عندما تمّ كلّ شيء، فرق أحد الرجال الخبز المستدير والتين المجفف. دفع إبراهيم أجرة لحفاري القبر، فرّق مالاً في طريقه. ثم عادوا إلى البيت.

حلّت ساعة الحقيقة. الساعة التي يكون فيها الغائب حاضراً في جميع الأذهان. خلال الدفن، حرصت نابو على تغطية مرايا البيت بغطاء أبيض، وكذلك التلفاز. كانت قد حضَّرت وجبة بسيطة من أجل المدعوين: خبز وزبدة وعسل. أثار البعض ذكرى أمير، وتحدّث آخرون عن ثمن الأرض الذي ارتفع، وغامر آخرون بالتحدّث بصوت خفيض عن مستقبل نابو الجميلة. كان يبدو أن هناك مَن هم مستعدون للزواج منها في الأسبوع نفسه! كم تغيرت الأمور منذ وفاة للّا فاطمة. كانت إحدى اللحظات

Tele: @Arab_Books

الخاصة جداً. كان الحزن حاضراً، لكن الحزن لم يكن يُعاش بالطريقة نفسها. كانت نابو تنظر إليهم ولا تعقد أوهاماً حول الإنسانية. الشّيء نفسه كان سيحدث في بلدها. أنانية الرجال لا تعرف أيّ حدود. إلّا أنه هنا في طنجة كان الرجال يفتقدون للأناقة والحياء.

ثم تسارعت وتيرة كلّ شيء. اهتم العم إبراهيم بالإرث، الذي لم يكن بقدرٍ كبير ووزّعه على الأبناء الستة، بالإضافة إلى حصة بسيطة لنابو. واعية بأنها لن تستطيع تدبّر أمرها بحثت عن عمل. واصل حسين الاهتمام بالدكان، كريم الذي اكتشف عنده شغفاً بالعطور، أخذ يمضي أيامه عند مدني، صانع العطور الذي استقر في السوق الصغير. كان مدني يعلّمه كيف يفرِّق بين الوردة والياسمين، العنبر والمسك، خشب الصندل وعطور أخرى.

يوماً بعد يوم، طوَّر حاسة شم ممتازة وحصل على مهارات الأنف. كان رب العمل يقدِّره والنساء يبحثن عنه من أجل نصائحه، شقَّ لنفسه طريقاً يُثير الحسد. هو، الطفل المُعاق، الطفل الذي كان الطبيب الفرنسي يرغب في إخفائه عند إحدى الجمعيات بفرنسا، هو، الذهن المتّقد والرياضي، الكائن الذي لا يعرف الشرّ، الحساس، كان قد وجد طريقه أخيراً. سيكون أنفاً. لم يكن محتاجاً إلى التحدث ولا إلى كتابة صفحات حتى ولو أنه لم يكن يفترق عن آلته الكاتبة التي أهداها له خال الدار البيضاء. كان يصف العطور بواسطة عينيه ونظراته وبواسطة يديه اللتين تقومان بحركات محدَّدة شبيهة بحركات قائد أوركسترا.

Tele: @Arab_Books

كانت نابو سعيدة بكمّ الموارد التي يتوفر عليها الطفل وقدرته على استغلال فرصته. فكرت في أمير، كان سيكون فخوراً به. انتشرت سمعة كريم في أرجاء المدينة. اعتبر عبقرياً. كان البعض يدّعي أنه يعرف العطور أفضل من رب عمله. كان العجوز مدني يسخر من ذلك، فقد كان سعيداً لأنه وضع الشاب على طريق مهنة تتطلب خصوصية بحيث يجب على المرء أن يكون حرفياً بقدر ما يكون فناناً. كان كريم قد أصبح الاثنين.

رغم تضامنهما في جميع المحن، لم يكن لحسن وحسين التصور نفسه نحو الحياة. كان حسن مهووساً بأصوله، بلون بشرته. وكان يخطِّط للذهاب إلى السنغال على خطى عائلة والدته. عندما كان يأتي لرؤيتها، كان يطرح عليها العديد من الأسئلة التي لم تكن تجيب عنها كلها، أو على الأقل ليس بطريقة مُرضية. لم تكن ترغب في أن يثير الماضي، الذي كانت تفضِّل أن تراه مندثراً. كيف يمكن أن تحدِّثه عن عائلتها المشتتة ووحدتها والرجال الذين عرفتهم قبل أمير؟ كيف تُخبره فجأة عن كلّ تلك الأشياء التي أخفتها؟ كانت التقاليد الفاسية والأخلاق الإسلامية تدينها بالكامل. لذا كانت تتفادى أسئلة حسن، تُعيد صياغتها، آملة أن تثني ذلك الابن شديد الفضول.

كان حسين أكثر برودة وهدوءاً وينساق وراء الحياة. كان يكتفي بالقليل الذي قيل له عن حكاية والديه ويحرص على ألّا يضايق شقيقه. في البداية كان حسن يساعده في الدكان، لكن حسين كان يلاحظ عدم اهتمامه بالعمل. إذ إن بَيع أدوات تجميل للنساء لم يكن شيئاً يُثير اهتمامه، وكان ينظر بعيداً. ذات يوم

Tele: @Arab_Books

جاءت امرأة سوداء. اقترب منها حسن كي يخدمها. دفعته وهي تقول: «أريد أن يخدمني رب العمل، وليس أحد خدمه!» لم يُجب، خلع بذلته البيضاء وغادر الدكان. عرف فيما بعد أنّ المرأة كانت تدّعي أنها من أقارب الملك وكانت تعتبر نفسها أميرة تبعاً لذلك. كانت لها فكرة جدّ متعالية عن نفسها إلى درجة أنها كانت تنسى لون بشرتها وتحتقر الفقراء والسود.

أصبحت نابو حالياً قادرة على توفير قُوْتها. كانت تشتغل بالخياطة. مزيج من الفاسي والسنغالي، اخترعته بنفسها. كانت زبوناتها من الأوروبيات بشكلٍ خاص اللواتي يجدن في شغلها أصالة مثيرة للاهتمام. بتلك الطريقة دخلت إلى المجتمع المنغلق جداً للجالية الأجنبية في طنجة، حيث القليل من المغاربة يُقبَل فيه.

وعند واحدة من أفضل زبوناتها، الكونتيسة إيلينا بلومفيلد، تعرَّفت على رالف وخوان كارلوس، ثنائي مِثْلي يعيشان بين أمستردام وميامي. كانا قد اشتريا بيتاً عتيقاً في القصبة. كان رالف أستاذاً جامعياً ورفيقه راقصاً في فرقة كولومبية تقدِّم عروضاً كثيرة في إسبانيا. خلال أحد العروض في الكازينو الدولي في طنجة، تعلَّق خوان كارلوس بالمدينة وقرَّر أن يشتري فيها بيتاً. كانا في حاجة إلى شخص موثوق ليعتني ببيتهما خلال غيابهما. كانا يجيئان في الصيف خاصة وأحياناً في الربيع. كانت نابو تناسب تماماً ما يبحثان عنه. «يمكن أن تستمري في شغل الخياطة، المهم هو أن تفتحي النوافذ من حين إلى آخر بسبب

Tele: @Arab_Books

الرطوبة، وأن تنظفي البيت وتحضِّريه عدة أيام قبل وصولنا. إذا رغبتِ في ذلك نسمح لك أيضاً بالسكن فيه، أنت وأبناؤك، يوجد ما يكفي من المكان. عندما نكون هنا، ستتكفّلين بكل شيء، التسوق وتحضير الأكل، إن قبلت».

تحدثت نابو مع أبنائها عن ذلك، قبلوا العرض. قال لها كريم بأنه لن يهجرها أبداً. أجابها حسين: «ولِمَ لا!» أما بالنسبة إلى حسن، فقد عبّر لها عن دعمه طالباً منها أن ترضى عنه فقط، الشيء الذي كان يوليه اعتباراً كبيراً، يوليه شيئاً من السحر والغموض هو وحده مَن يفهم كُنهَه.

كان بيت رالف وكارلوس يفضي إلى البحر، كان محتاجاً إلى الترميم. خلال الشتاء، كانت نابو تُشعل المدفأة كما طلب منها كي تقاوم الرطوبة. كانت تهتم بالتنظيف بانتظام وتحضِّر الغرف كما لو كان المالكان سيدفعان الباب في أية لحظة. كانت أحياناً تتوقف أمام سرير غير مرتب. كانت تفكر في الأوقات السعيدة التي عاشتها مع أمير وتبكي بصمت. لم تكن تذكُره علناً أبداً.

ذات يوم خلال عملية تنظيف شاملة، كسرت عن غير قصد مزهرية من خزف الكانتون عائلة الوردي. كانت يائسة ولا تعرف كيف تتصرف. كان من المستحيل ترميم الشظايا. خرجت تقوم بجولة في محلات بيع التحف بحثاً عن مزهرية مشابهة. بتلك الطريقة تعرَّفت على سيدي بوبكر الذي كان يملك متجراً في

Tele: @Arab_Books

شارع الحرية. عندما دخلت، كان جالساً في خلفية الدكان، مستغرقاً في قراءة القرآن. كان يعرف نابو من خلال الكلام، لأنّ رالف وخوان كانا من ضمن زبائنه. قصَّت عليه المأساة. طمأنها سيدي بوبكر الرجل الكريم والطيب:

«أعرف جيداً عن أية مزهرية تتحدّثين. كانتا اثنتين، لكن رالف لم يهتمّ سوى بواحدة. أملك الأخرى، المشابهة تماماً للمزهرية التي تكسَّرت. خذيها وسأقوم بتسوية الوضع مع رالف. وخاصة لا تقترحي عليّ دفع ثمنها. سأعرف كيف أسوّي الأمر مع رب عملك، إنه صديقي. على أي حال، سعرها خيالي. هيا، سأطلب من محمد أن يقوم بتغليفها. ضعيها في مكان أمين، بحيث لا تتكسر قبل مجيئهما. قبل وصول المالكين أخرجيها وضعيها مكان الأخرى. سيكون السرّ بيننا».

لم تعرف نابو كيف تشكر سيدي بوبكر. ما عدا أمير لم تكن قد التقت رجلاً بنفس كرمه. في اليوم الموالي، عادت تحمل وشاحاً طرَّزته بنفسها وقدَّمته إليه: «إنه من أجل زوجتك، أتمنى أن يعجبها». قالت في نفسها وهي تنصرف: من حسن الحظ أنه يوجد رجال من هذا الصنف، هم مسلمون حقاً.

لكنها لم تخطُ ثلاث خطوات خارج الدكان، في طريقها منصرفة، حتى جاء رجل ضامر يضايقها:

«سأبلّغ عنك، سأبلغ عنك، لقد قتلت للّا فاطمة، لقد قمتِ بتسميمها».

أسرعت نابو الخطى. كان يتبعها دوماً، مواصلاً اتّهامها ومقدِّماً تفاصيل مثيرة. في إحدى اللحظات، عندما لمحت نابو

Tele: @Arab_Books

رجل شرطة، أطلقت صيحة جعلت الدخيل يهرب. لكنها أحسَّت أنه سيعود قريباً من أجل ابتزازها.

في الأسبوع الموالي طرق الرجل الضامر باب الفيلا. كان حسن هو الذي فتح. تعرَّف عليه من خلال وصف والدته، انقضّ عليه ورفعه آمراً إياه بصوت حازم:

«لو تجرأت يوماً على الاقتراب من والدتي، أقسم بأني سأهشِّمك مثل بعوضة أو صرصور، أيها الفاسد. شيء آخر، هذا الحي محرَّم عليك ما دمت حياً. هذا ليس كلاماً فقط، إنه أمر».

وضعه على الأرض. انزلقت قدما الرجل القصير في صندوق القمامة، سقط، نهض وانصرف يعدو. لم يروه أبداً من بعد ذلك.

في المساء، حكت نابو لكريم عن الحادث. جلس أمام آلته الكاتبة وحرَّر رسالة إلى الرجل القصير: «الحياة جميلة، وأنت، لست جميلاً!».

ذات يوم، جاء حسين لرؤية أمه في الفيلا. تردَّد لحظة ثم أعلن الخبر:

«سأتزوج!».

واصلت نابو غسل الأرضية بمسحوق أميركي يجعلها تلمع بسرعة وبشكل جيد، ودون أن تنظر إليه مباشرة قالت:

«جيد، ولدي. لكن شقيقك؟ هل فكرت فيه؟

- لا تريدين أن تعرفي مَن سأتزوج؟

Tele: @Arab_Books

- أجل، بالتأكيد. لكني قلقة بشأن شقيقك».

- بالنسبة لها كان على التوأم أن يتزوجا في اليوم نفسه، احتراماً للتقاليد وأيضاً بسبب قلة مواردها. إذا تزوج حسين الأول، مرة أخرى، سيكون قد مورس تمييز ضدّ ابنها الأسود. سيعيش مستاء، بخاصة أنه مؤخراً لم يكن حسين الذي انشغل بأعماله يقوم بشيء من أجل رفع معنوياته.

لم ينصت حسين باهتمام إلى كلام والدته، كان يرغب في أن يخبرها بأنه وجد أخيراً امرأة حياته. كانت سليلة عائلة كبيرة في طنجة، وكان تواقاً لإضفاء الشرعية على تلك العلاقة.

عندما أخبرت نابو حسن بالأمر، استمع إلى أمنية والدته ووعدها بأن يفعل كلّ شيء كي يجد امرأة بأسرع ما يمكن. لم يذكر لها حوادث العنصرية الكثيرة التي كان ضحية لها، إجمالاً كان قد تمّ قبولهم من طرف الجميع ولم يعودوا يصدمون أحداً، لكن حسن لم يتعوّد على ذلك وكان يكرِّر لأخيه: «إما أن يتقسّى القلب أو أن ينكسر، أما أنا فأقسّيه كل يوم أكثر!».

في وقت لاحق أخبره حسين عن رغبته في الزواج. ضمّه حسن بقوة بين ذراعيه وتمنى له السعادة. هو أيضاً كان له سره، سرّ أثقل بكثير: كان له ابن من امرأة أجنبية، مينا، خلاسية تشتغل في قنصلية إسبانيا. لم تكن قصة حب، فقط خلال حفلة رقص فيها الجميع بعد أن أفرطوا في الشرب، جذبها نحوه، ألصقت شفتيها المحمومتين بشفتيه. اصطحبها حسن الذي كان يعرف المنزل جيداً إلى الغرفة الرئيسة حيث مارسا الجنس عدة مرات دون أن يتبادلا الحديث. كان انجذاباً من دون كلام.

Tele: @Arab_Books

جسدان يشعران برغبة مجنونة في أن يلتقيا ويلتحما. في اليوم الموالي، افترقا بعد أن ترسَّخ عندهما انطباع بأنهما اقترفا خطأ.

ذات يوم جاءت مينا، مشرقة، إلى الدكان وأعلنت لحسن بأنها حامل ولا ترغب البتة في إسقاط جنينها. لم تطلب منه شيئاً، طمأنته وأخبرته بأنها سعيدة لأنها حامل بذلك الطفل. أحسَّ حسن بالتوتر والقلق ولم يقل شيئاً لأحد منتظراً ولادة الطفل بنفاد صبر. جاء الطفل، وكانت بشرته بسواد بشرة والده نفسه.

اضطرّت مينا للتخلي عنه بسبب ضغط والديها وأيضاً بسبب سلطات القنصلية التي هدَّدتها بالطرد. باتفاق مشترك، عهدا بالصبي إلى راهبات إسبانيات كنّ يشرفن على جمعية من أجل الأمهات العازبات في حي مرشان. بمقابل بعض الأوراق التي دسَّها في جيب العدول، اعترف حسن بالطفل وسمّاه سليم. تمّ تسجيله في سجل الحالة المدنية على هذا النحو، من «والدة متوفاة عند الولادة». أخبر حسن الراهبات بأنه سيأتي ذات يوم ليأخذه. كان ذلك اليوم قد حان.

عندما حدّث حسن والدته عن ابنه، أجهشت بالبكاء ولامته لأنه لم يعهَد به إليها في حينه:

«لكن كم عمره؟

- سنة.

- كنت سأكون سعيدة! هل تُدرك ذلك، كنت جدة ولم أكن أعرف! أعطني الصغير، إنه تحفة، هبة من الله. لكن لماذا لا تتزوج والدته؟».

Tele: @Arab_Books

شرح لها بأنّ الأمر معقد، وبأن عائلتها كانت كاثوليكية وجدّ محافظة وبأنّ القنصلية لن ترضى عن ذلك. صرَّح لها بأنه لم يكن مغرماً وبأنه في جميع الأحوال لن يعارض إن رغبت مينا في رؤية الطفل. كان قد اتصل حديثاً بالقنصلية من أجل الحصول على أخبارها، علم أنها سافرت مع والديها دون أن تترك عنواناً، بلا شك إلى كوبا التي تنحدر منها.

بدأ حسن إذن يبحث عن زوجة. تذكَّر أن أحد أقاربه، وهو عارض أفلام في سينما بفاس في المدينة الحديثة، كان قد تزوّج بعد نشر إعلان صغير في مجلة عن السينما المصرية، **الكواكب**. كانت شابة عرجاء، لكن ذلك لم يكن يظهر على الصورة، ردت على إعلانه. تواعدا بعد عرض فيلم بالأبيض والأسود يلعب فيه فريد الأطرش دور عاشق ولهان بلا جدوى ويرثي لحاله بأداء أغانٍ طويلة ومملّة. علّقا على الفيلم وهما يضحكان. في اليوم الموالي التقيا عند العدول الذين زوّجوهما.

أراد حسن أن يجرب حظه، لكن المجلة المذكورة كانت قد توقّفت عن الصدور. وكان هناك برنامج إذاعي في إذاعة طنجة عنوانه «صداقات». تسجّل وبتلك الطريقة تزوّج مع زينب، امرأة مطلقة لا تستطيع الإنجاب. كانت جميلة، بشرتها داكنة تقريباً. كانت تدرس في المدرسة الفرنسية بيرشي. عندما أخبرها حسن بكونه أباً لطفل، اقترحت أن تربيه كما لو كان ابنها. لكن نابو كانت تحرص على الاهتمام به بنفسها.

كان سليم طفلاً موهوباً، يفهم كلّ شيء بسرعة، لكنه كان

Tele: @Arab_Books

كسولاً ومزاجياً. كانت نابو تدلِّله ولم يكن والده يستطيع فعل شيء. نتائج مدرسية متواضعة. كان يمرّ بصعوبة إلى القسم الموالي. ذات يوم وبَّخه والده. نطق سليم بهذا الكلام: «ما جدوى أن أتعلم أشياء أعرفها بالفعل؟».

كان سليم في النهاية مشاكساً. عند أقل تلميح عنصري، كان يتعارك. كان ثورياً، الشيء الذي كان والده معجباً به في سره.

Tele: @Arab_Books

الفصل السادس

طنجة، سنة 2010. كان حسن يجد متعة في استعارة سيارة شقيقه حسين الألمانية والذهاب للبحث عن سليم كي يرافقه في جولته على الطريق الدائري الذي يحيط بالمدينة. كان ينطلق من الميناء ويسير بمحاذاة البحر إلى وادي اليهود، حي شعبي بالمدينة. كان يحدث أن يتوقف ويتأمل القصبة من الخلف. على الحافة كان يمكن رؤية بعض دور الصفيح ثم البيوت التي تطلّ على بداية المحيط. كان هناك بيت إيف وتشارلز الشهير، قلعة يورك، التي أصبحت خراباً، قصر فوربس، مدرّجات مقهى الحافة وبعض قصور المشهورين. كان حسن يحب أن يحدِّد موقع بيت رالف وخوان، غير المرئي تقريباً. غالباً ما كان يلوّح بيده، كأنّ والدته تقف في النافذة وتستطيع أن تراه.

كان بول بولز قد مات الآن، كذلك أغلب أبناء جيله الذين كانوا يأتون إلى طنجة من أجل تدخين الحشيش والعربدة مع «صبيان رخيصين»، كما كان يقول ألان غينسبيرغ، أحد شعراء "Beat". تغيَّرت المدينة كثيراً. في المنازل الفخمة التي رمَّمها حديثاً خبراء ديكور وحرفيون جاءوا من لندن ومن أماكن أخرى

Tele: @Arab_Books

لم يبقَ شيء من روح طنجة القديمة وخرافاتها وأساطيرها. وانتهى وُصول شباب جنوب الصحراء، الذين فشلوا في العبور نحو أوروبا، بتغيير وجه المدينة وجسدها.

كانت ريح الشرقي تهبّ بقوة أكثر فأكثر؛ ضاع شيء ما. يقول البعض إنه السحر، ويتحدث البعض الآخر عن روح تكسَّرت، ذاكرة ملأتها الثقوب. اتّسعت رقعة المنطقة الصناعية وأخذت تلوّث من دون عقاب.

واصلت نابو الاهتمام بمنزل رالف وخوان كارلوس. أصبحت تحسّ بالتعب بسبب سنّها المتقدم والروماتيزم الذي أصابها. استمرّ حسن وكريم في مساعدتها أيام التنظيف الشامل. كان سليم يسبِّب لها بعض القلق. كان أحياناً يبكي ويطالب بأمه. حينئذٍ كانت تواسيه وتُخبره بأنها تحبّه. أصبحت علاقة زينب، زوجة والده الخرقاء، بحسن هشّة وتوقفت عن إرضائه. ذات يوم، وبعد أن لم تعُد تتحمل الوضع، جمعت أغراضها وعادت لتعيش مع والديها.

لم يكونوا يرون حسين سوى نادراً. لم يكن متجره يفرغ من الزبائن. وكان يعتزم فتح متجر آخر في شارع باستور وينوي تسليمه لشقيقه التوأم، لكن حسن كانت تسكنه العديد من الأسئلة ولم يكن يستطيع أن يُتقن شيئاً آخر. أصبح يحسّ شيئاً فشيئاً بأنه أحد السود الذين يحومون حول المقابر. بعد أن أضنته إخفاقاته، أصبح، مع مرّ السنين، رجلاً سوداوياً جداً ومنغلقاً جداً.

كان حسن يقضي معظم يومه يتجوّل وحده في المدينة، من دون هدف واضح. كان يلتقي في طريقه أفارقة يتسوّلون.

Tele: @Arab_Books

أصبحت أعدادهم كبيرة في طنجة. كان قد سمعَ بشأنهم إشاعة مفادها أنهم أكلوا كلّ قطط المدينة. اختلفت صيغ الإشاعة من مقهى إلى آخر ومن حمّام إلى آخر.

في ذلك اليوم، توقف طويلاً في طريقه، اتّكأ على أحد الأعمدة، حدق في رجل بنفس عمره تقريباً، نظر إليه بإلحاح وودّ، ثم ركّز وتصور نفسه في جلده. رأى نفسه يسير في الشوارع باحثاً عن عمل أو عن بعض القطع ليأكل. كان حسن يتوفّر على تلك القدرة الخاصة التي تتمثل في أن يُسقط نفسه في حياة الآخرين وفي ظروف جدّ معقدة. كان قد حلم فترة بأن يصبح كوميدياً، لكنه لم يجد في طنجة أية بنية للتعلم، وبشكل أقلّ لممارسة تلك المهنة. فجأة أحسّ بحمى باردة تجتاحه. تصبّب عرق على جبينه. تضببت رؤيته. تجمَّد لسانه. تعرَّض كامل جسده لتحوّل غريب. كان جلده الأسود يلمع وكان متأكداً من أنه يحمل قناعاً أبيضَ. عمّ صمت عميق حوله كما لو كان مبعداً عن الحياة المحيطة وأنه يستبدل جلده. كان بجانب نفسه، يغلفه الصمت، كأنه في عرض صامت.

قرّر أن ينصرف، لكنه أحسَّ بحركاته تصبح بطيئة وبصوته يأتي من بعيد. كان الأفارقة حوله يبتسمون رغم بؤسهم. كانوا يضحكون ويحدثون ضجيجاً لكنه لم يكن يسمع شيئاً. كان حالياً جزءاً من تلك المجموعة مع كونه غريباً عنها. أخذ يتقدَّم وتوجّه نحو محطة سيارات الأجرة أسفل شارع فاس. كان يحسّ أنّ شيئاً ما يقوده. قال في نفسه: إنه نداء القدر، أحسَّ بذلك، أنا متأكد من ذلك.

Tele: @Arab_Books

بعد أن استعاد السيطرة على نفسه فجأة، قصدَ أحد الشوارع، نادى على تاكسي جماعي، مرسيدس صفراء عمرها عشرات السنين، وقال للسائق: «خذني إلى صدام». بعد لحظة، سأل السائق: «في الواقع، لماذا يحمل هذا الحي هذا الاسم؟» أجابه ملتحٍ يرتدي جلباباً أبيض: «صدام، مثل صدام حسين، إنه شهيد، أهانه الأمريكان ثم قتلوه. كان وطنياً كبيراً، حارب إيران من أجل إخوته العرب، ثم بعد أن تمّ شراء كلّ الإخوة العرب، تخلّوا عنه. هذا لماذا يستحقّ حينا اسم صدام... ونحن فخورون بإطلاق هذا الاسم عليه... أنتم، في أفريقيا، ليس عندكم صدام، عندكم بوكاسا!» تَبِعَ ذلك قهقهة كبيرة.

كان بوسع حسن أن يذكِّره بالجرائم التي ارتكبها صدام ضد شعبه، لكن التحدث مع رجل ملتحٍ بدا له بلا فائدة، قال في نفسه: يبدأ الأمر بالسلام بعد ذلك يتطور... لا رغبة لي في تبرير نفسي... للرجل الملتحي معتقداته، ولي معتقداتي، لا جدوى من جعلها تتصادم، على أية حال هو قد صنَّفني بالفعل، أنا أفريقي. لا نتناقش مع هؤلاء الناس، نوافق أو نصمت... إنه الدليل على أننا لسنا ديمقراطيين. الجار الذي يرفض أن يخفض صوت تلفازه من النوع نفسه، أناني وغير متسامح ومتكبّر. هو أيضاً يزجّ بالإسلام في كل شيء. وأيضاً الآخر الذي يرفض دفع رسوم شقته لأنه يعتبر أن كل شيء من حقه. أو ذلك المحامي، المعروف بكونه يخسر جميع المرافعات، والذي يريد أن يقيم القانون، ويمنع الثنائيات غير المتزوجة من الإقامة في عمارته نفسها. هو أيضاً جزء من عصبة الفضيلة ضد الرذيلة.

Tele: @Arab_Books

النقاش مستحيل، لا حرية للتعبير عن وجهة نظرٍ معارِضَة. كان حسن يعرف حدوده. يحمِّل الإسلام كلّ شيء. كان بودّه أن يشرح لهم بأنهم يخلطون كل شيء ويبرّرون حماقاتهم باسم الإسلام الذي كان بعيداً عن تصرّفاتهم الأنانية والمتعصبة. قال لنفسه: في هذا التاكسي يوجد المغرب بمؤمنيه ووصولييه، بأفكاره المسبقة وتجاوزاته ثم هنا أنا، أنا الذي لستُ مسلماً صالحاً ولا أستطيع قول ذلك، أنا الذي أعتبر أجنبياً، متسولاً جاء من الساحل. توجد رغبتي في أن أتعارك مع هؤلاء الناس وفي الوقت نفسه يوجد الواقع لأني لن أحقّق أي انتصار، بالعكس، سيقتلونني دون محاكمة لو استطاعوا ذلك. من الأفضل أن أصمت، أن ألين جانبي وأنسى.

كان غارقاً في أفكاره عندما صرخ فيه السائق:

«أنت، أيها الكحلوش، لقد وصلنا، انزل».

«كحلوش»، تعني: عزّي، عبد، بالعربية... كان حسن قد سمع الكثير من تلك الشتيمة بحيث انتهى به الأمر إلى عدم الإجابة. كان بوسعه أن ينعتهم بـ: «كحروتو»، الكنية التي تُطلق على المغاربة البيض الذين لا ينجحون في شيء، لكن ذلك لم يكن مُجْدٍ. كحروتو! الشيء المهم ذلك اليوم هو أن يذهب ليرى بعينيه في أية ظروف يعيش أفارقة جنوب الصحراء.

بعد أن تسكّع قليلاً في حي صدام، وجد مقهى قبالة أحد الأماكن الرئيسة التي احتلها الأفارقة وجلس. غير بعيد منه، كان

Tele: @Arab_Books

أحد يحكي عن عراك حصل بين أفارقة مستقرين وقادمين جُدد. مسألة مراحيض. كان الزعيم الجديد قد قرَّر ألّا أحد يملك الحق في استعمال مرحاضه. «وإلّا؟» صاح أحدهم. «وإلا، قطعت قضيبك!» لم يكن يبدو عليه المزاح.

كان حسن في منطقة من المدينة لا تدخلها الشرطة إلّا بشكل استثنائي. كان الأمر على ذلك النحو منذ سنوات. ينظم الناس أنفسهم. يوجد زعماء ويسود نوع من النظام ما دام لا أحد يحاول مضايقة مَن كانوا يطلقون عليه «الرئيس».

كان رجلاً ضخماً وقصيراً، وكانت عيناه خضراوين، وتغطّي وجهه التجاعيد. ويستحيل تحديد عمره. كان يمثّل كلّ شيء في ذلك الحي حيث كان يراقب مرور الحشيش ويختار الفتيات من أجل إرسالهن لممارسة الدعارة في مالقا وماربيا. كانت للرئيس عدة كنيات: الديب (الذئب)، المنشار (يقال إنه يقطع ضحاياه بالمنشار)، الوزير (لأنه كان يتحرك في سيارة ليموزين سوداء، زجاجها مدخن)، النزق (الزئبق، يصعب إمساكه). كان الرئيس يمرّ فجأة ويحلّ المشاكل العالقة. طبعاً، هو لم يكن يسكن هناك، رغم حرصه على وجود مرحاض خاص به؛ لا أحد كان يعرف مسكنه. كان يتمتّع بحماية عالية، وعندما كان أحد حراسه يخطئ في حقه، كان يتخلّص منه. يحكى أنه إذا قال لأحد ما: «هذه الليلة سنذهب معاً للصيد»، فذلك يعني أنّ ساعته قد حلّت.

ذات يوم، وبينما هو في مخيم آخر كان تحت سيطرة أحد شركائه مات نتيجة نوبة قلبية، فاجأ أحد رجاله يُدلي بمعلومات

Tele: @Arab_Books

لشرطي بلباس مدني. تركه يفعل، وغيّر مخططاته. بعد ذلك أحضر أحد أقربائه الصغار، شاب عشريني، وضع بين يديه مسدساً وأمره بقتل «الخائن». عندما رفض الولد، نزع السلاح من يده وأطلق رصاصة في جبين كلّ منهما. حصل ذلك أول أيام رمضان، على حافة الرميلات، قبالة خط التقاء المحيط الأطلسي والبحر المتوسط.

كان يحدث أن يعبِّر الرئيس عن كرمه تجاه الأفارقة التعساء المجرّدين من متاعهم والذين يتسكعون في شوارع طنجة. كان يستأجر قارباً يملأه بحوالي خمسين رجلاً وامرأة، مقابل مبلغ زهيد، ويعطي الأوامر بالعبور بهم إلى إسبانيا. بعد أن ينطلق القارب في البحر، كان يأمر أحد رجاله بإعلام الحرس المدني في ألميريا . . . كان الركاب يجدون في استقبالهم جيشاً من رجال الشرطة والدرك ويسلمون أنفسهم دون مقاومة. بعد ذلك كان يتمّ ترحيلهم إلى بلدانهم بعد أن يقضوا بضعة أيام في أحد مراكز الإيواء.

من حين إلى آخر، في تلك الأحياء المنكوبة، كان المغاربة يعلنون الحرب ضد الأفارقة. كانت طنجة حينئذٍ تُظهر وجهها الأكثر بشاعة والأكثر إقلاقاً. طنجة - تلك كانت مجهولة، لم تكن جزءاً من الصورة. فقيرة وبئيسة، فوضوية وجانحة، مهمّشة وفاسدة، لم يكن يخطر بذهن أحد أن يذهب إلى ذلك الجزء من المدينة. كان حسن على علم بوجودها، لكنه إلى حين تلك اللحظة كان خائفاً جداً كي يُدرك الوضع. ربما بسبب لون

Tele: @Arab_Books

بشرته، كان يظلّ بعيداً عن جسد طنجة الآخر، هذا الوجه الآخر المليء بالثقوب والقيح. لكنه كان مع ذلك يحسّ بنفسه قريباً منه، هو، أسود بين سود، كان يعلم أن لا شيء يفصله عن أولئك المهاجرين غير الشرعيين من دون أوراق، المرشحين للمصائب والنفي المحفوف بالمخاطر والعيش تحت التهديد باستمرار.

تحدّث مع أخيه حسين عن ذلك. بالنسبة له كان ذلك العالم جحيماً يفلت من النظام، من كلّ الأنظمة. كان يسود فيه حكم القوي. كانت المافيا متواطئة فيه مع عناصر الشرطة والدرك. حسين، كان يفضِّل أن يبيع مواد التجميل للنساء اللواتي يأتين إلى متجره، واللواتي ينتظر بعضهن ساعة الإغلاق كي يدخلن ويخلعن جلابيبهن. ذات يوم، كما كان قد حكى لابن أخيه، وصل رجل وهو يصرخ مثل الحمقى. كان قد ترجاه ليخفض صوته. كان الآخر غضبان. كان يلومه لأنه باعَ لزوجته عطراً يجذب الرجال وكان يخاف أن تخونه. ضحك الجميع. كانت إحدى النساء المتقدّمات في العمر قد طلبت ذلك العطر المعجزة. انصرفَ الزوج وهو يلعن. كان حسين في شبابه قد عاش حياة صاخبة، على عكس شقيقه التوأم. كان يحبّ المرح ولا يحبّ أن يشعر بالمسؤولية تجاه شيء.

مؤخراً، كان الملك قد قرّر القيام بضربة كبيرة شمال طنجة من أجل نشر الذعر في أوساط مهربي الكَيف. تبعت ذلك عملية واسعة. لكن الشرطة جنت خيبة أمل، لم تجد في عين المكان

Tele: @Arab_Books

سوى تابعين. كان الزعماء الحقيقيون قد أخذوا احتياطاتهم واختفوا بين عشية وضحاها.

خرج حسن من المقهى وتابع تسكّعه. لم يكن حيّ صدام يتميّز بأيّ سحر. كان قد شيّد بسرعة، لصالح خطة حضرية صمّمت كما اتفق. لا وجود لشجرة واحدة في المكان. تمّ اقتلاع جميع الأشجار. يجب أن يكون المرء غنياً كي يستحق مكاناً أخضرَ. معظم المباني غير مكتملة. لم تصبغ الواجهات ولو بالجير، الطوب الأحمر عار، وبعضه مشقوق. المقاهي في كلّ مكان، تُقام في مرائب مفتوحة على الشارع، ومجهّزة فقط بطاولات من الفورميكا ومقاعد من البلاستيك. كان بائعو الخُضر والفواكه يعرضون بضائعهم مباشرة على الأرض. وبائعو السمك يصيحون: «سردين طري، سردين فريسكا، سردين اليوم، عشرة دراهم...» غير بعيد، شاب يبيع معجون الحلاقة وزهوراً بلاستيكية وساعات تحمل صورة الكعبة في خلفيتها. أفريقي يعرض تماثيل من بلده، بجانب صبي يعرض سجائر بالتقسيط وآخر يبيع أقراصاً مدمجة مقرصنة.

اتّسعت عينا حسن وتساءل إن كان لا يزال في طنجة. يوجد مسجد وسط الشارع الكبير، لا مدارس ولا مستوصف. رجال يرتدون ملابس أفغانية، لباس طويل أسود وطاقية رمادية على الرأس، يتجوّلون، بعضٌ منهم تتبعهم نساء يرتدين ثياباً سوداء. لم يتعجّب البتة. كان قد سمع عن هؤلاء الناس الذين يمارسون إسلاماً اخترعه جُهّل.

قام بجولة في الحي، التقى أفارقة آخرين يبيعون مناديل ورقية كلينيكس وحقائب لويس فيتون مزيفة وسلعاً صينية. كان بعضٌ منهم يجلسون متحلّقين على الأرض كأنهم ينتظرون حافلة أو قطاراً أو قافلة أو أفضل من ذلك رسولاً ليُخرجهم من ذلك المكان، ويأخذهم بعيداً، بعيداً جداً عن ذلك الجحيم اليومي، لكن حسن كان يعرف أن لا وليّ ولا رسول سيفكر في التوقف في ذلك المكان وأن لا أحد سيتمّ إنقاذه.

كان حسن يملك حدساً قوياً ويتلقى ذلك على شكل رسائل. ذلك الخليط من الألوان والتوابل والروائح غير الجيدة وتلك الحركة التي يتخللها أحياناً نداء للصلاة جعله يحسّ للمرة الثانية خلال اليوم بالدوار. أحسّ من جديد بأنه يفقد الإحساس بنفسه. كان هناك دجال، منوّم بالإيحاء غير موهوب، يصيح بقرب نهاية العالم، وبضرورة التخلّص من الرذائل مع الرجوع إلى الفضائل الأساسية، تلك التي علّمها رسول جميع الأزمنة، الوحيد الذي سيشفع لأصحاب الكبائر، أولئك الذين ملأ الشر قلوبهم وأجسادهم... توقف الدجال فجأة عن الصراخ وأشار بأصبعه المهدّد نحو مجموعة من الأفارقة الذين ارتعبوا من خطابه: إنهم سود مثل الإثم، سود مثل ليلة الجريمة، سود مثل باب جهنم الكبير... نظر الأفارقة إلى بعضهم وفضلوا تجاهله.

في بيت رالف وخوان كارلوس، كان حسن يحتك أحيانا بوسط متحضّر من أناس أثرياء، يحسّون بالرضا عن أنفسهم، أثرياء وفخورين بتبذيرهم الاحتفالي. كان قد قدّر عدة مرات كم

Tele: @Arab_Books

كانت طنجة مدينة معقدة، تغازل فساداً وتناقضات، وحده ريحُ الشرقي يستطيع كبحها. أين كان مكانه؟ مَن كان هو؟ كان صموتاً، غير قادرٍ على التعبير عمّا يسكنه، أحسّ دوماً أنه ترك من دون معالم. كان يفكِّر في والده الذي رحل باكراً، والذي لم يكُن يزور قبره أبداً. فكر أيضاً في والدته التي كان يحبها كثيراً. فجأة، ظهر له وجه نابو، الشديد السواد، الشديد اللمعان، مثل صورة في حلم يقظة. كأنها كانت هناك، مستندة إلى الحائط، تمضغ عود عرق سوس، بهيئة غائبة، كأنها لا تنتظر شيئاً ولا أحداً. وكلّما راقب الرجال الذين يجلسون القرفصاء تحت الشمس، كلما اتضحت صورة المرأة الأفريقية السوداء الجميلة وكبرت. كانت تبتسم، ربما كانت تشير إليه ليلحق بها.

عاد الدجال نحو حسن وقال له كأنه يُخبره بسر: «احذر هؤلاء السود، إنهم ذرية إبليس. أنت، لست أسود حقيقياً، أنت تحمل قناعاً أبيض، يظهر ذلك من بعيد. الكل يتحدث عن بلال، العبد الذي أعتقه رسولنا الكريم، لكن هؤلاء السود ليسوا مؤمنين مثلك، البعض منهم يعلقون صليباً، وآخرون يصلون أمام أشجار، يجب أن يعودوا من حيث أتوا، لا شيء يفعلوه هنا. عندنا ما يكفي من البؤس...».

لم يُجب حسن، مرّر كفه على وجهه كأنه يريد أن يتأكد من أنه لا يحمل قناعاً. ابتعد وانتابه إحساس غريب: وإذا كان أحد هؤلاء الرجال من أقربائه، أخاً، قريباً، أحداً أحمل جيناته ونظرته؟ ولو كنت أنا الذي أجلس أتأمل الأفق وأنتظر معجزة؟ ولو كنت أنا أمل وشرف القبيلة الذي اختير ليحاول العبور نحو

Tele: @Arab_Books

الجنة؟ أجل، إنه أنا، إنه أنا بالفعل. بشرتي سوداء، تماماً، لا تخشى الشمس، تلمع عند ملمسها... أنا أفريقي، مشيت أياماً وليالي في الرمال، قطعتُ جبالاً وبحيرات وغابات، أنا مهاجر سرّي، المهاجر السري الزعيم، أعرف من أين أتيت، لكني أجهل إلى أين أنا ذاهب...

تفادى حسن الصعود في سيارة نقل جماعية. كان قد سمع ما يكفي من التعليقات البشعة خلال الذهاب ولم يعُد يتحمّل أن يسمعها من جديد خلال الإياب. سار على طول الشارع، لم يلتفت وفكَّر في ابنه سليم. تساءل إن كان قوياً بما يكفي ليتحمّل الكراهية المجانية، إن كان مسلحاً ليُدافع عن نفسه ضدّ الأوغاد، لامَ نفسه لأنه لم يهيئه كفاية ليعيش في بلدٍ لا يعتبر واقع كونه أسود فرصة. تحدَّث معه في المساء. أخبَرَه عن حيّ صدام وما رآه فيه. كان سليم قد بلغ العشرين، وكان يبحث عن نفسه، كان يريد أن يدرس الطب لكنه لم يتوفّر على مستوى اجتياز المباراة. جذبته مهنة الصحافة. اشترى بمدّخراته آلة تصوير «كانون (Canon)» ومن حين إلى آخر كان ينجز تقارير يعرضها على مدير الصحيفة المحلية الذي كان يشجّعه على المواصلة في ذلك الطريق. عندما كان يلتقط صوراً قوية، كان يعرضها على مواقع التواصل الاجتماعي.

ذات صباح، فكّر سليم في حديث والده، أخذ آلة التصوير، وقرّر الذهاب ليرى بنفسه ما يحدث في تلك الضواحي التي يُحكى عنها الكثير من السوء. في شارع فاس، ركب في تاكسي

Tele: @Arab_Books

جماعي وقال: «حي صدام». سمع السائق يقول بالعربية إنه ذاهب لموافاة إخوته الضائعين، هؤلاء الذين يجب أن يعودوا إلى غاباتهم لأنّ المغرب لديه ما يكفي من المشاكل مع المغاربة ولا يمكن أن يستقبل كلّ اليائسين على الأرض... لم يتفاعل سليم. لكنه عندما وصل إلى مدخل الحي، تفاجأ بنفسه يفكر بطريقة السائق نفسها: لماذا يتراكم هؤلاء الرجال والنساء في هذا البؤس؟ كان يسير ويده اليمنى على آلة التصوير، يراقب هذا العالم الذي كان يتخيّله، لكن الذي كان أكثر إثارة ممّا كان يتصور، غياب النظافة، أتربة الشوارع غير الممهدة، روائح المطبخ، الحرارة والسماء البيضاء كانت تعطيه الانطباع بأنه بعيد عن بلده.

كان مستغرقاً في أفكاره عندما سمع صراخاً تبعه صوت سقوط. هرعَ على الفور حشد مرعوب. كان على الأرض بركة دم. في وسطها، رجل أسود مهشّم الرأس والصدر يرقد على الأرض. شقّ سليم الجمع واقترب من الجسد الذي كان لا يزال يتنفس. أخذ يصرخ: «اطلبوا سيارة إسعاف، اطلبوا الشرطة!».

لم تكن الشرطة بعيدة. كانت تبحث عن غيني يُشتبه في تورّطه في عملية سطو على فيلا رجل أميركي. كان قد تمّ تحديد موقعه في بناية غير مكتملة، أصبحت أحد أهم الأماكن المستولى عليها في الحي. كان رجال الشرطة قد فتشوا وقلبوا المكان بشكل ممنهج. لا يمكن أن يفلت منهم بين هياكل الطوب الأحمر، الثقوب الكبيرة المفتوحة على الفراغ، والتي تمّ اتخاذها مسكناً. عندما رآهم المشتبه به يصلون وهم يهدِّدونه بالهراوات،

Tele: @Arab_Books

أخذ يجري، تعثَّر بكيس من الإسمنت المثقوب، فقَدَ توازنه وسقط من الطابق الرابع.

لم يكن ذلك الرجل قد استقرّ بحي صدام سوى منذ مدة قصيرة. كان قد عاش فترة طويلة في غابة تحمل اسماً غريباً، «الدبلوماسية»، على بُعد حوالي عشرين كيلومتراً من وسط طنجة، غير بعيد من المحيط الأطلسي. هناك، رفقة آخرين، كان يتدبّر أمره، يصطاد وينام في أحد الأكواخ. باقي الوقت، كان يخرج إلى طرف الطريق ويتسوّل. كان بعض أصحاب السيارات، من المهاجرين العائدين إلى أوروبا في غالبيتهم يمنحونه الطعام أو بعض القطع. لكن ذات يوم، اشتكَت بعض عائلات المنطقة، التي كانت معتادة على التنزه في الغابة، وطلبت من الشرطة إبعاد المهاجرين السريين، متهمة إياهم بحمل أمراض تهدّد بالتحوّل إلى وباء. عندما وصلت الشرطة، كان الغيني الشاب وجماعته قد هربوا وقصدوا كنيسة كاثوليكية إسبانية توجد غير بعيد في حي حسنونة. استقبلهم الكاهن، وهو رجل أسود من البرازيل، وحذّرهم: «مؤقت، لن أستطيع استضافتكم لفترة طويلة، لكن استريحوا، سنقدّم لكم الطعام، يمكنكم أن تغتسلوا في الحمام في المدخل، الرب معكم، إخوتي».

نهض أحد المهاجرين السريين ليشكره وقال له: «نودّ أن تقول لإخواننا المغاربة إن المغاربة ليسوا جميعهم عنصريين، لكن كما يقول مثل عندنا: «يكفي أن يتسوّس ضرس كي يُعدي باقي الأضراس»». بعد أن طلب منهم الرحيل، وجد أفراد المجموعة

Tele: @Arab_Books

أنفسهم في مكان يحتله أفارقة في حي صدام. نشبت في الحال معارك بين القدامى والوافدين الجدد، شاهدها المغاربة دون تدخّل.

في ذلك الجو المشحون الذي دام عدة أيام، تدخلت الشرطة، مدَّعية البحث عن الغيني المشتبه به في عملية السطو. كان جسده يرقد من دون حركة تقريباً، يغطيه الوَحَل والدم. كان سليم لا يزال هناك، منحنياً عليه، تحت الصدمة. على خلاف الآخرين، الذي اعتادوا مثل تلك الحوادث. ولم تخطر عليه فكرة التقاط صُوَر.

جاءت فرق رجال شرطة لدعم الناس، لكنهم أوقفوا بعض السود الذين كانوا يحومون في الجوار ولم يهربوا. وحينما وصلت سيارة الإسعاف، كان الوقت متأخراً جداً.

بتلك الطريقة وجد سليم نفسه يُزجّ به رفقة خمسة أفارقة في سيارة أفراد شرطة طنجة، الذين كانوا قد أسقطوهم على الأرض وكبّلوا أيديهم، أخذوا صوراً لهم في مديرية الشرطة الأقرب، ثم وضعوهم في حافلة تنطلق إلى الدار البيضاء حيث ستنقلهم طائرة محمّلة بأفارقة آخرين إلى السنغال. تمّت مصادرة آلة تصوير سليم. اعترض في البداية، طالب بأداة عمله، قال إنه مغربي، من أب فاسي وأم سنغالية، لكن أحداً لم يُعره أي اهتمام. تلقى ضربة على رقبته وظنَّ أنه يسمع رجل شرطة يقول: «جميع المغاربة أفارقة، لكن جميع الأفارقة ليسوا مغاربة». أما بالنسبة إلى باقي الأفارقة فقد كانوا ينظرون إليه كأنه خائن، واحد ينكر

انتماءه العرقي ويدّعي أنه أبيض، عربي، مغربي ينحدر من مدينة الروحانية وبوتقة الحضارة العربية الأندلسية. فجأة أحسّ بالخجل. أفريقيته كانت مرئية، واضحة، لا يستطيع إنكارها ولا إدانتها. كان مصيره قد حُسِم.

أدرك سليم أنّ لون بشرته قد حَكَم عليه وأنّ الكلام لم يعُد ينفع في شيء. من الأفضل إذن أن يتوقف عن الاحتجاج. لأول مرة يسكن جسده وجلده. كانت يداه مكبلتين، والحافلة تسير بسرعة مفرطة، لكنه كان قد تغيّر. على أية حال، لم يكن يحمل أية وثائق هوية تُثبت ما يدّعيه. صمت، حاول أن يغلق عينيه وألّا يفعل شيئاً. كان رأسه فارغاً. لا صورة، لا صوت، لا شيء، ولا حتى ذكرى. وكأن جداراً قد انهار. كان باقي الأفارقة نائمين. كانوا بلا شك متعبين، مكسورين بذلك النوع من التعامل، مستسلمين، في مكان آخر. هو لم يكن يستطيع إغماض عينيه. كان ينظر إلى الأشجار تمرّ والسماء تبتعد بينما تنفّسه يتباطأ أكثر فأكثر.

وصلوا إلى الدار البيضاء ليلاً. كانت الطائرة في انتظارهم. تمّ تخصيص المقاعد الخلفية لهم. صعدوا من الباب الخلفي، مكبّلين دائماً، يرافقهم شرطي يلعن لأنه لم يكن يشعر برغبة في القيام بذلك السفر، رغماً عنه وخلال الليل. وزّعوا عليهم خبزاً وماء. نام الجميع بعمق. أما سليم فظلّ مستيقظاً.

اختلط كلّ شيء في رأسه. كان قد تقصّى كثيراً حول وجود السود في المغرب، وكان قد اكتشف أنّ أحمد المنصور الذهبي الذي ساد بين عامي 1578 و1603، بطل معركة «الملوك

الثلاثة» الشهيرة، لم يهزم الجيش البرتغالي، فقط، لكنه أيضاً قَتلَ الملك سيباستيان، كانت والدته امرأة سوداء، امرأة من الپول اسمها للّا «وردة». كان أحدٌ ما قد أخبَرَه أنّ جدة الحسن الثاني كانت سوداء. لا يوجد أيّ أثر مكتوب عن هذه الحكاية التي كانت إشاعة لا يمكن التحقّق منها. كان هناك أيضاً مَن كانت الصحافة الفرنسية تسميه «الجوهرة السوداء»، لاعب كرة القدم الكبير، العربي بن مبارك. ثم ذلك الوزير الأسود، رفيق وصديق الملك الحسن الثاني الوفي الذي أنهى مساره المهني سفيراً للمغرب في الولايات المتحدة... سود مشهورون وسود مغمورون كانوا قد عاشوا دوماً في هذا البلد، سجناء نوع من الإنكار أو فقدان الذاكرة. كلّ تلك العنصرية، كل ذلك الحمق كان يجد تبريره في تفوّق مفترض للعرب على الأفارقة، ردّ فعل عتيق للتصرّفات الاستعمارية. تلك العنصرية، الحاضرة منذ فجر الوقت، في جميع الطبقات الاجتماعية المغربية، كانت قد تفجَّرت إلى وضح النهار في أوائل السنوات 2000 مع الوصول المنتظم لمزيد من المهاجرين الذين يحاولون عبور مضيق جبل طارق. كان سليم يعرف كلّ ذلك ولم يتصور أبداً أن يجد نفسه في تلك الحالة، التي أخذ يعيشها بهدوء أدهَشَهُ هو نفسه.

كان سليم يخشى من وصوله إلى داكار. كان قد سمع أحد رجال الشرطة يتحدث بطريقة حاقدة:

«الرجوع إلى المُرسِل! لا يوجد هنا بريد محفوظ!» ثم أخذ

Tele: @Arab_Books

يتغنى بأغنية قديمة: «بلاك إز بلاك! الأسوَد هو الأسوَد!». . . كان يغني بطريقة رديئة، لم تُضحك أحداً.

في المطار، استقبلتهم شرطة الحدود بالشتائم. لم يكن سليم يفهم اللغة التي يتحدثون بها. بما أنه كان أفضلهم لباساً، اعتبره أحد المسؤولين زعيم المجموعة، وتحدث إليه بالفرنسية:

«إذن، لم تنجح في اصطحاب رفاقك إلى الجنة؟

- أبواب الجنة مغلقة. . .

- تريد أن تمزح؟ اللقب، الاسم، مكان الازدياد».

حاول سليم أن يقول الحقيقة، لكنه لم يُصدَّق. حلف أن توقيفه كان خطأ. طالب مرة أخرى بآلة تصويره التي صادرها شرطي في طنجة. تلقى لكمة وشتائم:

«الزنجي القذر! أنت، مغربي؟ أنت، مسلم؟ أنت، من عائلة كبيرة؟ ألا تخجل من الكذب وادّعاء ما لستَ عليه بالفعل، ما لن تكونه أبداً! هل رأيت مهاجراً سرياً بآلة تصوير؟ أنا، لم أرَ ذلك أبداً!».

في اليوم الموالي فقط فكّوا أغلالهم وتركوهم ينصرفون.

وكانت تلك هي الطريقة التي اكتشف بها سليم، الجائع والمفلس والمهان، مدينة جدّته الأصلية. أراد أن يغتسل وينام. دخل إلى مسجد صغير، استغلّ دورة المياه كي يغتسل ويتوضأ. صلى من دون كلام، كان قد نسي الآيات التي يجب تلاوتها، ثم استند إلى دعامة واستغرق في نوم عميق. لم يزعجه أحد. كان جائعاً جداً إلى درجة خرج يتسوَّل في الشوارع. كانت المدينة

Tele: @Arab_Books

حديثة، ذكَّرته بالدار البيضاء: شوارع عريضة مرسومة، عمارات عالية. كانت صدمته الأولى. كان يتحدث إلى الناس بالفرنسية، لكنهم كانوا مستعجلين ولا يهتمون به. وجد نفسه في ساحة الاستقلال، غير بعيد عن المحطة والميناء. باعة يعرضون أشياء مستوردة من الصين خفية، نظارات شمسية، عرائس، لعب، أوشحة، مراوح... ضايقه أحدهم: «هيا، يا أخي، ساعة فاخرة، رخيصة، رخيصة، عطر من أجل زوجتك، حزام من أجل عشيقتك...» في ظروف أخرى، كان سليم سيضحك من ذلك، لكنه لم يكن يحسّ بأية رغبة. بعد أن ألحّ البائع، استدار سليم نحوه وقال: «اتركني بسلام، أنت مملّ!» لم يعجب ذلك الآخر، وأجابه: «أنا لاصق، لستُ مملاً! لاصق! لا يجب أن تشتمني، مهما يكن!» حينئذٍ، انفجر سليم من الضحك وسأله أن يصحبه إلى رئيسه كي يعرض عليه خدماته. لم يعجب ذلك الشاب، غير الرصيف ثم اختفى.

بدت له طنجة، مسقط رأسه، فجأة كوكباً بعيداً جداً. كانت ذكرياته مضببة. من حين إلى آخر، كان وجه جدّته ووالده ثم وجه كريم يظهر له خلسة. تمنى لو يستطيع الإمساك بهم، مداعبتهم والعودة إلى لحظات السلم التي كانت أحياناً تعمّ البيت الكبير. ظنَّ أنه يسمع صوت حسن يأمره بالذهاب إلى مكان عبادة. دخل إلى كنيسة حيث قدّم له كاهن الطعام. لم يطرح عليه أي سؤال. كان ذلك أفضل. فكَّر لحظة في الذهاب إلى القنصلية المغربية، لكن لم يكن بحوزته أيّ أوراق تُثبت جنسيته. من ناحية، كان يحبّ ذلك الوضع الذي يضعه في المحك. أن يكون

Tele: @Arab_Books

أفريقياً، فقيراً ومعوزاً، من دون عائلة ومن دون أمل، ألم يكن ذلك قدر ملايين الناس في تلك القارة الغنية والفقيرة في الوقت نفسه؟ قرَّر ألّا يغيِّر شيئاً في وضعيته وأن يتبع قدره إلى النهاية. الشتائم والعنصرية المألوفة، كان يعرف ذلك. أرادَ أن يعيش من الداخل ما يحسّه أشباهُه يومياً.

الكاهن، الذي فهم أنّ سليم يتحدّث العربية بطلاقة، ساعده على الالتقاء بعبد الله، إمام لا يتقن لغة القرآن. مقابل بعض المال، ساعده سليم على التعلّم وعلى تلاوة بعض الأدعية. كان سعيداً بخدمة ذلك الرجل وكان يُقدّر حكمتَه وإرادته، لكنه لم يفتأ يفكّر في العودة في ظروف أمثاله نفسها الذين كان بعضٌ منهم يجتمع في المسجد. كان يرغب في القيام بالسفر، السفر الطويل والخطير، عبور الصحراء، والوصول إلى جنوب المغرب والصعود إلى طنجة من حيث ينطلق المرشحون للهجرة السرية إلى إسبانيا. يوماً بعد يوم، أصبح ذلك هوسه، جنونه.

في طنجة، كانت أسرة سليم جدّ قلقة. كانت الشرطة تؤكِّد جهلها كلّ شيء عن المسألة. وعدوا حسن بنشر صورته في مراكز الشرطة والمراكز الحدودية. كان كريم بالغ التعاسة حتى أنه فقد لأيّام حاسّة الشم. كانت نابو قد خمّنت أنّ حفيدها يوجد في أفريقيًا، تذكّرت حديثها معه عندما أخبرها عن رغبته في القيام بذاك السفر يوماً، لكن قلقها لم يزل مع ذلك. كانت قد علمت بخبر موت الغيني البئيس في حي صدام، دون أن تربط بينه وبين اختفاء سليم.

Tele: @Arab_Books

أيقظ كريم نابو ذات ليلة وهو يقول لها:

«رأيت، رأي... رأي... ت سليم. مؤذّن، مسجد بلدك!».

كان متأثراً، متأكداً من رؤيته ومطمئناً على حالة سليم الصحية.

شكرته نابو وتخيَّلت سليم يؤذن للصلاة في مسجد في داكار. لمَ لا، بعد كلّ شيء، أسّرت في نفسها.

لم يكن كريم ونابو مخطئين تماماً. في الوقت نفسه في داكار، كان سليم يعلِّم عبد الله الطريقة المغربية في مناداة الناس للصلاة.

بفضل عمله عند الإمام، كان سليم نظيفاً، يأكل حتى الشبع ويستمتع باكتشاف تلك المدينة. أحسَّ برغبة في الذهاب على خطى جدّته، أن يجد أحداً تكون قد عرفته من قبل، لكنه أحسّ بخوف وتراجع عن البحث. كان يخاف ممّا قد يكتشفه. فكَّر في إرسال برقية إلى طنجة كي يُخبرهم عن أحواله. لكنه عندما وصل إلى البريد عاد أدراجه. بعد ليلة من التفكير، تراجع وكتب هذا النص:

«عزيزتي ما (هكذا كان يطلق على نابو)، عزيزي الوالد، عماي العزيزان، أنا في أفريقيا، قريباً سأعود إلى البيت، سليم».

كان الثمن مرتفعاً. شطب على «عماي العزيزان»، سدَّد، وتمّ إرسال البرقية.

كان الإمام من جزيرة غوري. وبما أنه كان سيقوم بزيارة

Tele: @Arab_Books

والديه، عرض على سليم أن يرافقه، وعده باستضافته في بيت العائلة. وافق سليم في الحال. في الطريق، قصَّ عليه قصة تلك الجزيرة، التي كان قد سمعها من فم والده. على الأرض، كانت الأشياء قد تغيرت قليلاً منذ حقبة النخاسة. كان أفريقيون من أصل أميركي يأتون بانتظام، شباب طوال القامة جاءوا للحج في أماكن مرَّ منها أسلافهم، العبيد الذي كان يتم اقتناؤهم لعمارة العالم الجديد. كانوا يلتقطون صُوَراً، كان البعض يخشع كأنه في كنيسة، وآخرون يظلون صامتين، يفرقون قطعاً من فئة دولار واحد على الأطفال والمتسولين. شدّ وجه أحد الزوار انتباه سليم. بدا له مشهوراً. ممثل سينما، كان قد رآه في فيلم (أكشن) وهو يؤدي دور مساعد شرطي أبيض... قام سليم أيضاً بمجهود ذاكرة: **السلاح الفتاك**، هذا هو! داني... داني غلوفر وميل غيبسون! إنه داني غلوفر. كان برفقة أميركي آخر من أصول أفريقية قدَّم نفسه للإمام: مانسيا دياوارا، أستاذ في جامعة نيويورك: «حالياً في أميركا، نحن فخورون بأصولنا، وقد حصلنا بعد كفاح على بعض الحقوق...».

حافظت الجزيرة، رغم امتلائها بالسياح، على سحرها. أكثر من أثرٍ لماضٍ مُخزٍ، كانت الذاكرة التي تطفو بفخر إلى السطح. عاد سليم والإمام إلى داكار بعد بضعة أيام واستأنفا عملهما معاً.

جمع سليم بعض المال. لم يكن يصرف أي شيء تقريباً. ذات مساء، بينما كان في المقهى ينظر إلى التلفاز، رأى في نشرة الأخبار صُوَر مهاجرين ضائعين وسط البحر المتوسط. كان

أحدهم يرفع يديه ويرسم علامة النصر. أخذ ذلك اليوم القرار الحاسم بأن يذهب سيراً على الأقدام إلى شمال المغرب رفقة مجموعة صغيرة من الشباب من عمره كان قد التقاهم مؤخراً. كانوا قد أخبروه بأنهم يتمنّون أن ينجحوا في عبور مضيق جبل طارق كي يصلوا إلى أوروبا.

كان بإمكان سليم أن يبقى في داكار، أن يقدّم دروساً في الفرنسية والعربية، أن يصنع حياة صغيرة هادئة، ويضع مسافة معقولة بينه وبين المغرب، أو بالتحديد بعض المغاربة. كان بإمكانه أن يذوب في الجموع الأفريقية ويعيش يوماً بيوم مثل أغلب الناس، لكن شيئاً ما كان يمنعه من الاكتفاء بذلك. كان يريد أن يرى ما يخبِّئه له قدَرُه، قدره الذي خَطَّهُ لونُ بشرته، خطّتْهُ الصدفة والعنصرية الاعتيادية، العادية الغبية. تذكَّر جملة كان والده يكرِّرها عليه: «قدرنا هو زادُنا الوحيد. هو الذي يحملنا ويدافع عنا ضد أنفسنا».

كان قد تعرّف على تلك المجموعة في المقهى. كان يبدو عليهم أنهم يتآمرون، كانوا يتحدّثون بصوت منخفض، حذرين من الأنظار ويبدون كأنهم يحضّرون ضربة غامضة. فهمَ سليم بسرعة أنهم يريدون القيام بما قام به آلاف الأفارقة قبلهم. لكنهم كانوا جميعاً بعيدين عن تحقيقه. فإذا كان بعضهم قد استقرّ بشكلٍ جيد في أوروبا، كم منهم ظلّ مسجوناً في مراكز إيواء، وكم منهم أيضاً يرقد في عمق مضيق جبل طارق. قال سليم في نفسه إنه لا يملك الكثير ليخسره، ولم يكن القيام بتلك التجربة، رغم مخاطرها، يخيفه. كان بإمكانه أن يستدين المال من عمّه

Tele: @Arab_Books

ويحصل على تذكرة طائرة ويحاصر القنصلية ويستعيد أوراقه ليعبُر الحدود. ذهب وجلس قرب الشباب وقال لهم: «سأنطلق معكم». لم يتحفّظ أحد. كان واحداً ضمن آخرين مستعدين لتجربة الحظ أو الشيطان.

كان ذلك المشروع مناسباً لسليم. كان يكفي أن يسقط بين يدي رجال شرطة خبيثين ومحبطين وعنصريين، لم يرغبوا في الاستماع إليه، ولا التحقّق من كلامه، كي تنقلب حياته رأساً على عقب. حالياً، لم تعُد لديه أية أوهام حول الإنسانية. تحدَّث عن سفره الوشيك مع الإمام الذي حاول أن يثنيه. عندما رأى تصميمه، أعطاه مبلغاً من المال ودعا له بالنجاح.

كان أعضاء المجموعة قد سلّموا جزءاً من المبلغ المتّفق عليه مع المهرّب المرتقب إلى أحد شركائه المقيمين في داكار. دفع سليم دون أن يجفل. وجد المبلغ كبيراً لكنه لم يقُل شيئاً. فكَّر أن اللعنة الأفريقية تبدأ هناك، في تلك اللحظة التي يسلّم فيها المرء مدخراته لشخص مشبوه يخفي عينيه خلف نظارة سوداء ويحمل في يده سلسلة نقش عليها اسمه، «سام». كان الرجل خلاسياً يحمل على ساعده وشم أفعى تلتفّ حول فخذين، مع نقش "Love". هناك يبدأ كلّ شيء؟ المغامرة والأمل، التعاسة وربما الموت؟ تفحّص سليم الرفاق الذين سيقوم بصحبتهم بالسفر، سفر طويل. شرب كأساً كبيراً من الماء وقال: «هيا بنا!».

Tele: @Arab_Books

الفصل السابع

«مرّ وقت طويل وأنا أمشي على الرمال، ثقُلَت قدماي ولم أعُد أحسّ بهما. ليلاً، أنا نجمة ترشد خطواتي وتغادرني في الصباح. أمشي ولا ألتفت. إنها القاعدة، إذا التفتّ، ستضيع، ستفقد البوصلة، هذا ما قيل لي وكرّر لي قبل الانطلاق، وأظنه صحيحاً. إذن أتقدّم دون أن ألقي نظرة على ما أتركه ورائي: بلد جدتي الذي لم يكن يشبه ما تصوّرته؛ أشجار رائعة تحدِّثني في المساء؛ رجال ونساء يطردون بأكفهم العريضة الذباب والملل؛ سماء بيضاء وثقيلة؛ ليالٍ غريبة أظلّ فيها صاحياً؛ المذاق المرّ لبعض حبات التين المجفّف المستورد؛ رائحة التوابل القوية التي تتسلّل في كلّ مكان وينتهي بها المطاف بأن تصبح شبيهة بالأصوات المحتضرة لبعض الطيور ذات الألوان الفاقعة؛ باختصار عالم كان ينبغي أن يصالحني مع جذوري لكن حيث لم أستطع البقاء... ثم أيضاً، أولئك الأجانب الذين يتصرفون في أفريقيا كأنهم في بلد محتلّ، المتغطرسون والبغضاء.

«أنا الذي اختاره السلف، الجالس تحت الشجرة، ليهاجر،

Tele: @Arab_Books

عيّنني كما لو كنت جندياً، كما لو كنت قد ولدتُ هناك، ولدتُ لأعاني وأهاجر. قال لي بلطف من دون إلحاح: «أنت، سليم، من سينجح في إنقاذ القبيلة، أنت وبعض الآخرين. خلال وقت سيتبعونك، وخلال آخر ستتبعهم. ستمشي دون أن تشتكي، دون أن تئن، وستتخطى البحر مثل ملاك، مثل طائر خفيف وجميل، اذهب سليم، روح الأسلاف تحميك».

«لا أحب أن أفكر في اليوم الذي قرّرت فيه أن أسافر من جديد وأن أتبع نجمتي. في ما شطبته بجرّة قلم في ليلة تخلّت فيها عني رحمة الله ورسوله. منذ ذلك الحين أصبحتُ لا شيء، مجرّد ظِلّ يتيه في الصحراء، جرَّب عضة الجوع والعطش ولهب الجحيم. أمشي، أجري رفقة منبوذين آخرين، إخواني، أمثالي، تائهين ومن دون تركيز في النظر، لكنهم احتفظوا بأرواحهم وأنفاسهم التي تُبقيهم واقفين. أتبع ظلالاً تمشي دون أن تلتفت. أحياناً أتخطاها وبدوري أنظر أمامي مباشرة.

«وصلنا إلى نهاية الصحراء ذات مساء رمادي، لمحت أضواء بعيدة، بيوتاً ورجالاً ونساء وسيارات وذباباً وطيوراً بألوان متعدّدة، رأيت جياداً وحميراً، جِمالاً كسولة، شابات يرتدين ثياباً خفيفة، رأيت أو ظننتُ أنّي أرى مدينة تحمل اسماً غريباً، زاكورة. وهي مدينة مسطّحة يتغذّى سكانها على التمر، وهم أناس طيبون وهادئون وآدميون. ابتدرني عادل، وهو رجل نحيف، وقال لي: «تعال لتنام في بيتي، يسعد الأطفال بوجود ضيف». تبعته وأكلتُ تمراً لذيذاً. كنت جائعاً، جائعاً جداً،

Tele: @Arab_Books

وبالأخص كنت محتاجاً إلى أن أغتسل، أن أغطس في نهر وأتخلّص من الأوساخ التي راكمتها منذ فترة طويلة. رافقَني عادل إلى الحمام، دفع عني الأجرة وانتظرني في مقهى قريب. خرجتُ بعد ساعة، جديداً، كان قد أعطاني ثياباً نظيفة. كان عادل يشتغل في فندق، لم أعرف ماذا يفعل بالضبط، لكن يبدو أنه كان عملاً جيداً. نمت مثل حيوان أفلت من السلخ. رأيت أحلاماً، العديد من الأحلام. في الصباح كنت رجلاً آخر. اقترح عادل أن يجد لي عملاً، لكني كنت أرغب في الوصول إلى طنجة، كانت فكرة ثابتة. في السنغال، بلد جدتي، كانوا يتحدثون عن طنجة بوصفها بوابة الجنة، طنجة مدينة ببحرين، بوابة أفريقيا، نافذة على أوروبا، المدينة التي كان كلّ شيء فيها ممكناً، الحياة، العبور، الموت أيضاً. يقولون طنجة، أميرة البحار والرمال. طنجة مدينة الممكن، من شواطئها نرى الأراضي الإسبانية، الأوروبية. طنجة الخلاص، طنجة الحياة... أجل، الجحيم، لكن أيضاً الجنة... أحسّ عادل بأني بدأتُ أهذي. لم يكن لطنجة دخلٌ في البؤس والموت الذي يضرب إخواني الأفارقة. عندما نضطر للمنفى، ننهض ونمشي، لا شيء آخر. الأمر سهل. لا حاجة إلى التحليل والدراسة المعمّقة لتفسير حركة البقاء على قيد الحياة. إنها رغبة محضة للتحرّك بدل البقاء وتوسّل السماء التي هي في جميع الأحوال لا مبالية. هل رأى أحد شيئاً آخر ينزل من السماء عدا المطر والثلج وبعض بقايا نجمة ساقطة؟

«القدر مليء بالثقوب. لا بد أنّ الموت يسكن أحدها. لذا من الأفضل للمرء ألّا يلحّ، ألّا ينظر عن قرب. لذا تجاهلتُ ولم

Tele: @Arab_Books

أنظر سوى إلى الضوء الذي ينتظرني في الجهة الأخرى من البحر. شكرتُ عادل، تصافحنا مطوّلاً، أعطاني كيساً مليئاً بالتمر وماء وخبزاً حضّرته فاطمة، زوجته ذات الذقن الموشوم. قال لي: «هنا نرى أفارقة يمرون، كائنات بشرية وُلدت كي تعاني. لكنهم لا يتوقفون، يواصلون طريقهم كأنهم هاربون. أعرف أنهم يخافون أن يصدّهم البيض الذين لا يعادل غطرستهم سوى غبائهم. أعرف ذلك الشعور. سافرتُ إلى المغرب وأنا أيضاً كنت ضحية الأفكار المسبقة. بشرتي ليست بسواد بشرتك نفسه، هي بُنّية ولا بد أنها تثير الخوف. ولدتُ نتيجة اختلاط وهذا ليس مقبولاً في الغالب». كان بإمكاني أن أخبره بأني أنا أيضاً ولدت من اختلاط، لكن ربما لم يكُن ليصدقني. ذلك لا يُرى. أسود مائة بالمائة. لا أريد مغادرة دوري، لا أريد قَدَراً آخر.

«التقيتُ رفاقي الستة ثانية، ودون أن أقصّ عليهم ما عشته، عاودتُ السير بصَمْت. توقفنا في واحة حيث يوجد ماعز ورعاة. أعطتنا امرأة خبزاً، وأخرى فطائر مغمّسة في الزيت. هناك يعمّ صمتٌ رائع. القليل من الكلام والقليل من الأسئلة. كان الناس متعوّدين على المشاة الذين يتقدّمون نحو الشمال. انصرفنا عند الفجر. تبعَنا أحد الرعاة ثم عادَ على أعقابه. هل كان يريد مرافقتنا؟ هل كان يحاول اللحاق بنا؟ كان لا يزال صغيراً كي يتحمّل السفر واضطر للتراجع. الغريب هو أنّ هيأتنا لم تكن تُرعب أحداً. ربما كان هؤلاء السكان يحسّون تجاهنا بتواطؤ صامت يترجمه كرَمُ أفعالهم وابتساماتهم وإشارات الأيدي التي يلوحون بها؟

Tele: @Arab_Books

«لأننا لم نكن نحمل معنا أية وثائق ثبوتية، أطلقنا على أنفسنا ألقاباً. أنا، أطلقوا عليّ «الحكيم» لأن السلف اختارني لأقود المجموعة. أطولنا، شاب يصلُ طوله متراً وتسعين سنتمتراً، كان اسمه «السماء»، الذي يليه طولاً كان اسمه «سحاب». ثم هناك «بوراس»، بسبب كبر رأسه، «بوساك» بسبب الكيس (الساك) الذي لم يكن يفارقه أبداً، «كلاتا» لأنه يشبه بندقية. والأخير اسمه «جبلطير» (جبل طارق) لأنه لم يكن يتوقف عن الحديث عنه. أعجبنا ذلك، أعطتنا تلك الألقاب الانطباع بأننا جدد، من دون ماضٍ، مهيئين لمستقبل واعد، أكثر إشراقاً من الذي تتحدّث عنه كتب الأطفال. أنا نفسي ضبطتُ نفسي أبحث عن اسمي الحقيقي. المبدأ هو أن نتخلّص من كلّ شيء، بما في ذلك أسماءنا وتاريخنا. نحن «من دون»: من دون هوية، من دون اسم، من دون لقب، من دون مال، من دون رابط، من دون عائلة، من دون ذاكرة، على الأقل رسمياً. يبدو أن الآلاف من الرجال والنساء الذين فقدوا بلدانهم، أرضهم، يتسكعون، مثلنا، بحثاً عن أيّ عمل، من دون أن يكون معهم شيء، من دون جنسية، من دون ذاكرة. هي مثلاً حالة الفلسطينيين الذين دخلوا الكويت بطريقة غير شرعية في السبعينيات والذين لا يستطيعون مغادرتها. تستغلهم الدولة بتكليفهم بالأعمال الأكثر صعوبة، وتُسكنهم على بعد كيلومترات من العاصمة في مخيمات تنعدم فيها النظافة والأمن. اندسّ بينهم منبوذون وتائهون من دول أخرى تعيش حالة حرب. هم الـ«بدون»، نوعٌ من العبيد لا يعتبرهم أحد موجودين. عندما يموت أحدهم بسبب حادثة،

Tele: @Arab_Books

يُقال: «افتكره الله، على أية حال، هذا الرجل لم يوجد أبداً».
أنا «بدون» بشكل أقل من رفاقي، ليس لأني من المغرب، لكن لأني ما زلت أتذكر اسمي. لم أتخلَّ نهائياً عن ذاكرتي، أمشي ورأسي مرفوع وأنا أفكر في هذه التجربة التي ستساعدني على الإحساس بالرضا في جلدي. هذا الجلد الذي أفركه، أسيء معاملته، أحكّه حتى أدميه، ألعنه وأغيِّر رأيي وأعود لأحبه وأجعله يلمع في اللحظات التي يكون فيها القمر كاملاً. ثم إني أتذكّر نابو وطيبتها، كريم وحبّه. أما بالنسبة إلى والدي، فأنا أشفق عليه. هو ليس سعيداً. لم يجد له مكاناً في هذا العالم. يحدث أحياناً أن أحسّ أني مسؤول عنه. ربما بسبب هذا تبدو رغبتي في الهجرة قوية.

«وصلنا بعد بضعة أيام إلى ورزازات. توجد مدينة في المدينة التي تصنع فيها الأفلام. يمكن أن يلتقي فيها المرء كومبارساً يرتدي ملابس غلادياتور يتحدث هاتفياً من مخدع عمومي وهو يدخن سيجارة. عرض علينا أحدهم العمل لبضعة أيام في فيلم تاريخي. لكن كان علينا الانتظار يوماً أو يومين ليبدأ التصوير. ذهبنا إلى المسجد الذي يوجد في مدخل المدينة وطلبنا الضيافة. سألنا الشخص الذي قدَّم نفسه إماماً إن كنّا قد تطهّرنا. أجل كنا قد اغتسلنا في الواحة في مدخل المدينة. ألحّ: «هل توضأتم؟» لا، لم نتوضأ. أشار لنا على دورة المياه وتوضّأنا. لم يتخيل الإمام لحظة أن بعضنا كان مسيحياً أو يعبُد الحيوان. أنا لستُ مؤمناً جداً اضطررت لأداء الصلوات الخمس خلف الإمام

Tele: @Arab_Books

الذي كان يأخذ الأمور بجدية. بعد الصلاة رأيته يتحدّث مع أحد الرجال بطريقة محتدّة. بعد لحظات، جاء الشاب الذي تحدث معه الإمام بخبز مدور وزبدة وعسل. لم نعرف كيف نشكر ذلك الرجل الذي اعتبرنا مسلمين. أراد «سحاب» أن يقول شيئاً، أسكته «السماء» بضربة خفيفة في ظهره. معتقداتنا يجب أن تظلّ بين قوسين. لم نكن ننتظر كلّ ذلك الكرم من المغاربة، لكن الأمور ساءت بعد ذلك. كلما صعدنا نحو الشمال كلما قلَّ الكرم.

«في اليوم الموعود، عاد رجل الفيلم لرؤيتنا وعرض علينا خمسمائة درهم كي نكون ضمن حشد يصرخ عند مرور غلادياتور. طلبت أن نقبض الأول. قال لي الرجل: «ألا تثق؟» أجبته: «لا، لا أثق!» لِمَرّة، جلدنا الأسود جعلنا نجني بعض المال. فرّقوا علينا ملابس، دروعاً، سهاماً وطلبوا منّا الوقوف لساعات من دون حركة. هل كان هذا هو العمل بالسينما؟ نحو منتصف النهار، قدّموا لنا سندويتشاً وزجاجة صودا لكلّ واحد منا وكان علينا البقاء طيلة فترة بعد الظهيرة. إذا حدث يوماً، أن شاهدتم في السينما فيلماً أميركياً تمّ تصويره في استوديوهات ورزازات، سترون مجموعة صغيرة من الأفارقة الذين يشعُرون بالملل ويتصبّبون عرقاً تحت أشعة شمس حارقة. فكّروا بأنهم لا يزالون على قيد الحياة، وربما كانوا يكنسون أزقتكم.

«هل لأني أمضيتُ النهار في ديكور، كُلّ ما فيه مزيف، أو لأني أحسستُ بالملل تلك الليلة، رأيتُ حلماً غريباً؟ عند

Tele: @Arab_Books

الاستيقاظ، بدا شديد الغرابة بحيث كنت مقتنعاً بأنه حلم أحد آخر، حلم أخطأ النائم.

«لا أعرف أين أنا، أنا جالس قبالة امرأة شابة جميلة. قُربها عجوز يدير الرحى التي تمر عليها السكاكين. أتساءل إذن لماذا حصل ذلك الرجل المبهدل والمجعد والمتعب على محاباة امرأة بذلك الجمال؟ أحسّ بأني لست في مكاني. أحاول أن أتذكر أين رأيتُ تلك المرأة؟ أغير رأيي وأقول: وأخيراً، هو حلم، ستستيقظ عمّا قريب وستنسى كلّ هذا. يمسكني شيء ما كما لو كنت ملتصقاً بالأرض بواسطة مادّة لها رائحة النفتالين. يستحيل أن أتحرك، أن أنهض، أو أن أغيّر وضعي. نظرة المرأة مغناطيس قوي، وأرى من جديد ذلك الإشهار حيث يعلق رجل بالمقلوب، رجلاه ملتصقتان بالسقف. سقطت في فخ. فجأة تمسك المرأة سكيناً حاداً، كأنها تستعد لتذبح خروفاً. نصلُ السكين يلمع. أرى النجوم وأركز كي أظلّ صاحياً في حلمي. تقول لي:

««أنت حكواتي، إذن ستحكي لي حكايات، حكايات جميلة حيث ينتهي كلّ شيء بشكل جيد. أكره الحزن والأسى»».

«لم تمنحني الوقت لأجيب، تعلمني بصوتها الحلو والرخيم بأني إن لم أؤدّ مهمتي، ستقتلني:

««احكِ لي حكايات وإلا قطعتُ خصيتَيْك»».

«أحسستُ عل الفور بألم بين ساقي. ها أنا ذا في دور وجلد شهرزاد. من مصلحتي ألّا أمرّر أو أفقد خيط الحكاية. رغم جمالها، عيناها السوداوان تعبّران عن صلابة وحتى عن قسوة.

Tele: @Arab_Books

أروي قصصاً كي أنفذ بجلدي. لكني لم أكن أبداً حكواتياً من قبل. فهمتُ أنّ عليّ أن أشرع في الكتابة إذا لم أرغب في أن أموت.

«قلت لها: «لست حكواتياً ولا كاتباً. أنا متخفّ في الحياة. الآن حياتي بين يديك».

«انتابتها نوبة ضحك واختفت فجأة في دوامة أحدثتها عاصفة رملية.

«عندما استيقظت كان مذاق لعابي مراً، وجهي متعباً، وجسمي متعرّقاً. سألني «سحاب» أين أمضيت الليلة. أجبته: «عند هارون الرشيد». ظنّ أنها علبة ليلية، لأنه كان يعتقد أني أمضيت الليل رفقة كومبارس أجنبيات. لم أنكر. ضحك وهو يجيب: «يا لك من محظوظ، يا لك من محظوظ!».

«بدأت مشاكلنا في مراكش. هناك، كنا نخيف الناس فعلاً. كانوا ينظرون إلينا كأننا هاربون من السجن. هيأتنا العامة ليست بالفعل مطمئنة لكننا لسنا مجرمين. اقترفنا غلطة الذهاب إلى مقهى «النهضة»، مكان أنيق في المدينة. جاء النادل في الحال كي يبعدنا. «قد توسخون مقاعدنا وطاولاتنا» تجرأ على أن يقول لنا. صحيح أنّ ملابسنا غير النظيفة كان يغطيها الغبار، لكن رفض خدمتنا رغم النقود الموضوعة على الطاولة، كان غير محتمل بالنسبة لنا. لم يكن علينا أن ننفعل، قد يستدعي الشرطة. أرانا النادل حماماً في الجهة الأخرى من الساحة. فكرة جيدة،

Tele: @Arab_Books

غير أنه أضاف تعليقاً مقرفاً: «فركوا البشرة جيداً، مع قليل من الحظ ستصبحون أقل سواداً، أقل اتساخاً!» أرغمنا حارس الحمام على أن ننفض ثيابنا في الخارج قبل أن ندخل. كان محقاً لأنها كانت مليئة بالرمل. كان الحمام فارغاً، من دون ضوء. لا بدّ أن البواب أراد أن يقتصد وقال في نفسه: لن أشعل الضوء من أجل سود. أطلق «كلاتا» صرخة كأنّ أفعى لدغته. «لا تخف، ليس سوى جني» قلت له وأنا أضحك. بحسب إحدى الخرافات، يساعد الظلام على خروج الجن من أوكارهم. بعد الحمام، عقدنا اجتماعاً في مطعم شواء صغير وقرّرنا شراء ثياب جديدة. كان من المهم أن نمرّ دون أن يلاحظنا أحد. كان «كلاتا» غاضباً، كان يحسّ بألم بسبب اللدغة، لكننا لم نكن نحمله محمل الجد. أخذ يشتم بصمت.

«لم أكن أعرف مراكش، لكني كنت أعلم أنه يوجد في المدينة العتيقة سوق خردة حيث تباع ملابس مستعملة بأثمان زهيدة. هكذا سنحصل مقابل لا شيء على ملابس شبه جديدة لبسها برجوازيون فرنسيون أو أميركيون. على قميصي الأزرق كان مطرزاً الحرفان جي. بي. أكد «السماء» بأنّ القميص كان لجيمس بوند. تمَّت تسميتي، في الحال، «جيمس بوند». لم تكن لي لا قامته ولا عمره ولا مهنته ولا كفاءته الجسدية ولا الجنسية، لكن واقع أن أرتدي أحد قمصانه الكثيرة أسعدني. قلت في نفسي: لم أعُد أحد الـ«بدون»، أنا أحد الـ«جي. بي».

«قررنا أن ننقسم إلى ثلاث مجموعات وأن نسافر بواسطة الأوتوستوب. اتفقنا على أن نلتقي في محطة الدار البيضاء.

Tele: @Arab_Books

كانت الشمس في عيني، كنت أعرق وكنت خائفاً من أن تنبعث مني رائحة العرق. كنت أتذكّر ما قاله لي والدي ذات يوم: «شكَّل ذلك كابوساً بالنسبة لي طيلة حياتي، في البيت كما في المدرسة. ذات يوم، سمعتُ زوجة أبي الأولى تؤكد أنّ السود تنبعث منهم رائحة خاصة، وأنهم رغم الاستحمام ستنبعث عنهم دوماً. كانت تقول: «بمجرد أن يرفع زنجي أو زنجية ذراعه، ستملؤك رائحة عرقهم. هي شبيهة برائحة البول. ذلك بسبب طبيعة جلدهم، لأنّ اللون الأسود يمنع الجلد من أن يتنفس، ويخرج كلّ شيء بعد ذلك عبر الإبطين». كنت مقتنعاً بكلامها، وكنت مقتنعاً أن رائحتي بعد الحمام كانت هي نفسها رائحتي قبله. ذات يوم أحدثتُ ثقوباً في ذراعي كي يتنفس جلدي. كانت نابو مرعوبة من ردّة فعلي وقالت لي إنّ الزوجة البيضاء كانت تشعر بالغيرة إلى درجة أنها أصبحت تخترع أي شيء كي تجعلنا نغادر. أضافت، وهي تضحك: «هل تعرف ماذا كان يقول لي والدك؟ كان يقول إن رائحة البيض تشبه رائحة الجثث! هل تدرك ذلك؟ هكذا، ستنبعث منك أنت رائحة الإبطين، وستنبعث من أخيك الأبيض رائحة الجثث! نحن مشبعون بالغباء، ولدي!»» وأنا أتذكر تلك الحكاية، لم أستطِع أن أمنع نفسي من أن أرفع ذراعي وأشمّ إبطي.

«كان الانتظار على قارعة الطريق طويلاً ومتعباً. وكانت الحرارة تجعل دمي يقوم بدورته بسرعة تُرعبني. عندما توقفت شاحنة، أخذت معي «سحاب» و«بوراس». لم يكن السائق مغربياً. كان بلجيكياً في طريق العودة إلى ميناء طنجة من حيث

Tele: @Arab_Books

يجب أن يحمل بضائع أخرى. لم يقُل شيئاً في البداية، ثم مثل شرطي سأل إنْ كنّا من الكونغو.

««خسارة، لأن الأفارقة الوحيدين الذين أتحملهم هم الكونغوليون.

«- لكن لنا أقارب من الكونغو؛ هم رائعون، يعملون عندكم في بلجيكا.

«- أجل، لكني لا أريد في شاحنتي غير كونغوليين، لا أحد سوى الكونغوليين!».

«بينما كان يتكلم، أخذ يبطئ إلى أن وقف بجانب الطريق ورمانا من مقصورته وهو يصرخ؛ كما لو أنه أصيب بالسعار فجأة. عدّد كلّ الشتائم العنصرية. جعلنا ذلك اللقاء السيئ نعيد تفكيرنا ونقرِّر السير على الأقدام. أحسّ «بوراس» برغبة في البكاء. منحته ضربة ودية على الكتف وواصلنا الطريق.

«كان المسير من مراكش إلى البيضاء صعباً جداً، حتى وإن كانت بعض الشاحنات تبطئ من وقت إلى آخر عن فضول أكثر منه عن كرم. لم يكن رجالي يتحدثون، لم يكونوا يغنّون، كانوا يمشون بصمت وأعينهم على الأفق. نمنا في الغابات واقتسمنا ما كان يؤكَل. كانت النقود مخبّأة في الأحزمة الجلدية، خاصة الدولار. مدخرات العديد من السنوات، سنوات من الحرمان بتلك الفكرة المجنونة والمحدّدة في السفر، مغادرة هذه الأرض الجافة وركوب البحر. أجل، البحر كنا نراه في أحلامنا العنيدة، في كوابيسنا. وكم مرة غرقت فيه. كنت أصرخ ولا أحد يهبّ

لنجدتي. لا صوت كان يخرج من حلقي. ذات ليلة وجدتُ نفسي في قارب مطاطي يفرغ من الهواء ببطء. حولي من كل الجهات، البحر يصبح مرآة لامعة والقمر الكامل ينعكس في تلك المرآة في حين كنت معزولاً في وحدة مطلقة. كان صوتي قد انطفأ مثل ضوء يختفي خلف خط الأفق. كنت أفقد قواي. كان القارب المطاطي يفقد شكله، سأغرق عندما سيصبح مسطحاً تماماً. لم أكن الوحيد الذي يرى هذا الكابوس المتكرّر. كان يسكن ليالينا إلى درجة أصبحنا نخاف النوم. كنا مهووسين تماماً بعبور مضيق جبل طارق. كان يحدث أن أرى جسداً منتفخاً يطفو على الماء. أحياناً عدة أجساد، أطفالاً ونساء بعضهن حُبْلَيات. كنت أسبح ضد التيار، مبعِداً بذراعي تلك الجثث التي يرسلها البحر مثل رسائل كي يساعدنا على التفكير. كنا نعرف كلّ شيء عن المخاطر والأخطار ومع ذلك كنّا نعاند في ذلك الجنون. وأنا، حفيد السيد أمير والسيدة نابو، ابن حسن أخ حسين التوأم، الأخ غير الشقيق لكريم، مغربي ولد في طنجة، أنا، آخر ذرية أسرة غريبة، كنت جزءاً من السفر والكابوس. يستحيل أن نعود إلى الخلف، أن نصحح الورقة التي كان قدري قد خطّ فيها خريطة وطريقاً من الجنوب نحو الشمال. يجب أن ننسى كل شيء. كنت قد وضعتُ كل شيء جانباً في صندوق من خشب قديم، أغلقته بأقفال كبيرة رميتُ مفاتيحها في البحر. كان الصندوق أحياناً من خشب، وأحياناً من حديد. أحياناً كان يطفو على سطح الماء، وأحياناً أخرى يسقط في أعماق البحر ويترك الأسماك الضخمة تروضه.

Tele: @Arab_Books

«فكرت في عمي حسين وتساءلت إنْ كان أكثر سعادة من والدي، بسبب لون بشرته. هو تاجر جيد يحب المال كثيراً. محلاته التجارية التي تُباع فيها مواد التجميل لا تفرغ. كان رجل أعمال، وقبل زواجه أعرف أن عدداً من النساء منحنَ أنفسهن له. كان قد حكى لي عن أفعاله في خلفية الدكان. أنا خجول وغامض، لم أكُن أجرؤ على أن أقصّ عليه مغامراتي الصغيرة. كان يظِنّ أن شاباً مثلي لا بد أن يكون ناجحاً بالقرب من الفتيات. عندما كان يسألني عن «مغامراتي»، كنت أجيب بغموض. ذات يوم، ألحّ كثيراً إلى درجة أني حكيتُ له قصة علاقتي مع خادمة الجيران. كانت شابة هادئة، بشرتها بنية وشعرها طويل تمنعها سيدتها من تركه منسدلاً. كانت تقول إن ذلك لا يقرّه الإسلام. ذات صباح، استغلت غيابها كي تصعد إلى السطح وتغسل شعرها الجميل وهي تغني. راقبتها. كنت أجدها جميلة وجذابة وغامضة نوعاً ما. أشرتُ لها. أجابت بضحكة، ثم انحنت وغطت نصف جسدها بشعرها الطويل. كان معي برتقالة، رميتها لها. أخذَتها، قضمت منها وهي تنظر إليّ كأنها تقبِّلني. كانت تمص العصير وتستمتع كأنها لم تأكل فاكهة طيلة حياتها. في اليوم الموالي رميتُ لها تفاحة. مسحتها على ثوبها واحتفظت بها. تعودنا أن نراقب بعضنا كلّ من سطح بيته. كانت هناك لعبة الشعر، ثم رقصة البطن على أنغام أغانٍ تُذاع من إذاعة طنجة، ثم كانت هناك القبلة الأولى عندما طلبت مني أخيراً أن أوافيها. صعدتُ على سلم ووجدت نفسي بين ذراعيها مثل بطل فيلم هندي. كانت تحب أفلام بوليود التي كانت تُعرض في

Tele: @Arab_Books

سينما الريف في السوق الكبير. ذات يوم سافر فيه صاحبا البيت لحضور عرس في الدار البيضاء، دعتني لموافاتها في غرفة نومهما. كانت عارية، اضطجعت على بطنها وقالت إنها عذراء. من دون كلمة، قلبتها ومارسنا الحب بشكل طبيعي. لم تكن عذراء البتة. رغم أنها كانت تحلف بقوة بأنها لم تمارس الحب أبداً! توقفت علاقتنا عندما رحل سيداها إلى تطوان.

«منذ أن أخذت أمشي، أخذتُ أفكر في كريم. أفتقده. أفتقد حنانه ومودّته وعناقه الكبير وكلماته. لو كان هنا معي، لدلني على الطريق، الخيِّر، الصحيح. كان دوماً نورنا. أتخيله مشغولاً يشم العطور، يصنّفها ويعلّق عليها. أسمعه يحدِّثني عن الزواج، يوصيني بتكوين أسرة، وبأن يكون لي أطفال. هنا، يكون جاداً، لأنه يعرف من خلال حدسه أن العثور على المرأة المناسبة شيء صعب. قبل وفاته، كان جدي أمير قد أوصى مّا بتزويج كريم. فكّرت، لوقت، في تزويجه بإحدى بنات أخيها. كانت متأكدة من أنها ستسعده. زواج منظم؟ أجل، لمَ لا، كانت مّا تقول. لكن بسبب الصعوبات التي يتطلبها تحقيق المشروع، تخلت عن الفكرة وبقي كريم أعزب.

«أتذكر أيضاً ذكريات الطفولة التي حكاها لي والدي. كان يبدو كأنه لا يزال متأثراً بالمسافة التي كانت تفصل بينه وبين إخوته غير الأشقاء: «عندما كنا صغاراً، كانوا يتناولون الطعام على المائدة الرئيسة رفقة والدنا، أنا وشقيقي، كنا نظلّ في المطبخ، ننتظر البقايا. كانت نابو تحضر لنا شيئاً آخر وتطعمنا خفية تقريباً. كنت أكره والدي الذي لم يكن له ردّ فعل. أقلقنا

Tele: @Arab_Books

ضعفه دوماً. رغم أنّ السيد الكبير، المحترم في عمله، المحبوب من قبل زوجتيه وأبنائه، كان بإمكانه أن يكون شجاعاً وألّا يتركنا نقتات كما يفعل المعوزون. كان كريم يلتحق بنا في الغالب، يجلس معنا ويُضحكنا. كانت تلك طريقته للتضامن معنا. ذات مرة وضع أمامنا الطاجين المخصّص للعائلة البيضاء. قال لنا: «هيا، سنأكل معاً، وهم سيأكلون البقايا!» كان يضحك، ونحن أيضاً. وصلت الباتول، الطباخة، غضبى، انتزعت الطاجين، قامت بتسويته وسارعت بوضعه على مائدة السيد. الجمعة، كان اليوم الذي تحضّر فيه الباتول طبقين من الكسكس، واحد باللحم المخصص للعائلة البيضاء، الآخر، من دون لحم من أجل المتسوّلين الذي كانوا معتادين على المجيء للأكل على عتبة البيت. ذات يوم، اختلطنا بهم أنا وشقيقي وأكلنا برفقتهم. عندما فاجأنا والدي، غضب وأعطى الأمر بأن نأكل معه على مائدته. كان انتصاراً صغيراً افتخر به كريم».

«على الطريق، مرة واحدة، توقفت حافلة، وأشارَ لنا السائق بالصعود. فهمنا أنه لن يطالبنا بالدفع. قال لي:

««على أية حال، ليس معي زبائن كثُر؛ سأنزلكُم قبل الوصول إلى البيضاء حتى لا يراكم رب العمل. هو رجل شرير. لا يؤمن بالله ورسوله. لا يؤمن سوى بالمال؛ هو من الغنى بحيث لم يعُد يعرف كم يملك، لكنه يعيش مثل البؤساء. تفو!» وبصق.

«سألنا بعد ذلك عمّا إن كنا نشعر بالجوع. قدَّم لنا مساعده

Tele: @Arab_Books

خبزاً وزيتوناً. كان لذيذاً. كنا منهكين؛ لا بد أنّ ذلك الرجل قد بعثته لنا إحدى النجمات التي تهبّ لإنقاذ الناس اليائسين. كان يشكّ في أننا سنحاول عبور المضيق. قدَّم لنا بعض النصائح:

««انتبهوا، مهرّبو البشر هم ألدّ أعدائكم. لا ثقة. لا شيء. ثم لا تثقوا بالمغاربة، ليس كلهم، لكن البعض منهم لا يحبوننا».

«عندها حدّقت به وفهمت أنه خلاسي.

«كما اتفقنا أنزلنا قبل البيضاء بنحو قليل. كان المساء قد حلّ. كانت الأنوار تُضاء واحدة تلو أخرى. كانت حركة السير كثيفة. كنا حذرين لأننا كنّا نعرف بأنّ تلك المدينة ليست لطيفة مع الفقراء، عامة، والناس مثلنا، بشكل خاص. يقال عن البيضاء بأنها رئة المغرب. هي بالأخص مدينة صناعية، بأحيائها الخضراء الفاخرة، وسكن دور الصفيح حيث يتعامل الناس بعنف مع بعضهم وحيث ليس للحياة إلّا قيمة نسبية. الفقراء فيها فقراء جداً والأغنياء أغنياء جداً. كانت البيضاء تخيفنا. لا يجب أن نتأخر فيها، لن نكون أبداً في أمان بها.

«صادفتنا فيها في الواقع أسوأ المصاعب. من المحطة الطرقية، حيث اجتمعت مجموعتنا، انطلقنا إلى حي الميناء بحثاً عن نزل رخيص أو فندق صغير. كنا في حاجة إلى الاغتسال والنوم. لكن بمجرد أن نحاول الدخول في أحد تلك الأماكن، كان الحارس يطردنا وهو يصرخ فينا بالعودة إلى أدغالنا. في إحدى المرات تدخّل رجل شرطة وأطلق صفيراً جعلَ سيارة

Tele: @Arab_Books

الشرطة تصلُ في الحال. أحاطَ بنا ثلاثة من عناصر الشرطة ومنعونا من التقدّم. عيّنني رفاقي كي أشرح الوضع: «نحن لا نفعل سوى المرور، قلت لهم، لا نريد بأيّ حال الاستقرار هنا. نريد الوصول إلى أوروبا. كونوا إنسانيين، دعونا نكمل سفرنا...».

«كان أحد عناصر الشرطة أسودَ مثلنا... أجمل دليل على أنّ المغاربة قد يكونون سوداً... لكنه كان شريراً، نعتنا بـ«زنوج»، «كحلوش»، «عزي»، «عبيد»... لم أكن في حاجة إلى ترجمتها لرفاقي، كانوا قد فهموا: زنجي، عبد... وبفضل رئيسه، وهو رجل أكثر تسامحاً وأبيض البشرة، أفلَتْنَا من الاعتقال. تلفّظ الشرطي ببعض الشتائم ضدنا أتبعَها بتعاليق نصفها بالفرنسية ونصفها بالعربية: «لم يكن ينقص سوى هذا! كحاليش عندنا! الشرطة لطيفة جداً. لو كان الأمر بيدي، لرميتُ الجميع إلى البحر، أجل، إلى البحر. ليس أمامهم سوى أن يسبحوا إلى طريفة في إسبانيا!».

«حيّرتني حالة الشرطي الأسود. لماذا كان خبيثاً، عنصرياً بشكل شرس، عنيداً وغبياً؟ ربما كان هو أيضاً عرضة لعنصرية زملائه أو رؤسائه. هو أيضاً قد يكون ابن جارية جيء بها من أفريقيا. كونه يرتدي الزيّ ويحمل السلاح كان يعطيه أهمية. لكن حقده، كان يصبّه على الذين يوقفهم، بيضاً أو سوداً. ربما كان يأمل في ورقة نقدية أو ورقتين؟ كنا نعرف أنّ ذلك جارٍ به العمل، لكن ذلك كان أكبر من قدراتنا. عبّر «سحاب» و«بوراس» اللذان غضبا ممّا حدث، بدورهما، عن كرههما للبيض. عنصرية

Tele: @Arab_Books

مقابل عنصرية. سود ضدّ بيض. بيض ضد سود. يا لها من طبيعة غريبة. من الصعب محاربة هذا الشر الذي يسكن كلّ إنسان. أردتُ أن أقدِّم لرفاقي درساً في التربية المدنية، لكن لا المكان ولا الزمان كانا مناسِبَيْن. كان التعب واليأس متفاقمين. كنت أنظر إليهم ويحدث أن أرثي لحالنا جميعاً.

«كان اسم الفندق الصغير غير المصنف الذي انتهى به الأمر إلى استقبالنا «الرجاء». كانت تديره امرأة عجوز تدخن طيلة الوقت، كانت تطلق على نفسها «حاجة»، مثلما نطلق على الناس الذين أدوا فريضة الحج. لكنها أخبرتنا في الحال بأنّ قدميها لم تطآ مكة، وبأنها كانت يهودية وأنها قاومت بعد حرب الأيام الستة، ضغط عملاء الموساد الذين حاولوا أن يجعلوها تهاجر إلى إسرائيل. حكت لنا قصتها وأسكنتنا في غرفتين كبيرتين، وهي تحذّرنا من البراغيث. كانت تقول إنّ زبائنها لم يكونوا في المستوى.

«قامت بحركة جعلتنا نفهم بأنّ علينا أن ندفع مسبقاً، وهو ما قمنا به في الحال. لأني كنت الشخص الذي يتحدّث بسهولة، أخذَت بيدي وقالت لي: «تعال لتشرب معي، أشعر برغبة في الحديث، هل ترغب؟ سأجعلك تدفع ثمناً معقولاً للغرفة».

«كنت أسقط من النوم. شربتُ جعة من دون كحول وأكلت ساندويش الدجاج الذي حضَّرته من أجلي. حدّثتني عن ابنها الذي سرقه الموساد. وقالت إنها لن تضع أبداً خطاً على ذلك الحادث. كانت تكره إسرائيل. حياتها كانت هنا، في البيضاء وليس في مكان آخر. وعندما سألتها إنْ كان لها زوج، أخذت

Tele: @Arab_Books

نفساً عميقاً من سيجارتها، ونظرت بعيداً وقالت لي: «أجل لي قصة حب مأسوية. كان اسمه سي محمد، كان مسلماً، وأنا اعتنقت الإسلام كي أتزوجه. لكن أسرته لم تقبل. أبداً لن تكون امرأة يهودية ولو أسلمت جزءاً من العائلة، كان أبوه يصرخ. طبعاً تصرف أقاربي بالحدة نفسها: هل تدركين أن الزواج بمسلم خيانة لأسلافنا، كأنك تغرزين سكيناً في القلب، في يوم ما سيقتلوننا... هربنا أنا وسي محمد. كانت الشرطة وراءنا، وأمسكَت بنا. من شدة غضبه حرمه أبوه من الإرث وتنكّر منه إلى الأبد. هاجر والدَي رفقة مجموعة من اليهود البربر، وغابت عني أخبارهم. بكيت، تعذّبت، كدت أجنّ، أظن أني قد جننت. عدة أيام بعد هذه المأساة، دون أن يُعلمني، نهض سي محمد في منتصف الليل، ذهب إلى المكان الذي تنكّر منه فيه والده علانية وشنق نفسه في الشجرة، شجرة بلوط عمرها مائة سنة، شجرة جافة ومن دون رحمة. علمتُ فيما بعد أنّ والدته قد جنّت بسبب ذلك وأن الوالد مزدهرٌ في تجارته. هذا ما حدث منذ زمن بعيد في مدينة الخميسات. مدينة تقليدية، بلدة بدويين، فلاحين أميين... لا شيء يشبه البيضاء أو الرباط».

«كانت عيناها تدمعان. تساءلت إن كانت حكايتها حقيقية أو أنها اخترعتها تمضية للوقت. كأنها سمعت السؤال الذي صغتُه بصمت، نهضتْ وعادت تحمل ألبوم صُوَر. كان لسي محمد شارب رقيق، كان يشبه كلارك غيبل. في إحدى الصور كان الاثنان، معاً، بلباس السباحة، متعانقين، سعيدين، شعرها يرسم تموجات في الهواء. كانا جميلين. على أخرى، هيئة جادة، أفا

غاردنر خلال مرحلة نضجها. حالياً، المسكينة، كان وجهها قد تآكله الكحول والحزن. كانت مؤثرة جداً حتى أني صدّقت حكايتها.

«في الصباح قدّمت لنا الفطور، كعكاً مقلياً ورقائق بالعسل مع الشاي والقهوة. قدمت لنا بعض النصائح كي نذهب إلى طنجة:

««اركبوا القطار، الأوتوستوب لا ينجح دائماً. يمكن أن تلتقوا أناساً طيبين، لكن ذلك نادر. هنا كما في كلّ مكان لا يحظى الفقراء بحنان خاصة عندما يكونون سوداً. القطار أفضل، خذوا تذاكركم، حتى لا يطلب منكم إبراز أوراقكم، التي قمتم بإتلافها، أليس كذلك؟».

«لم نجب.

«انطلق القطار في الوقت المحدد. في مقصورتنا أمضى رجل وقته وهو يأكل. عرض علينا مشاركته ساندويشاته الكثيرة. كان قلقاً وكان تناول الطعام بطريقة مفرطة يبدو كأنه يطمئنه. من حين إلى آخر كان يتجشّأ، ويقول بعدها «الحمد لله». عندما وصلنا إلى القنيطرة نام. كان صوت شخيره أقوى من ضجيج القطار. دخلت المقصورة شابة، تغطي شعرها بمنديل جميل. كانت تبدو قلقة كأنها تهرب من أحد ما. هرع نحوها رجل يكبرها سناً وأرغمها على أن تتبعه. لم نفهم ماذا كانا يقولانه، لكن عنفه كان عنف رجل غيور، غير واثق من نفسه. حاولت التخلّص من قبضته وسقطت عليّ. نهضتُ وساعدتها على

Tele: @Arab_Books

الوقوف على قدميها. رمقني الرجل بنظرة مليئة بالحقد وبصق على الأرض. قال بالفرنسية: «لا ينقص سوى هذا، الزنوج الذين يغازلون نساءنا!».

«كان الجابي رجلاً طويلاً، لطيفاً ومبتسماً. عندما أخذ تذاكرنا كي يختم عليها، نظر إليّ محدِّقاً وقال: «أنت، يبدو أني أعرفك، ألستَ من طنجة؟» أجبته بأنه مخطئ وبأن قدميَّ لم تطآ طنجة... توقف القطار في أصيلة، وهي مدينة صغيرة تطلّ على البحر. صعد رجال درك مسلحون للبحث عن أحد الهاربين. سمعتهم يقولون إنه ملتحٍ يحمل متفجرات. كان جميع مَن في القطار في هرج. في لحظةٍ ما كثر الضجيج. نجح رجال الدرك في الإمساك بالرجل وجرّدوه من سلاحه. كان يستعد على ما يبدو لتفجير نفسه في محطة طنجة. عندما انطلق القطار من جديد، أحسسنا بارتياح، لكن أيضاً بقلق. شرح لنا أحد المسافرين بأنّ الشرطة المغربية ذات فعالية رهيبة بحيث كانت قادرة على تفكيك أية خلية إرهابية في طور التكوين. قال لي وهو يُشير بإبهامه نحو الأسفل: «القاعدة، وَالُو في المغرب...».

«وصلنا إلى طنجة في فترة ما بعد الظهيرة. رأيتُ الثنائي الذي كان يتشاجر يغادر. كانا متشابكَي الأيدي ومن حين إلى آخر كانا يتبادلان قبلة. شيء غريب. تراجعت عن فهم هؤلاء الناس. انتابني إحساس غريب، كأني أكتشف هذه المدينة لأول مرة. لا شيء كان قد تغير منذ ترحيلي. شارع إسبانيا ما زالت ترتاده العائلات التي تشتري المثلجات في فالنسيانا. محطة

Tele: @Arab_Books

القطار كانت قد نقلت إلى خارج المدينة، وتمّ تحويلها إلى مركز شرطة. بائعو تذاكر البواخر يجرون خلف سيارات المهاجرين. نساء سود يحملن رضعاً ويتسوّلن. متسولات أخر يطردنهن. قلت في نفسي إنّ البؤس يجعل التعساء سيئين مع بعضهم. عنصرية في كلّ اتجاه، بيض ضد سود، سود ضد بيض. لو كان هؤلاء أغنياء، لكانوا حَسَني السلوك بعضهم مع بعض، يهنئون بعضهم وهم يشربون كأساً على شرفة فندق كبير. كنت أراقب كلّ ذلك، بانعزالية. كنت في بلدي وخارجه. كنت أجنبياً لكني من المكان. إحساس غريب. كان عليّ أن أقاوم الرغبة في أن أترك كل شيء وألتحق بعائلتي. تملّكتني رغبة للتخلّف عن رفاقي، لكن كان عليّ أن أذهب إلى النهاية. كنت فضولياً وفي الوقت نفسه كنت أخشى الأسوأ.

«كانت المجموعة قد قرّرت. أنا، كنت أشكّ. قلت لهم بأنه قبل أن نحاول العبور، يجب أن نفكر جيداً، أن نستعلم، وأن نأخذ كلّ الاحتياطات اللازمة، وخاصة ألّا نُخرج نقودنا في الحال. منذ أن عدت إلى طنجة، تحولتُ من أسود إلى أبيض، ابن هذه المدينة القديمة حيث كلّ الخدع ممكنة. كان سفري من داكار إلى طنجة طويلاً ومتعباً. أعرف الآن بشكل أفضل مَن أكون. لا بشرة سوداء ولا قناع أبيض. عنصري، كنت قد أصبحتُ كذلك أحياناً، لكثرة ما سمعت الشتائم تلقى عند مروري. كنت أغضب جداً من أولئك الفقراء الذين يحسبون أنفسهم أفضل لأنهم أقل سواداً مني.

Tele: @Arab_Books

«حصلنا على موعد مع رجل يدعى الروبيو لأنه يصبغ شعره بالأشقر. كان سيعرّفنا على أحد رجال الديب، المافيوزي الشهير الذي لا يعرف أحد وجهه، والذي كان يتاجر في الكيف كما يشتغل في تهريب البشر. طلبوا منا انتظاره ليلاً في أحد مقاهي السوق الصغير. كان هو من سيتعرّف علينا. مخبروه يُعلِمونه بكلّ شيء.

«كان «المقهى» المركزي فارغاً والوقت متأخراً. كان النادل يأتي من حين إلى آخر ليقول لنا: «أنتم تنتظرون المعلم؟ صبراً، يحدث أن يتأخّر عدة ساعات أو ألا يأتي البتة، صبراً أصدقائي!» في الشارع، بعض الصعاليك يحاولون النوم. أطفال يشتبكون على أعقاب سجائر ملقاة على الأرض. امرأة عجوز تمشي بصعوبة. جلس سائحان على الشرفة، وافاهما في الحال رجل نحيف شبيه بجثة. طلب منهما أن يتبعاه. غمزني النادل كي يقول إن الأمر يتعلّق برجال يعشقون الأطفال. لم أقل شيئاً. ليلاً، تستعيد طنجة أسطورتها، مجرميها وتائهيها ومدمنيها. نحن، كنا ننتظر رجلاً سيقرِّر مصيرنا. غداً، سنكون إمّا في إسبانيا وإما في السجن؛ وإما في قاع المضيق حيث تمتزج المياه، حيث يلتقي البحر المتوسط بالمحيط الأطلسي. كنا جميعنا متعَبين جداً. كانت نظراتنا فارغة. وجوهنا مجعدة بفعل التعب. رأيت ثلاثة أفارقة يمرون، كانوا متأنقين، سارعوا الخطى عندما رأونا. من هم؟ أخبرني نادل المقهى بأنهم قد حصلوا على بطاقة إقامة وعمل؛ تمَّت تسوية وضعيتهم مع آلاف آخرين. أضاف: «لا يرغب المغرب في أن يُقال إنه غير مضياف. تسوى الوضعيات

Tele: @Arab_Books

بقوة. هذا أفضل ما سيحصل لكم إن قرَّرتم البقاء هنا. لكن لا تحدِّثوا المعلم بهذا، لو علم ما قلته لكم، سيطردني».

«حوالي الواحدة صباحاً، وقفت أخيراً سيارة مرسيدس سوداء زجاج نوافذها معتم أمام المقهى. كان الشارع خاصاً بالمشاة، لكن البعض كان يسمح لنفسه بتخطي ذلك. نزل منها رجل طويل، التفت يمنة ويسرة، تحدّث في ميكروفون معلّق في طية سترته، ثم أومأ بأنّ كل شيء تحت السيطرة. ظهر رجل قصير، سقيمٌ ووجهه مجعد. سارع نادل المقهى وقبَّل يده. جاء أحد الحراس لرؤيتنا وسألنا عن كلمة المرور.

«انطلقتأفريقيابشكلسيئ»، قلت بسرعة.

«كرّر ببطء: «ان-ط-ل-ق-ت-أ-ف-ري-ق-يا-ب-ش-ك-ل-س-ي-ئ».

«هل معكم النقود؟

«- نريد أن نتحدث مع الروبيو.

«- هل تظنون أن الروبيو يتنقل من أجل شيء قليل؟»

«أخرَج كلّ واحد منا نقوده المغلَّفة بعدة خرق ومدَّها إلى الرجل الذي كان أمامنا. تحدث في الهاتف، سمعت كلمة «طقس» ثم «رياح الشرقي».

««ستعبرون الليلة، أنتم محظوظون، الجو رديء، رياح الشرقي قوية. عادة هذا يحبط الحرس المدني. من قبل، كنا نقوم بالعبور في طقس جيد، كان خطأ، كان يتمّ رصدنا بسرعة».

«قام بعَدّ النقود، وضعها في كيس بلاستيكي كورتي

Tele: @Arab_Books

انغليس، هرع إلى السيارة التي انطلقت بسرعة. عاد إلى الخلف، أخرج رأسه عبر النافذة ونادى على أطولنا قامة، رفيقنا الذي كنا نطلق عليه «السماء». تكلم في أذنه خلال دقيقة، ثم انطلق بسرعة كبيرة، مختفياً في ليل المدينة، ديكور مثالي لفيلم أسود.

«إذن ماذا كانت الرسالة؟

«- موعدنا الساعة الثالثة صباحاً بالتحديد في المرقالة، في الرأس المتقدّم الأزرق شرق المنارة. احذروا، هناك كلاب شرسة. يجب أن نكون حذرين وهادئين. سيأتي رجل ليأخذنا واحداً واحداً. يجب أيضاً أن نكون صبورين، قال لي».

«حينئذٍ أحسست أنه لن يكون هناك عبور. ريح، مزمار. كان ذلك يُرى من بعيد. لكني لم أقل شيئاً. ذهبتُ برفقتهم إلى المرقالة. رفض حارس المنارة أن يتركنا نمرّ. كان الطويل يكرّر كلمة المرور عبثاً. كان الحرس يريد بعض المال، لم يكن معنا. حاول أحد القفز على السياج، منعه من ذلك كلبان مسعوران. كشطنا جيوبنا وأعطيناه بعض القطع. فتح السياج، أمسك الكلاب وأرانا الرأس الأزرق -ليلاً لم نكن نستطيع تبيّن الألوان- ثم اختفى، بلا شك كي يذهب لينام نوماً عميقاً.

«صمتٌ ثقيل وسخيف. قلق ظاهر على الوجوه. الكثير من التضحيات، الكثير من السير عبر الطرقات من أجل هذه اللحظة الحاسمة، الجوهرية، لحظة تُواجِه فيها حياتُنَا نفسَهَا. قريباً سنعرف: الحياة، الموت، النهاية، أو فقط الخيانة. الرأس الأزرق، ملتقى البحر المتوسط والمحيط الأطلسي.

Tele: @Arab_Books

«كان الوقت يمرّ ببطء ساخر. كانت ريح الشرقي تحرِّك الأشجار. لم نكن نحسّ بطراوة الهواء لشدّة ما كنّا ننتظر. رأى أحدنا ظلالاً، تعرَّف آخر على سلف خرج من قبره وتبعنا من السنغال. أنا لم أرَ شيئاً سوى البحر. ريح الشرقي كان يصنع خرفاناً بيضاء تظهر ثم تختفي. كان الضوء يتغير، يصبح أكثر وضوحاً. لا قارب في الأفق، لا شيء، لا أحد، ولا حتى حورية من البلاستيك أو حصان خشبي لمساعدتنا. فقط بعض هبات الرياح تذكِّرنا بوضعنا. ثم الشمس تبرز فجأة كما أنها تعني بأنّ الشوط قد انتهى. نظرنا بعضنا إلى بعض، أحنَينا رؤوسنا، وغادرنا المنارة من دون كلمة. فتح الحارس البوابة الكبيرة بصمت. لم يجرؤ على النظر إلينا. لم تتحرك الكلاب. كانت هزيمتنا مريرة. أخفى «السماء» وجهه بين يديه وبكى. خفف «سحاب» عن نفسه برمي أحجار من فوق الحافة. الآخرون كانوا بُكماً.

«عدنا إلى المقهى. كان الندل قد تغيّروا. لا أحد استطاع إخبارنا بشيء. رغم أننا لم نحلم؛ كنا هنا أمس بالفعل... مال نحوي أحد زبائن المقهى فهم مأساتنا وقال لي: «لا تتعبوا أنفسكم. الشرطة في أثر الديب، أما بالنسبة إلى الروبيو، فهو في السجن في ألميريا منذ هذا الصباح. نقودكم، من الأفضل أن تنسوها، حالياً. أنا من الشرطة، أنا على علم بكلّ شيء. عندنا تعليمات للقضاء على المتاجرين بالبشر. يمكن أن أساعدكم في الانتظار».

«رفض رفاقي. لا ثقة. اختفوا في حشود يوم الجمعة الذين

Tele: @Arab_Books

يتهيئون للذهاب إلى المسجد. لم تعد مجموعتنا موجودة، أصبحتُ وحيداً من جديد.

«بعد المسيرة الطويلة، والأيام العديدة من المعاناة، تمّ تجريدنا من كلّ شيء، في وقت أقل ممّا يستغرقه قول ذلك! بقيت هناك، مصعوقاً أمام فنجان قهوتي بالقشدة الفاترة، الذي دفعتُ ثمنه بآخر ما تبقى معي من قطع، تضبَّبت رؤيتي بفعل كلّ تلك التعاسة. كان المقهى يخدم رواده المعتادين في الصباح. قرّرت ألّا أتحرك، ألّا أتحدث، ألّا أصرخ. اتّشح كلّ شيء بالسواد، السماء كما الوجوه، كما الأسوار والأشجار. كانت بشرتي تنعكس في كل ما أراه.

«أسود، أسود تماماً، كان جلدي أسود إلى ما تحت قدمي، كأني صبغتهما بالحبر الصيني. راحتي كفي أيضاً. لا غموض الآن. كنت أسود بالكامل. ما جدوى التذكير ببشرة جدي البيضاء؟ لا أحد سيصدّقني ويأخذ على محمل الجدّ حكايتي إذا ما حكيتها. بشرتي السوداء كانت هويتي، مزدوجة، ثلاثية، ملونة، معكرة، شاحبة، حارقة وحتى جهنمية. تكشف عن الزنجي فيّ، تذكّر بأسلافي الذين رُحّلوا من جزيرة غوري نحو أميركا. بشرتي المحرومة من الثقوب كي أتنفس وروحي الملوّنة بسواد لا يمّحي تجعل مني رجلاً حراً ومستعدّاً للدفاع عن هذه الحرية بجميع الوسائل، الدفاع عنها واتّباع الطريق الذي تحدّده لي.

«بقيت جالساً هناك طيلة النهار، مثل حجر، حجر كبير، صخرة مليئة بالكراهية والغضب، تسكنها أحلام رهيبة. كان

Tele: @Arab_Books

بعض الأطفال يتوقّفون وينظرون إليّ مثل تمثال حي. كانوا ينصرفون ضاحكين. من وقت إلى آخر كان النادل يأتي لي بفنجان قهوة بالقشدة، مهدى من الدار. مرة، مدّ لي سيجارة. أخذتها ومضغتها ثم بصقتُ التبغ. كان لعابي أصفرَ ومرّاً. غَيَّرَ جلدي لونه كأنّ الشمس وهي تمرّ كانت تغسلني، تزيل عن جسدي السواد الذي كان أيضاً لون روحي. جزء من حياتي يذهب. غَيَّرَ جسدي مظهره، كان رأسي يدور، قدماي تتحركان لوحدهما، لم أعُد أعرف أين كنت ولا مَن أكون. بعد فترة طويلة من الصمت أو الضجيج الشديد، لم أعُد أتذكّر، حُطّت يدٌ على ذراعي وقال لي صوت:

تعال، فلندخل إلى البيت».

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

الفصل الثامن

خلال كل الفترة التي استغرقها سفر سليم، كافح حسن محاولاً أن يعثر له على أثر. كانت هناك بالتأكيد البرقية التي أرسلت من مكتب بريد في داكار، لكن مرّ أكثر من سنة منذ لم تتلقّ العائلة أية أخبار. كان حسن يذهب بانتظام لرؤية أحد رجال الشرطة الذين يعرفهم. كان يبدو له متفهّماً. كان حسن يقدّم له عطراً من أجل زوجته ويسأله: «هل من أخبار؟ - لا جديد»، كان الشرطي يجيبه. على ما يبدو، لم يكن مصير الشاب الأسود الذي اختفى في الطبيعة يهمّ رؤساءه. ذات يوم، من أجل طمأنته، قال له الشرطي بعد عدة زجاجات من الجعة: «هل تعرف، المختفون، شيء لم يعد موجوداً اليوم. من قبل، أجل، كان ممكناً، في الفترة التي تطلقون عليها «سنوات الرصاص». كنت قد بدأت العمل ولم أكن أطرح الكثير من الأسئلة، لكني كنت أعرف أن أناساً مزعجين يختفون ولا يتمّ العثور عليهم أبداً. لكن كل ذلك انتهى الآن! يمكن أن تهدأ، ابنك يستمتع بوقته في مكان ما في إيبيزا أو مراكش! سترى، ذات يوم، سيظهر مثل زهرة، لا تقلق».

Tele: @Arab_Books

رغم كلّ شيء كان حسن خائفاً. ربما كان ابنه ضحية خطأ ما. ربما وضعَ أحد ما مخدرات في جيبه، أو أخذ مكان شخص آخر.. كان يتفادى التحدّث في الموضوع مع والدته، التي كانت صبورة وحكيمة، تصلّي كلّ مساء وتنتظر عودة حفيدها. لكن كان يحدث أن يتحدث مع كريم، الذي كان بابتسامته وحنانه يهدِّئه وهو يكرِّر عليه: «س... سليم سيأتي... متأكد... هو بخير».

مرّت الشهور دون أخبار عن سليم. في الربيع، تم تحضير البيت من أجل رالف وخوان اللذين كانا سيأتيان للاحتفال بذكرى زواجهما. كانا قد أخبرا نابو قبل مجيئهما بخمسة عشرة يوماً كي يتم تحضير كل شيء. بسبب اكتئاب حسن، جاء حسين ليساعد والدته على تحضير الحفلة. من بين الندل الذين كانوا مكلّفين بالخدمة، كان هناك شاب أسود اسمه آلانديلون. كان ينحدر من مالي ويعمل لدى بائع تحف إنجليزي تقاعد في طنجة. كان قد سوّى أوراق إقامته منذ مدة. طرح عليه حسين أسئلة، دون أن يذكر حكاية عائلته ومصير سليم الذي يشغلهم.

«والعنصرية؟ سأله.

- العنصرية في المقام الأول هي الفقر. أنا أتفادى أن أوجد مع البيض، وخاصة ألّا أطلب منهم أي شيء. هم لديهم الكثير من الأفكار المسبقة».

بعد فترة سأله حسين عن الكيفية التي يتصرف بها معه الرجل الإنجليزي. تنهد آلانديلون، ثم قال:

Tele: @Arab_Books

«للضرورة أحكام!».

لم يُلحّ حسين، فهم أنه من حين إلى آخر كان عليه إرضاء بعض نزوات مشغّله المزعجة. تلك الأشياء لا تُقال.

تذكّر حسين الحوادث العديدة التي عاشها مع شقيقه. كان دائماً يقدّر رباطة جأشه وصبره وذكاءه. لم يكن أبداً يرد على الشتائم العنصرية ويرفض دوماً أن يتعارك. كان يجعل الأمور تقف دوماً عند حدّها ولا تتطور. في المسجد، حيث كان يذهب نادراً، لا أحد كان يقلل من احترامه. لكن إيمانه لم يكن قوياً وكان يظلّ بعيداً عن كل ما هو ديني.

لا علاقة مع أخويهما غير الشقيقين. محمد وعزيز، اللذين سافرا إلى القاهرة، أحدهما لدراسة الفلسفة، والآخر لدراسة العمارة الريفية، بحسب تقليد حسن فتحي. تمّ تحويلهما عن مشروعهما من قبل الإخوان المسلمين كي يصبحا رجلَي دين عليهما نشر مذهب الوهابية المتشدّد، الذي يعود إلى سعودي من القرن الثامن عشر مهووس بالفضيلة والتطبيق النصي للإسلام. كان قد أعفيا اللحية ويصبغانها بالحناء، يرتديان تشاميرات بيضاء، وهي نوع من الجلابيب الطويلة، ويمران على المنازل لينشرا الكلمة الطيبة. كان الناس يصرفونهما بلطف مؤكدين أنهم ليسوا بحاجة إلى نصائحهما حتى يكونوا مسلمين صالحين. كانا قد حاولا بعد ذلك مع حسن وحسين اللذين استمعا إلى خطابهما المهيأ جيداً دون ردّ. لم تتدخل نابو وتركتهما يتصرفان لوحدهما مع أخويهما اللذين كانا يدّعيان حلّ كلّ المشاكل بالدين. كانت تقول إنهما تعرَّضا لغسيل مخ. كريم، من جهته كان قد تفاعل

Tele: @Arab_Books

بشكل سيئ مع وعظهما. قال كلمة واحدة: «عنيفان». رغم أنهما لم يكونا يحملان سلاحاً ولم يكونا مهدّدين، لكنه أحسّ بالعنف الذي يوجد في قلبيهما، كان قد قرأ على وجهيهما شيئاً جعله يشعر بالخوف. بعد ذلك، انصرفا كما جاءا، لا بد أنه قد تمّ تكليفهما بتقديم الوعظ في مكان آخر، ربما في موريتانيا حيث توجد جماعة تكوَّنت في المدارس نفسها التي مرا منها.

كانت نابو قد خمنت سبب غياب حفيدها الطويل. وعندما ظهر سليم ذات صباح أمام باب البيت، كانت تعرف من أين أتى ولم تسأله عن شيء. بعد أن قبّل كفّي جدته وجبينها، أخذ يبكي بين ذراعيها مثل طفل صغير هرب من بيته. أدرك فجأة الهموم والقلق الذي سبَّبه لعائلته. كان بإمكانه أن يخبرهما عن أحواله، أن يرسل خطاباً أو رسالة أو بطاقة بريدية يطمئنهم فيها على حاله. أرسل، مرة، برقية، ثم لا شيء خلال شهور وشهور، إلى درجة اعتباره ميتاً. لكن الأمر كان أقوى منه. ابتداء من اللحظة التي وجد فيها نفسه في سيارة الشرطة ولا أحد يحمل أقواله على محمل الجدّ، أصبح لون بشرته هو هويته الوحيدة، وسبب وجوده الوحيد.

مساء عودته، التقى سليم ووالده حسن وعمّاه حسين وكريم في الحمام. مثل نابو، لم يطرح أحد منهم أسئلة. كانوا سعداء لاجتماعهم مقرّرين المضيّ إلى الأمام. كان نحيفاً، ملامحه مشدودة، طمأنهم سليم على صحته. قال لهم ضاحكاً: «لقد مارستُ المشي، يبدو أنه أفضل رياضة».

Tele: @Arab_Books

بعد فترة، قال له حسين: «إذا أردتَ أن تتخطى الأمر، يجب أن تشتغل». كان أحد أقاربهم، الابن الأوحد للعم إبراهيم، يريد أن يمرِّر عمله لأحد قبل أن يأخذ تقاعده. بعد استقلال المغرب، وإدماج طنجة، كان إبراهيم قد حوَّل مكاتب الصرف إلى وكالة تأمين، يديرها ابنه. قَبِلَ سليم على الفور الاقتراح، كان عملاً هادئاً والتوقيت منتظماً، يمكن أن يقف على قدميه من جديد بحسب الوتيرة التي يختارها.

مرت الأسابيع الأولى في الوكالة من دون مشاكل. هادئاً ورزيناً، كان سليم مستخدماً نموذجياً لا يمكن مؤاخذته على شيء. تحسَّن حاله وأراد أن يعود إلى التصوير. ذات صباح، ارتدى ثيابه الجديدة، حلق لحيته وذهب في الصباح الباكر إلى مركز الشرطة في الدائرة الثانية. كان يرغب في استرداد آلة التصوير التي صادرتها الشرطة.

كان هناك حركات وأنشطة لا تنتهي. رجال شرطة بثياب مدنيّة يُعرفون بهوسهم بالتحدّث في جهاز راديو لاسلكي من حيث يتسرّب صوت بالكاد يُفهم. نساء، فلاحات يجلسن على مقاعد وينتظرن، مستسلمات، لا ندري ماذا. شباب يلعبون على هواتفهم. نساء، تمّ جمعهن ليلاً، ينمن في أحد الأركان. رجل شرطة يطالب بالشاي بالنعناع، بعد أن أخطأ النادل وأحضر قهوة بالحليب على الطريقة الإسبانية. كان يصرخ: «أكره القهوة بالحليب!» لم يعرف سليم مع مَن يتحدّث. اقترب من رجل يرتدي زياً نظامياً. كان يحمل رتباً. سأله إن كان يستطيع التحدث

Tele: @Arab_Books

معه. سَمِعَ: «لا وقت لدي، اذهب لرؤية زريرق، يمكن أن يرشدك». فَهِمَ سليم أنه يرسله إلى شخص أزرق العينين. لمحه من بعيد، تذكر مغامراته السيئة، وقال في نفسه: حقاً أفتقد إلى الحظ. هذا الشخص سيكون سيئاً معي، من المؤكّد أنه سيظهر حماساً مبالغاً فيه. تقدم سليم:

«صباح الخير، اسمي سليم بن حسن، أقطن عند جدتي نابو، التي تشتغل عند السيد رالف، في القصبة... أودّ استرداد آلة التصوير التي...».

نظر إليه الشرطي وأطلق ضحكة عصبية.

«أية آلة؟ مَن هو رالف هذا؟ أحد المثليين الذين...؟».

حاول سليم أن يحكي له فصولاً من توقيفه قبل سنة رفقة سود آخرين...

«آه، فهمت. أنت الشخص الذي يلتقط صوراً يبيعها للصحف الأجنبية ويقدِّم صورة سيئة عن بلدنا! خائن! لو لم يكن هناك حقوق الإنسان وكلّ ذلك اللغط من الجمعيات، كنت سأضعك في الثقب مباشرة ولن يسمع عنك أحد! لكنك محظوظ، حالياً لم يعُد بإمكاننا القيام بعملنا كما نريد.

- طيب. إذن أعيدوا لي آلة التصوير، إنه أكلُ عيشي، أنا صحفي مستقلّ...

- مستقل؟

- أنا مستقل، لستُ مرتبطاً بأية صحيفة!

- إذن أسوأ! أنت تجتاح كلّ مكان. اغْرُب ولا تَعُد أبداً...».

Tele: @Arab_Books

فهم سليم أنّ عليه ألّا يلحّ. خرج مكتئباً. كان ثمن تلك الآلة مرتفعاً، ادَّخره لفترة طويلة كي يستطيع أن يشتريها من التاجر الهندي الوحيد الذي بقي في طنجة، في شارع الحرية، مباشرة قبل السوق الكبير. كان الآن متأكداً أن لا مستقبل له في هذا البلد.

حوالي العاشرة ذهب سليم لموافاة ابن عمه في الوكالة. أحسَّ بالملل طيلة النهار، وأمضى وقته يراقب السفن تغادر الميناء نحو الجزيرة الخضراء أو طريفة. من حين إلى آخر كان أحد القوارب يمرّ بسرعة كبيرة. كان يتصوّر نفسه في القيادة. جاء ابن عمه عدة مرات كي يذكِّره بالتركيز في العمل. كان عليه تحرير بوليصة تأمين. كان الزبائن ينتظرون. لم يكن بوسعه أن يحلم.

شهراً بعد شهر، بدأ القلق ينتابه من جديد، دون أن يعرف لماذا. شيء ما كان يشتغل فيه، أخذ يشكّ من جديد في هويته. لم تكن الصور التي كان يلتقطها بواسطة هاتفه ذات جودة عالية. لم يكن ينشرها في صفحته على الفايسبوك. كان قد ابتعد عن مواقع التواصل الاجتماعي. كان حريصاً على استرجاع آلته كانون. أصبح ذلك هوساً. تحدَّث عن ذلك مع والده. ذات مساء، بينما كان مركز الشرطة يفرغ، دخل حسن وحاول أن يفتش أحد المكاتب. فاجأه صديقه الشرطي وقال له: «لكن هل أنت أحمق! ماذا تفعل؟ ابنك عاد، عن ماذا جئت تبحث هنا؟» حدّثه عن آلة التصوير». «هذه المسألة

تتجاوزني، أجاب الشرطي، يجب أن تبحث فوق». انصرف حسن مع إحساس واضح بأنه يراكم الفشل. كان يتمنى لو يستطيع أن يُظهر لابنه قدرته على مساعدته. ذهب عند الهندي في السوق الكبير من أجل شراء آلة التصوير نفسها. من سوء حظه لم تكن موجودة.

في تلك الليلة، جعل صوت أو وميض سليم ينتفض مثل نداءٍ جاء في حلم، كما لو أن أحداً دخل غرفته كي يأمره بأن ينهض ويأخذ الطريق نحو تطوان وبعد ذلك نحو سبتة. هناك، ينتظره شباب، ربما رفاقه الأفارقة. كان يفكر فيهم غالباً، وكان يتساءل عن مآلهم. كان يحدث أن يحسّ بالذنب لأنه تخلى عنهم. نهض سليم، بالكاد غسل وجهه، ارتدى سروالين من القطن الرمادي، صداراً، سترة قديمة، فتش في أحد الأدراج، أخذ المال ودون أن يلتفت هبط منحدر القصبة بكلّ سرعة إلى المحطة الطرقية حيث صعد في تاكسي جماعي، الوجهة تطوان-المضيق-سبتة.

كانت تمطر. ضاعفت الرياح من شراستها. كانت الأشجار تختفي في عاصفة كبيرة. لم يهتم سليم بذلك. لم يعُد سوء الأحوال الجوية يرعبه. تكور على المقعد الخلفي للمرسيدس القديمة والتصق بعجوز نائم. كان ذلك الأخير بارداً. ربما كان ميتاً. أخذ كريم يفكر في والده. أحسّ بالخجل. الكثير من الحزن في عيني ذلك الرجل الذي لم ينجح في شيء في حياته. البشرة السوداء ليست عذراً. فكرة الانتقام لوالده الذي كان

يحمل الفشل على وجهه، على كامل جسده، منحته الشجاعة. رأى جدته. كانت تحمل نظرة الأيام السيئة. طرد تلك الصور من ذهنه، أغلق عينيه، وأحسّ برغبة في البكاء. لا مجال لذلك. كان مصمماً على تجريب حظه بعيداً، بعيداً جداً. فكِّر في أميركا. صعبة المنال. كندا. أجل لِمَ لا. فانكوفر. كرّر ذلك الاسم ثم فضَّل مراقبة زوابع المطر تغطي الطريق والمشهد. أفضل، قال في نفسه، سأغادر في غموض هذا الضباب الجليدي السميك. لا أحد سيأتي للبحث عني هناك. فكّر أيضاً في كوبا. ربما وجد هناك والدته؟ حكت له نابو ذات يوم قصة ولادته. كان مستعداً لأية مغامرة، لكن أوروبا كانت في متناول اليد. سبتة في الأراضي المغربية، مدينة مغربية يحتلها الإسبان منذ خمسة قرون. جزء من أوروبا في عمق الأرض المغربية، الأفريقية. ومع ذلك فمن هناك سيبحر نحو طريفة أو الجزيرة الخضراء. البقية، كان يتركها معلّقة.

صباح اليوم الموالي، هزَّت نابو حسن عندما نهضت. حدث شيء ما. كان سليم قد غادر البيت عند مطلع الفجر. كان سريره مرتباً، أغراضه في مكانها، فقط حقيبة الظهر من جلد الغنم كانت مفتقدة. في درج طاولة السرير الصغيرة كانت توجد أوراق هويته. فهم حسن في الحال أنّ سليم قد ذهب ليحاول العبور نحو إسبانيا. انهار. كان ولده قد أهين في مركز الشرطة ولم يستطِع تجاوز جرح الكرامة. هو الذي كان ثورياً وجامحاً وجِدّ مرتبط باستقلاليته وحريته. نظر حسن إلى الشواطئ الإسبانية في

Tele: @Arab_Books

البعيد والتي كانت مرئية في ذلك الصباح: «هل سيكون أكثر سعادة هناك؟».

اعترفت نابو بأنها منحت سليم بعض المال. كان قد ادعى أنه اقترضه من أحد أصدقائه وأنّ عليه أن يسدِّده. فهم حسن أن ذلك كان من أجل المهرِّب الذي سينظّم عملية العبور. خرج في الحال وبخطى سريعة ذهب لرؤية صديقه الشرطي كي يطلب مساعدته. لم يكن الشرطي موجوداً، قيل له إنه في مهمة. انصرف حسن مقتنعاً أن مصيبة ستحصل. كان سليم قد ذهب بلا شك إلى سبتة، بما أنّ مليلية كانت بعيدة جداً عن طنجة. منذ بعض الوقت، أصبح المرشحون للهجرة السرية يحاولون العبور من هناك. كان يتمّ الإمساك بأغلبهم أو ردعهم من طرف الشرطتين، المغربية والإسبانية. اتصل بحسين ليُعلمه. طمأنه أخوه: «لا تقلق، سليم لن يحرگ. ليست له سِمة حرّاگ، لا بد أنه على موعد مع فتاة جميلة، هذا كل شيء».

أغلق حسن الهاتف وتساءل: ما هي بالضبط سِمة الحرّاگ؟ أحد يحرق وثائق هويته ويحاول العبور نحو أوروبا؟ أن يتعرّض للإذلال في بلده؟ ألّا يعثر على عمل ويضطهد من قبل الشرطة؟... دخل فقط في نهاية النهار، أخذ مهدِّئاً ونام.

خلال الليل، عند مدخل سبتة، أطلق الحرس الإسباني الرصاص على حشد من أفارقة جنوب الصحراء الذين كانوا يحاولون اقتحام السياج الذي وضع مكان نقطة العبور؛ كان يستحيل تجاوزه. في البداية أطلق أحد العناصر النار في الهواء،

Tele: @Arab_Books

تبع ذلك لحظة هلع. كان سليم في الخط الأول، ممسكاً بالسياج الذي جعلته الأمطار العنيفة والعواصف يترنح. تلقى في صدره رصاص طلقات الرشاشة الثانية. جرح آخرون. تمكن الأغلبية من الفرار. سارعت الشرطة إلى إخفاء جثة سليم في مشرحة سبتة وأعطيت تعليمات بإنكار كلّ شيء. بعد كل شيء، لم يكن لذلك الرجل أيّ وجود شرعي، لا وثائق هوية، لا أثر لأي انتماء. لن يعبُر أحدٌ جنوبَ الصحراء كي يطالب بجثة «مهاجر مجهول». هذا كان على الأقل رأي الشرطة الإسبانية. لكن ليس رأي بعض المهاجرين الذين بعد أن عادوا في الصباح الباكر إلى طنجة، أخذوا يتحدثون عند وصولهم، يحكون كيف قتلت شرطة الحدود شاباً وسيماً ولطيفاً تلك الليلة.

فقَدَ حسن الوعي عندما سمع ذكر الحادث في أحد المقاهي. فهمَ في الحال أنّ الأمر يتعلق بابنه. تقريباً في اللحظة نفسها، وجد طبيب المشرحة، الذي مرّ في وقت أبكر من المعتاد، في جيب سليم بطاقة بريدية كتبت مسبقاً على عنوان السيدة نابو، منزل رالف وخوان كارلوس، القصبة، طنجة. كان رقم الهاتف في الدليل. اتصل بالعائلة في الحال من أجل إعلامها.

عرف كريم أنّ شيئاً خطيراً قد حصل. كان قد رأى في الحلم ابن أخيه يجري على سطح البحر. قال في نفسه: هو ليس نبياً، لا أحب تلك الصورة. في الصباح، ذهب وارتمى في حضن والدته وبكى في صمت.

بعد الظهر، قرّرت نابو المكلومة أن تجمع كل أبنائها في منزل رالف وخوان كارلوس. كان حسن منهاراً. قرّروا جميعهم قضاء الليلة هناك من أجل إحاطة حسن بحبّهم. كانت المرة الوحيدة التي تحدَّث فيها عن والدة سليم، وتأسَّف لعدم قدرته على إخبارها.

بعد خمسة عشر يوماً، جاءت الشرطة إلى البيت. طلب شرطي بملابس مدنية رؤية حسن، والد سليم.

«نحن بحاجة إلى أن نطرح عليه بعض الأسئلة. روتين بسيط...».

لم يكن موجوداً، أعطتهم عنوان متجر حسين حيث كان حسن يشتغل ذلك الصباح. كان شقيقه قد طلب منه أن يساعده، كان سيتوصّل بطلبيات مهمة، وعليه أن يتحقَّق من التسليم ولم يكن يستطيع إمساك المتجر لوحده.

أمسكه رجال الشرطة من دون عنف. كما يُطلب من أحدٍ مَا تناول فنجان قهوة للتحدث عن حالة العالم. حسن، رغم أنّ الأمر كان يتجاوزه، فهمَ أن الأمور لن تذهب بعيداً. كان يعرف طُرُق عمل الشرطة وأساليبها جيداً. فكَّر في إحدى اللحظات في أخويه غير الشقيقين اللذين أصبحا من الإخوان المسلمين. ربما كانت الشرطة ترغب في الحصول على معلومات عنهما. أو عن سليم؟ تذكَّر فجأة قضية آلة التصوير. لكنه كان مخطئاً.

في مركز الشرطة أخذ الاستجواب بسرعة منحى عبثياً:

Tele: @Arab_Books

«الكنية، الاسم، تاريخ ومكان الازدياد».

لماذا يسألونه عن كلّ هذا؟ كانوا يعرفون بالضبط مَن هو الشخص الجالس قبالتهم، بما أنهم أتوا لإيقافه. . . قرَّر حسن ألا يبذل أيّ مجهود. أجابهم: «أريد أن أشرب القهوة وأقرأ الجريدة». كان قد أصبح يائساً بعد وفاة ابنه، ولم يكن له ما يفعله بأسئلتهم. كان في مكان آخر ويعتبر أنه في جميع الأحوال كان مصيره قد حدّد. انتهى به الأمر إلى إجابتهم بلا مبالاة، مرة بالعربية وأخرى بالفرنسية، الشيء الذي أزعج رجال الشرطة وجعلوه يكرر عدة مرات. صرخ شرطي قصير وسمين، يرتدي بذلة بنية قديمة، وقميصاً رمادياً وربطة عنق داكنة، في وجهه:

«إذا كنت أنت، أيها الأسود، ابن أحد اسمه أمير، فربما أكون الابن الخفي لملكة إنجلترا».

ارتفعت اللهجة وقرر حسن أن يقول أي شيء.

«والدتي شجرة ووالدي حصان!

- هل تهزأ بنا؟

- انطلقت أفريقيا بشكل سيئ!

- تلعب دور الأحمق كي تخدعنا. نعرف التقنية. لن تفلت بسهولة. لدينا صور تُظهرك في حي صدام، ضاحية خطيرة. يحيط بك السود، وأنت مرتاح، ماذا تفعل معهم؟ ماذا تقول لهم؟ أظن أنك تعدهم بالجنة في ألميريا. تعبر بهم المضيق، تستغلهم، هذا هو؟ هل تعلم أنّ برلماننا صوَّت على قوانين تدين الرق واستغلال الفقراء؟

Tele: @Arab_Books

– لا، لم أكن أعلم. لا أستغل أحداً، لا أحد.

– هذا ما سنتحقق منه».

فجأة، بلهجة حازمة، صرخ حسن:

«أعيدوا لي ابني!

– ابنك سليم؟ أنت تعرف جيداً ما كان يريد فعله في سبتة. شيء مؤسف، لكن الخطأ خطأه».

انغلق حسن فجأة، أخرج منديلاً وجفف جبينه وعينيه. قال لهم بلطف:

« القنفذ وردة شائكة... الحمار والزنجبيل... سقطت المنارة وخسروا الحلاق...

رائحة فم الضبع الكريهة أعدَت الشرطة...».

نظر رجال الشرطة إلى بعضهم مندهشين. قرّروا تركه لوحده مع هذيانه. في الغرفة المجاورة أخذوا يتناقشون وهم ينتظرون. السود أناس غريبون قطعاً، قال أحدهم. وصل بعدئذٍ: الرجل الذي كانوا يطلقون عليه «المثقف» لأنه يعرف عن ظهر قلب سلسلة أفلام **كولومبو**، الملازم الذي يحل ألغازاً جنائية وهو يدّعي السذاجة. سألهم بصوته العميق لماذا يتحاملون على الأفارقة في ذلك الوقت. أجابه الآخرون: «الأوامر هي الأوامر». قال لهم «المثقف» بهدوء: «تعرفون، أفريقيا هي أم الإنسانية وهي مستقبلنا كلنا». ضحكات غبية وكلمات في غير محلها رنت من كل جانب.

Tele: @Arab_Books

نوايا الشرطة السيئة تجاه حسن كانت قد ذكّتها الأحداث العرقية التي اندلعت في الأسبوع الماضي بين أفارقة، كلهم مهاجرون سريون، والتعليمات الصارمة التي كانت قد أعطيت لهم. كانت الصحافة تركز على عدم فعالية الشرطة التي استغرقت وقتاً طويلاً قبل أن تتدخل لتفرِّق المتحاربين. سقط ضحايا وجرحى بالسلاح الأبيض. ويبدو أن أوامر أعطيت كي يتمّ إعادة المهاجرين السريين إلى بلدانهم. كلّ رجل له بشرة سوداء كان مشبوهاً، وكل الذين يساعدونهم أيضاً؛ في ذلك الإطار تمّ التحقيق مع حسن. كان قد تمّ إخراج الصور التي وجدوها في آلة ابنه من الأرشيف. مدّ الشرطي واحدة يظهر فيها في محاولة لتخويفه وجعله ينهار:

«وهذا، هل تتعرّف عليه؟

- ليس أنا، إنه الحلاق الذي تمّ شنقه بسبب المئذنة، والمؤذن الذي لم تكن له سوى خصية واحدة...».

وصل شرطي آخر بمظروف مليء بالصور بسطها على الطاولة. كان قد تم التقاطها بواسطة مخبريهم. كان حسن يظهر في جميع الصور، مرة مع سود آخرين، مرة مع سليم أو وحده يجلس في شرفة أحد المقاهي.

«ستخبرنا عمّا كنت تفعله مع هؤلاء الناس. ولماذا أنت وحدَك في المقهى؟ من تنتظر؟ مع مَن كان لديك موعد؟ ما هو الدور الذي كان يلعبه ابنك في هذه التجارة؟».

لم يُجِب حسن. لم يعُد يتكلم. خرج الشرطي متعباً. بقي

Tele: @Arab_Books

حسن لوحده في زنزانته أمام كل تلك الصور. على الطاولة، ثم على الجدران، رأى سحالي وعناكب عملاقة وبراغيث بحجم الذباب، وخفاشاً ووجهاً ملتوياً، وجه جنّي. في البداية استمتع بهلوساته. أخذ يبتسم تاركاً لعابه يسقط على قميصه. ثم بال على نفسه. أحسّ بسائل ساخن يحرقه. انتفض، ثم من جديد، انتابته نوبة ضحك. كانت الرائحة كريهة. الآن يجب أن أتغوط، قال في نفسه، أن أتغوط حتى تصبح الرائحة غير محتملة، لأني يجب أن أكون نتناً، يجب أن أدفع الناس بنتانتي. غفا ثم سقط من فوق الكرسي. وجد صعوبة في النهوض، لعن الإنسانية، استطاع أن يقف أخيراً، خجل من حالته، ضرب رأسه بالحائط حتى أدماها. سالت الدموع على خديه. لم يمسحها. اضطجع على الأرض، تكور حتى كوَّن كتلة من دون شكل، أخفى وجهه بذراعيه ولم يتحرك. كان جسمه قد تحول إلى شيء غريب، شيء جامد، ركام من الحجارة الرمادية والسوداء، يغطيها لحاف متّسخ. كان قد دخل في نفسه ولم يعُد يحسّ بما يدور حوله. كان قد أصبح أداة يمكن التصرّف بها. كان بالإمكان رميه في حفرة أو إيقاظه، تنظيفه وتقديمه أمام قاضٍ عديم الرحمة مع السذج، لا شيء يهم الآن. بعد لحظة، نام ولم يرَ أية أحلام، علامة على أن حياته ودمه وجسمه انعدمت وروحه، وحدها، تقاوم في أحد الأركان وتحافظ على إنسانيته.

تمّ إرسال «المثقف» ليزوره. ارتعب ممّا رآه. كان حسن عارياً، ملابسه ممزّقة، وكانت الأرضية ملطخة بالبول والبراز.

لم يكن حسن يجيب عندما حاول التحدث معه. قام

«المثقف» باستدعاء القائد العام. وصل الرجل بعد فترة رفقة طبيب الخدمة، سد أنفه وأجرى مكالمة هاتفية.

في اليوم الموالي، توجّهت نابو وحسين اللذان استنتجا بأنّ حسن كان موجوداً تحت المراقبة إلى مركز الشرطة الرئيس. طلبت الشرطة صوراً تثبت أنه من أسرتهما. عندما قاما بإحضارها، بعد ساعتين، قال لهم شرطي الاستقبال:

«آه، إنه أسود! متأسف، جئتم متأخرين. الليلة الماضية، تم استئجار طائرة من أجل ترحيل مائة وثمانية وعشرين مهاجراً سرياً نحو السنغال. ستتم تسوية وضعية آخرين، ملفاتهم قيد الدرس. لكنه ليس من بينهم. نحن ندرس حالة بحالة، نحن إنسانيون».

كانت نابو تبكي، أخفت وجهها لأنها كرهت دوماً أن تبكي علانية. أخذ حسين يحتج:

«لا تملكون الحق، لا تملكون الحق! إنه تعسف وعنصرية. سنتقدم بشكوى ونعلم الشرطة الوطنية والدولية. أجل، سنندد بكم، سنعمل فضيحة. ولا أظنّ أن رؤساءكم سيقبلون ذلك. أنتم لا تحترمون شيئاً، ولا حتى أسى والدٍ فقَدَ ولده!».

بالضبط ذلك ما حصل، وصل صاحب درجة أعلى، وهو بلا شك مسؤول سام، وعلى الأقل يبدو أكثر مسؤولية من الآخرين. كان طويلاً ونحيفاً، كأنّ وجهه مقطّع بالسكين ويشبه الجنرال أوفقير بشكل غريب. كان يحمل ملفاً أصفرَ في يده.

«اهدأ، سيدي، لم يذهب. تم تحويله إلى المستشفى، في بني مكادة...».

Tele: @Arab_Books

التفت حسين نحو والدته التي كانت قد جففت دموعها:

« ماما، لقد أرسلوه عند الحمقى. بني مكادة، ليس مستشفى، إنه مصحة.

- بالفعل، فضلنا إرساله إلى مصحة أمراض عقلية من أجل بعض الفحوصات. لقد فقد عقله خلال الاستجواب. قدَّم كلاماً غير مترابط، أكَّد أن والدته حمار ووالده شجرة، مزّق ثيابه، عمل على نفسه...

- حصان، صحح الشرطي بالقرب منه.

- باختصار، كان يهذي، كان يقول أيّ شيء. لذا فضّلنا فحصه لنعرف إن كان فقط يدّعي ذلك كي يستهزئ بنا. كان يؤكد أنّ أخاه التوأم أبيض البشرة!».

صرخ حسين:

«لكن ذلك صحيح تماماً، أنا أخوه. حسن هو أخي التوأم».

نظر الرئيس إلى حسين مندهشاً:

«لم نرَ هذا أبداً، واحد أسود والآخر أبيض.

- هذا يحدث، سيدي، قالت له نابو بهدوء، هذا نادر، لكنه يحدث. لكن هذا لا يجعل من ابني مختلاً».

في تلك اللحظة دخل كريم مثل وميض ضوء إلى مركز الشرطة البئيس، الرمادي والرطب:

- ح... حسن، أخ... أخي، أين ح... ح... حسن؟

الرئيس:

«لكنها عائلة مجانين...!».

Tele: @Arab_Books

أمسك كريم ذراع المسؤول، الشيء الذي لم يكن يفعل، لكنه تركه يفعل. نظر إليه وهو يبتسم، ثم أخذ يحكي له حكاية «عائلة المجانين» تلك. كان يقلّد مشاهد، يكرّر كلمات، يحلف على المصحف، تحدّث عن شجرة رائعة في أفريقيا، عن جزيرة غوري، ابتدأ المسؤول بالحديث، ذلك الرجل ذي المظهر القاسي حتى جعله يبتسم ثم يعتذر، باسم رجاله، الذين كانوا قد أساؤوا معاملة حسن.

تحدَّث المسؤول مع أحد في الهاتف، سمع يقول: «أجل، لا، لا أعرف... بالتأكيد... نعم، نعم... طيب، أنتظركم».

ثم استدار نحو نابو والولدين:

«ستحضره سيارة إسعاف. كان خطأ، يحدث هذا، تعرفون مع كلّ هذا العدد من الأفارقة من دون أوراق الذين لا يتكلمون، نحن محرجون جداً. نحن فعلاً متجاوزون وعبثاً ننتظر أوامر من الرباط. لكن ابنكم كريم، أعرف جيداً أنه لا يستطيع أن يكذب، هذا يرى على وجهه، هذا الولد نور. لكن، عذراً، كريم أيضاً ابنك؟ هو أبيض، بل شديد البياض...».

أحنت نابو رأسها وقالت:

«أجل، كريم أيضاً ابني، لست والدته، لكنه النور الذي يضيء عائلتنا. أتساءل ماذا كنت سأكون من دونه».

أخذ كريم نابو بين ذراعيه وغطاها بالقبلات.

مسح المسؤول جبينه. أحسّ بأنه مرهق بعد كلّ تلك الأحداث الغريبة، عاد نحو مكتبه. بعد أن أغلق الباب، لم

Tele: @Arab_Books

يستطِع حبس نفسه من أن يسأل أحد رجال الشرطة: «فسِّر لي كيف يمكن لامرأة سوداء، سوداء جداً، أن تلد طفلاً شديد البياض وتوأماً أسود وأبيض؟».

اكتفى الشرطي بالقول:

«لا بد أنها إرادة الله القادر على كلّ شيء!

- ابحث لي في أحد القواميس عن التفسير العلمي، يا غبي! بدل أن تذكر الله في كل مرة يظهر فيها غباؤك».

وصل حسن بعد ساعتين، تائهاً، ملابسه قذرة ونظرته فارغة. كانت رائحته كريهة. لم تجرؤ والدته ولا أخواه على الاقتراب منه. كان رجلاً محطماً، عاد من سفرٍ كاد يفقد فيه عقله وربما حياته. كان الغياب، بالنسبة إليه، هو الوسيلة الوحيدة كي يردّ على الحماقة والقسوة. الجنون غالباً مصطنع، ملمع، محضر، يشغله الآخرون. حتى وإن كان من المُبالغ فيه القول إن «الجنون هو الآخرون»، الآخرون لهم دخل ما، لهم دخل كبير. جرمه، لم يكن حسن يحمله على وجهه، لكن على كامل الجسد. كان أسود، وعوقب لأنه وُلد كذلك. رغم أن ذلك ليس نقصاً ولا خطأ. شيء بشري بكلّ بساطة. يجب أن نعرف يوماً لماذا يحدّد لون البشرة إلى هذه الدرجة مصير الرجال، لماذا ينقذ البعض، بينما يُرسل آخرين إلى الجحيم.

أراد المسؤول على نحو أخرق أن يقدِّم لهم نصيحة أخيرة:

Tele: @Arab_Books

«لا تخرجوا أبداً من دون أوراق. من اليسير جداً أن يُرتكب خطأ...».

تمتم حسن كلمة «حمام»، ثم وافى والدته بخطى متردّدة، أخذ كريم وحسين بين ذراعيه وبقي واقفاً لحظة طويلة.

انصرف الأربعة سيراً، وهم يتماسكون بالأيدي، ولم يلتفتوا.

*

جمع الحكواتي أغراضه، ترك القدح المليء بالقطع، أمسك عصاه، واختفى في اللحظة التي كانت فيها الشمس تغرُب عن كثبان فاس.

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

Arab_Books

الطاهر بنجلّون

زواج المتعة

«كان في مدينة فاس، ذات مرة، حكواتي لا يشبه أحداً». هكذا تبدأ هذه الرواية، كأنها حكاية، حكاية يرويها لنا الحكواتي الحكيم جحا:

«هذا المساء سأقص عليكم حكاية حب، حب جارف ومستحيل عاشته شخصياته حتى آخر رمق. لكن كما سترون، خلف حكاية الحب الأعجوبة تلك، يوجد الكثير من الكراهية والاحتقار، الكثير من الشرّ والقسوة. شيء عادي، هكذا الإنسان. أردتُ أن تكونوا على علم بذلك حتى لا تصيبكم الدهشة».

إنه محكيٌّ كُتِبَ بشكل جميل، روحي، فلسفي، وإنساني، يجعلنا نسافر عبر مغرب يعيش في خضم تغيّرات مهمة، ويلقي الضوء، عبر قصة أمير ونابو، على مواضيع عديدة مثل الحب، والزواج، والغيرة، والعنصرية، والظلم، والتعصب، والتطرف الديني...

السعر: 70 درهماً مغربياً

ISBN 978-9981-72-036-7

9 789981 720367

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com